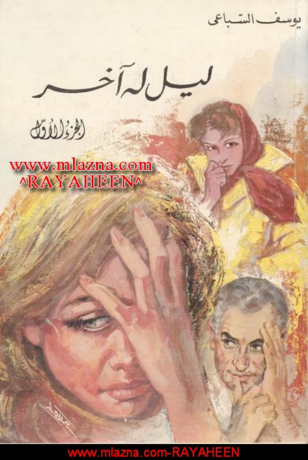

يوسف السباعي
ليل له آخر
الجزء الأول
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^
www.mlazna.com-RAYAHEEN

مقدمة

هذه هى الرواية الرابعة التى اكتبها انفعالا باحداث كبيرة مرت بنا فى تاريخنا الحديث .

الرواية اولى « رد قلبى » انعكست فيها الثورة بكل ما تعبر عنه فى هذه الفترة من تاريخنا .

والثانية « نادية » بدت من خلالها معركة التأميم .

والثالثة « جفت الدموع » رويت فيها احداث الوحدة .

وهذه القصة عاش أبطالها نكسة الانفصال .

ولقد تساءل البعض عن سبب التزام هذا الخط التاريخى اهو نوع من الالتزام السياسى ؟ . وسبب لى هذا التساؤل نوعا من الضيق ، فانا لا احب الالتزام المفروض او بمعنى ادق الإلزام .

ولكنى احسست ان الفترة التاريخية التى نمر بها قد شحنت بالاحداث التى تجعل الكتابة عنها انفعالا قبل أن تكون التزاما .

ووجدت القدر يأبى إلا ان يضعنى دائما فى قلب الأحداث وان اعيشها بكل جوارحى . .

فلقد عشت فى دمشق وقت الانفصال ومارست الحياة هناك فترة طويلة قبلها . واحسست بمشاعر الناس وانفعالاتهم .

ولقد اعقب تجربة الانفصال فى حياتى تجربة إنسانية أخرى مررت بها كانت هى تجربة ابنى « إسماعيل » ورقدته فى قفص من الجبس ما يقرب من عام .

ولست اظن الكاتب يملك الانعزال عن تجاربه وتجارب مجتمعه ،

وبست اظن والامر كذلك إلا ان هذه القصة التى اقدم لها حصيلة تجربة مجتمع وتجربة إنسان . ولا اظن فيها التزاما مفروضا بل هى تعبير مباشر عن انفعال صادق .

ولعل استنكارى لتهمة الالتزام لا يبرره إلا إيمانى المطلق بحرية الكاتب وبان العمل الفنى الاصيل لا يمكن ان يصدر إلا عن تفكير متحرر من كل قيد إلا قيد الضمير .

يوسف السباعى

الإهداء

فى عرض البحر الاحمر . . . .

والسفينة تشق طريقها إلى اليمن ، اقبل علىّ اسمر الوجه رقيق السمات يسألنى فى حياء إن كان يستطيع ان يعرف خاتمة هذه القصة فقد شق عليه الرحيل إلى الميدان دون ان يتم قراءتها إذ لم تكن قد استكملت النشر مسلسلة .

ووقفت وإياه على سطح المركب اقص عليه ما لم ينشر بعد من القصة .

وعندما امسك بها الآن كاملة احس برغبة فى ان اهديها إليه .

فإلى الصديق النقيب « سمير » اهدى قصة « ليل له آخر » .

اهديها إليه قارنا منحنى من التقدير اصدقه واخلصه .

واهديها واحدا من مقاتلينا الذين خاضوا اشرف المعارك وانبلها .

يوسف السباعى

... وأنت طيبة

لمن اكتب .. ولماذا اكتب ؟

اما لمن .. فشىء محير !!

فالحديث كما يبدو موجه إليك .. ولو اعتبرنا الشكل وكاف الخطاب .. لما كان هناك من حاجة إلى التساؤل .. ومع ذلك اشك كثيرا فى ان اكون قد قصدتك بحديثى بقدر ما قصدت نفسى .. فانا القيه .. لالتقطه .. والوكه فى ذهنى .. كما يلوك الطفل قطعة الحلوى فى فمه .. استطعمه .. انعم بترديده .. واستمتع برجع صداه .

فانا إذن اكتب لنفسى .. لتنعم بالحديث إليك .. حديث طويل .. لذيذ ممتع .. اطوى به ايامى الثقيلة البطيئة وابدد به بعض ذلك الضباب المعتم الذى جره علينا فجر اسود تأبى ان تشرق به شمس ..

اكتب لاعيش حياتى ثانية .. اجترها .. بكل ما فيها من مـــرارة وحلاوة ، وشقاء وهناء ، واحداث وذكريات .

ذكريات !!

تعبير جائر .. فالذكريات شىء كان .. وما بيننا لا يمكن ان يوضع فى مجال ما كان .. إنه كان .. ولكنه ما يزال كائنا .. وسيبقى ما بقى لنا إحساس بهذا الكون .

لن ادع كلمة ذكريات تتردد على لسانى ابدا ..

لا .. ولا وداع .. ولا فرقة ولا بعد ..

ولا اية كلمة من هذه الكلمات المرة اليائسة التى لا يمكن ان تعبر

عن حقيقتنا .. حقيقة ما بيننا .. ما كنا فيه .. وما صرنا إليه .. وما يمكن ان نصير إليه .

هل تصدق إذا ما قلت لك إنى لم اكن فى حياتى اشد ثقة ولا اكثر إيمانا ولا اقوى املا مما انا عليه الآن .

بعد كل ما مر بنا .. من الهزات .. والصدمات .. واللطمات .. بعد كل هذه الأحداث التى خضناها .. والتى انتهت بى إلى رقدتى العاجزة المشلولة .. تطوف بى الوجوه مطلة بابتسامات عريضـــة مشدودة إلى الأذنين تحمل من معانى الجزع اكثر مما تحمل من معانى الابتسام .. ابتسامات جامدة كأنها الأقنعة الضـــاحكة .. يهتف بى أصحابها فى مرح عصبى بأنى بخير .. وكأنى بهم يؤكدون انى لست بخير .

بعد كل هذا .. هل تصدق .. انى وحدى الذى احس بالطمانينة على نفسى .. وان الابتسامة التى تعلو شفتى .. هى وحدها الصادقة وسط كل هذا السيل الزائف من الابتسامات المحيطة بى .. والتى تعبر عن إحساس من الأعماق .. بأنى بخير .. او على الأقل ساكون بخير .

هل تصدق .. إذا ما قلت لك إنى احس كأنا لم نفترق .. وكان رحيلك بكل ما احاط به من مظاهر المرارة والألم واليأس .. لا يمكن ان يكون سوى رحيل إلى عودة .. وانه لا يزيد على اجازة قصيرة إلى القاهرة .. لا يلبث ان يقطعها شوقك إلىّ .. ويردك إلىّ قبل ان تنتهى .

هل تصدق ان بنفسى الراقدة العاجزة .. كل هذه الآمال العريضة .. المشرقة .

انا نفسى لا اكاد اصدق .

عندما اذكر رقدتى الأولى ، منذ سنوات طويلة مضت ، واليأس الذى غمرنى ، وقطع خيوط الأمل من آفاقى والقى بى من فجر حياتى إلى بهيم معتم السواد .

كان ذلك منذ سنوات طويلة .. طويلة .. عقب العيد الثانى عشر لمولدى .. وكنت قد قضيت يوما سعيدا مليئا بالمرح والبهجة .

كان الربيع قد اقبل .. والجو قد اخذ يميل إلى الدفء ، واستيقظت على يوم مشرق الشمس .. رطب النسمة .. وفتحت عينى لأجد نفسى بين ذراعى ابى ، وقد انحنى علىّ يضمنى فى رفق ويهتف بى :

— كل سنة وانت طيبة .

وضممته إلىّ واجبته وانا نصف مغمضة :

— هكذا حاف ! لا تنفع .

— ماذا تريدين .. مرى .

ولم يكن من السهل علىّ ان آمر .. لا لأنى اخشى الا اجاب ، بل لأنى لا اعرف ان اوامرى ملباة قبل ان افصح عنها .. فلا اظننى احسست ابدا فى اية مرحلة من مراحل عمرى انى كنت فى حاجة إلى ان اطلب شيئا .

لقد كنت دائما اكثر من مدللة .. كنت هواية ابى المفضلة ، وشغل امى الشاغل .

ولم يفسدنى الإفراط فى التدليل ، لا لرجاحة فى عقلى كما كنت اتهم .. بل لأن امى وابى كانا من فرط الرقة والحب بحيث كنت اخشى ان اسبب لهما اى ضيق او انفعال ما احس انه قد يخدش مشاعرهما اقل خدش .. كنت اخاف عليهما اكثر مما اخاف منهما .. وكانت خشيتى من إغضابهما اقدر على تقويمى وردى إلى الصواب وإلزامى بطاعتهما من خشيتى من عقاب منهما .. كنت اعلم علم اليقين انه غير واقع مهما فعلت .

وعندما يمنح الله مثل هذين الابوين إلى جانب شغفهما المفرطة بابنة وحيدة ، سعة فى الرزق ، ووفرة فى المال .. تجعل مشاعرهما الودودة سهلة الترجمة من اقوال إلى افعال .

عندما يمنحهما الله العطف ، والمال المنفذ لمظاهر العطف ، تصبح ابنتهما ، التى هى انا ، محرومة من الإحساس بأنها فى حاجة إلى شىء ، او انها تريد شيئا .

كان ابى ثريا ، بلغة جيله ، وإقطاعيا ، بلغة جيلنا .. كان يملك ما يربو على الالف دونم فى مناطق مختلفة من الشمال ، والجنوب .. من الجزيرة حتى السويداء ، ولم اكن ادرى عنها اكثر من انها سبب لاختفائه عنا بضعة اشهر على مدار العام .

اما اكثر ما كنت احس به من ممتلكاته — غير الدار التى نقطنها — فهو بستان الغوطة فى دمشق ، مراحى الاخضر المزدهر ، ومرتع طفولتى ، بأغصانه الحانية ، وقطوفه الدانية ، ومياهه الباردة الجارية .

ومن وحى البستان تقفز إلى ذهنى ، مطلبى الذى ما زال ابى يضمنى إليه فى انتظار امرى به .

كنت اعرف انه قد اتى لى بكل ما يمكن ان اطلبه من لعبات وحلوى وكتب واسطوانات .. وكنت اعرف ان « امى » قد تولت الجانب الآخر من مطالبى وهو الثياب .

المطلب الوحيد الذى كنت اعرف انه لا يقدمه إلا إذا طلبته .. قد كان هو نفسه .. إذ كان من فرط مشاغله ومن فرط لهفتى عليه ، يعتبر من اندر المطالب التى يمكن الحصول عليها .

ودفعته عنى برفق حتى انظر إلى عينيه وقلت له فى نوع من الإصرار :

— اريدك انت .

وابتسم فى سعادة واجاب :

— انا تحت امرك ، بمجرد ان انتهى من عملى سأعود إليك .. و ..

وقلت مقاطعة وانا اشير إليه بسبابتى منذرة :

— لن تذهب إلى عملك ، ستقضى اليوم معنا فى الغوطة ، سندعو التى ، وسلمى ، لنتغدى هناك .

ومد يده يرفع الشعر من فوق عينى ، وبدا كأنما اسقط فى يده وقال متضاحكا :

ــ سأعود إليكم بمجرد ان انتهى .

وعدت اقاطعه :

ــ بل ستبقى معنا ، طول اليوم .. إنك لم تجلس معنا منذ شهر .

ــ إنى مرتبط بعدة مواعيد ، ولابد ان اقابل وزير المالية فى هذا الصباح ، ولابد ان احضر مجلس إدارة شركة الاسمنت بعد الظهر .

وقاطعته فى ضيق حقيقى :

ــ كل هذا ستفعله اليوم ! كنت اظنك تعرف ان اليوم عيد ميلادى .

ونظر إلىّ لائما :

ــ بعد كل هذا لا اعرفه ! لقد اعددت لك كل شىء .

ــ إلا نفسك .

ــ وحتى نفسى ساعدها لك ، سالغى كل مواعيدى ، لن اذهب إلا لموعد الوزير ، وسانصرف مع « عبد الحميد هانى » ، ثم اعود إليكم قبل الغداء فى الغوطة .. ايرضيك هذا ؟ !

وفتحت ذراعى اضمه إلىّ فى فرحة ، وانا اتساءل :

ــ وستبقى معنا طول اليوم ؟ !

ــ طبعا .

واقبلت « امى » وقد اشرق وجهها بابتسامة عريضة وقالت مازحة وهى تضمنى إليها :

ــ الم يكتكما غزلا .. كل سنة وانت طيبة .

ــ وانت طيبة يا ماما .

ــ هيا للفطار .

ونهض « ابى » .. ليكمل ارتداء ثيابه وشيعته بنظرة إعجاب ، وقفزت من الفراش لالحق بأمى قائلة :

ــ سنقضى اليوم فى الغوطة .

وردت « امى » بلهجة قاطعة :

ــ سنذهب بعد الغداء .

ــ ولماذا لا نتغدى هناك ؟

ــ الاسطى عباس سيتأخر ، والاستراحة هناك تحتاج إلى تنظيف ، و ....

وكنت اعرف إجابة « امى » سلفا ، واعرف مدى ضيقها بعملية الطعام فى الغوطة ، لعدم استعداد الاستراحة هناك للولائم ، وضيقها بنقل الاطعمة والمواعين ، وثقل حركتها ، وعدم تقبلها لمشروعاتى المفاجئة ، التى يمكن ان يسلم بها « ابى » بمنتهى السهولة .

ومع ذلك ، ورغم معرفتى بإجابتها ، كنت قد عزمت على الغداء فى الغوطة ، فقد كنت اتوق إلى قضاء اليوم بأكمله هناك .. وكنت اعرف ان يوم ميلادى ، هو خير فرصة يمكن استغلالها للقضاء على مقاومة « امى » الطبيعية لعملية الغداء فى الغوطة .. فتعلقت بذراعها متوسلة :

ــ لقد دعوت سلمى ، وستاتى خالتى واولادها ، و ....

ــ ومن اجل هذا سنتغدى هنا .. بيت الغوطة لا يحتمل كل هؤلاء .

ــ ولكنى قلت لهم إننا سنتغدى هناك .

ــ سنقول لهم إننا سنذهب بعد الغداء .

ــ ولكن ..

والتفتت إلىّ « امى » وقد توقفت قرب المائدة :

ــ سهير .. لا تكونى عنيدة ، دعينى اتولى كل شىء ، نحن لم ندع الناس للشرشحة والبهدلة ، لابد ان يكون الغداء لائقا ، والغداء فى الغوطة لن يكون ابدا لائقا .

ــ لماذا ؟ ! إننا نستطيع ان ننقل كل شىء .

وكان لابد ان استعين بأبى ، فصحت به وقد اقبل يربط الكرافتة ويتساءل :

ــ ما الحكاية ؟

ــ ماما لا تريد أن نتغدى فى الغوطة .

ــ لماذا ؟ !

واجابت « ماما » فى اقتضاب :

ــ لانى لا احب الشرشحة .

ورد « ابى » ضاحكا :

ــ ولكننا نحب الشرشحة .

ونظر إلىّ متسائلا :

ــ اليس كذلك يا سهير ؟

وأجبت ضاحكة :

ــ انا شخصيا .. اموت فى الشرشحة .

ورد ابى :

ــ انتهينا .. اثنين ضد واحد .. اغلبية .

وقالت « امى » فى عناد :

ــ سنتغدى هنا .

ورد « ابى » ببساطة :

ــ سأعود فى الظهيرة إلى الغوطة .

وكنت اعرف ان « ابى » أميل دائما إلى الرضوخ لرغبات « أمى » .. حتى يريحها ويريح نفسه ، ولكنى كنت اعلم ايضا انه إذا جد الجد سلمت له بسهولة بما يريد . وكنت احس من لهجته وهو يقول إنه عائد إلى الغوطة ان الجد قد جد .. فلم احاول أن ارهق نفسى فى إتمام المناقشة لانى كنت واثقة اننا سنتناول الغداء فى الغوطة .

وجلسنا حول المائدة .. واقبلت « حنيفــــة » تحمل طبــق البيض ووضعته امامى وهى تقول :

ــ كل سنة وانت طيبة .

وكنت اشعر ان « حنيفة » اكثر من مجرد خادمة ، وما اظننا تعاملنا قط على مستوى سيدة وخادمة .. كانت نصف امٍ ، ونصف صديقة .. وشدتنى طيبتها وحنانها ، وطول عشرتها لى برباط وثيق من المــودة والالفة .

ومددت ذراعى فاحطت به عنقها ورددت على قبلتها قائلة :

ــ كل سنة وانت طيبة يا حنيفة .. كان مفروضا ان تسافرى إلى اخيك عبد الدايم .. لقد عطلتك عن السفر .

ــ يوما او يومين او حتى اسبوع لا يهم .. إنه لن يطير من قريته .. إنه مــــزروع فى الارض كأشــجار الصفصـــاف ، وخـــالدة زوجته قد وضعت وقامت بالسلامة .. إنها مسألة واجب يا ست سهير ، ولن يضيره أن اتأخر عليه قليلا .

ــ سأعطيك هدية لابنه .. إياك ان تنسيها .

ــ ربنا يخليك لنا يا ست سهير .

وعادت « حنيفة » إلى المطبخ والتفتت لامى قائلة :

ــ اريد شيئا ارسله للصبى المولود .

ــ سأعطيك مصحفا صغيرا فى سلسلة ذهبية .

وانتهينا من الإفطار بسرعة .. فقد بدا كل منا كان فى ذهنه عددا ضخما من المشروعات يريد تنفيذه على عجل ..

وقبل ان يغادر « ابى » البيت التفت إلى « امى » قائلا :

ــ سآخذ العربة الشيفروليه واترك لك المرسيدس مع الاسطى على .

واجابته « امى » محذرة :

ــ لا تتأخر .. حنيظة ستأتى مع زوجها ، ولا داعى لان تميتهم جوعا فى انتظار مجيئك قرب الغروب .

ــ لا تخافى .. سأكون عندكم فى الظهر .. الا تريدون شيئا ؟

وصحت به بتحيتى التقليدية وهو يفتح الباب ويهبط الدرج :

ــ مع السلامة .. لا تتأخر .

وبدات « امى » حركاتها العصبية السريعة فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقل الوليمة من البيت إلى الغوطة .. وكان الاسطى « عباس » الطباخ قد وصل ، فأمرته بان يأخذ جميع احتياجاته ويذهب مع الاسطى « على » لشراء ما يلزمه ثم يسبقها إلى الغوطة ويعيد إلينا العربة .

ولم اجد ما يدعونى للبقاء فى البيت فقلت لها :

— ساذهب معهما وسامر فى طريقى بسلمى .

واجابت محتجة :

— ستعطلينهما .. ابقى معى حتى نذهب سويا مع خالتك حنيظة .

وكان هذا سببا ادعى لإصرارى على الذهاب فقد كنت افضل ان امرح مع « سلمى » فى الغوطة على ان ابقى لتبادل التحيات مع خالتى وزوجها وابنها « حسان » .

كان زوج خالتى صاحب تجارة واسعة يمتـلك إحـدى شركات النسيج الكبرى ، ويعتبر من اقدر رجال الاعمال فى « سورية » واقواهم نفوذا .. وكان المفروض ان خالتى « حفيظة » هى المستشار الاول له .. فهى سيدة ذكية .. شديدة النشاط ، دائمة الحركة ، لها نشاط إيجابى فى كل مجال تحل به .. وتكاد تكون عضوا فى جميع الجمعيات النسائية والادبية والخيرية .

وباختصار كانت من النوع الذى يكره ان يبقى فى الظلمة ، والتى تدفع براسها بكل ما تملك من طاقة لكى تبقى على السطح ، تحت الاضواء .. وكان لها من ملكات اللطف والذكاء والاناقة .. ما يمنحها الطاقة الدافعة ، لكى تصبح دائما شيئا ما .

كانت على نقيض اختها — امى — سيدة البيت الطيبة التى تجد فى بيتها اقصى مناطق نفوذها ، والتى تمارس سلطانها المطلق داخل البيت على كل من به من مخلوقات .. من اول « ابى » حتى « حنيفة » .. بل حتى اخيها « عبد الدايم » المزروع فى قريته والذى لا تراه إلا كل ستة اشهر عندما يأتى لزيارة أخته « حنيفة » .

وكانت الاختان — امى وخالتى — بنفس ملامح الوجه .. بحيث يستطيع اى إنسان ان يدرك الصلة بينهما دون ان يعرف بهما .. وإن كانت طبقة الشحم التى كست « امى » والتى ادركت « خالتى » بذكائها انها لا تتلاءم مع مجالات نشاطها .. قد ابدت امى اكبر بكثير من حقيقتها ، وجعلت فارق العامين بين الاختين يكاد يصل إلى عشرة اعوام .

ولقد كنت احب « امى » اكثر من « خالتى » ما فى ذلك شك .. ولكن لو ترك لى الخيار لاكون إحداهما .. لاخترت الخالة .

كنت اكره ان اسجن كامى فى مثل هذه الدائرة الضيقة : المسماة بالبيت ، وكنت اكره بالتالى هذا الشىء الذى يمكن ان يؤدى إلى هذه الدائرة الضيقة المغلقة كوضع حتمى لحياتى .. واعنى بهذا الشىء .. الزواج الذى كانت « امى » تعتبره منتهى آمالها بالنسبة إلىّ .. وكانت كل افكارها تدور منه فى حلقة مفرغة .

بل لقد ذهبت إلى حد وضع مشروع كامل له ، وانا بعد فى هذه السن المبكرة ، وحددت العريس بالذات وهو « حسان » ابن « خالتى » .. بالاتفاق مع امه ، بطريقة شبه جادة .

لقد فكرت كلتاهما فى المسالة بطريقة منطقية سليمة ، كان اهم اغراضها حفظ تراث العائلة المادى من الضياع فى يدى الاغراب .. بما فى ذلك ارض ابى واموال ابيه ، ثم الاحتفاظ بالتراث المعنوى للعائلة ، والمجسد فى صورة فتى وفتاة ، يعتبران فى مجال الزواج لقطة من السفاهة التفريط فيها .

وهكذا رسمت الاختان الخطوط العريضة لحياة الجيل التالى من الاسرة .. وكان على بقية الاسرة ان تأخذ الامر كقضية مسلم بها .

وبالنسبة إلىّ لم احاول بالطبع ان اناقش الامر .. لانى كنت اعتبره نوعا من المزاح ، فقد كنت ابعد مخلوقات الارض تفكيرا فى مسالة الزواج هذه ، سواء بحسان ، او بغيره .. وكان جمع صور « ليلى مراد » و « ديانا دربن » و « إستر ويليامز » ما زال يشغل حيزا من تفكيرى اكثر كثيرا مما يشغله الزواج .. وكان الاعجاب بالجنس الآخر لا يكاد يجد مجالا فى نفسى إلا عن طريق ابى .. او « روك هدسون » و « عماد حمدى » وزملائهما من نجوم الشاشة البيضاء .

ومع ذلك فثمة شىء لابد ان يقال بخصوص مشاعرى لحسان .. لقد كانت فى مجموعها مشاعر طيبة لمخلوق طيب ، ولكن لم يكن فيها قط اى إحساس بإعجاب .

ولم احاول مرة ان احشره فى زمرة أبطالى الوهميين من ممثلين ومطربين وكتاب وغيرهم من ابطال احلام اليقظة الذين نحيطهم بهالة من انفعالاتنا لا تلبث ان تخبو كلما تطورت منابع الانفعال فى انفسنا ، فتبهت معالمهم وتضيع سمات بطولاتهم الموهومة ويصبحون من ذاكرتنا فى زوايا النسيان .

ولا حاولت حتى ان انظر إليه بعين الفحص والاهتمام ، بل كنت آخذه كشيء كائن مسلم به ، وكنت اجد به الكثير من سمات « أمى » ومعالمها واخلاقها .. نفس الطيبة ، ونفس التقاطيع .. وحتى طبقة الشحم التى تعلوه .. جعلته اقرب إلى « أمى » منه إلى « امه » هو .

وقد يكون هذا أكثر ما اخرجه عن مجال الإعجـاب به كرجـل .. وما جعل حشره بين الخطوط العريضة المرسومة لمستقبلى يبدو لنفسى كمزحة اقرب منه إلى امر جاد .

ولم تكن المقاييس التى اطبقها عليه والتى اخرجته من نطاق مستقبلى تعنى شيئا لدى « أمى » .. بل ربما كانت تعنى لديها عكس ما تعنى لدىّ .

كانت « أمى » تجد فيه نموذجا لزوج الإبنة .. بكل ما فيه من طيبة ومسالمة ، ورقة وعطف ، ونجاح فى دراسته الجامعية .. كما كانت « امه » تجد فى نموذجا لزوجة الإبن ، وكانت — فوق اقتناعها بسلامة مشروع الزواج من الناحية العقلية — تحس انى اقرب الناس إليها فى هذه الاسرة .

بقى ان احدد وضعه هو نفسه فى المشروع .

كيف كان يراه .. وما هى مشاعره بالنسبة الىّ .

اما عن إحساسه لى .. فلا اظنه كان يفضل كثيرا إحساسى له .. ولا اعتقد انى كنت اثير فى نفسه اى إحساس بالإعجاب .. إذ كنت لا ازيد فى نظره عن مجرد طفلة .

ولم يحاول بالطبع وهو يرانى ما زلت انهمك فى جمع صور « ليلى مراد » و « ديانا دربن » و « إستر وليامز » .. ان يدخل معى فى

مناقشة من اى نوع ، ولا ان يقرأ لى تلك القصيدة التى نظمها ونشرت فى مجلة الآداب والتى لم يترك احدا إلا اراها له وقرأها عليه .. حتى « حنيفة » اراها صورته المنشورة بجوار القصيدة ، ومع ذلك لم تستطع فرحته ان تحول دون ان يدفع إلىّ بمجلة الرسالة الجديدة التى نشرت قصة له قائلا :

— خدى .. اقرئى .

وامسكت بالمجلة افرها متسائلة :

— اقرأ ماذا ؟

— قصة « دموع النادمة » .. منشورة جنبا إلى جنب مع مقال طه حسين ، وتوفيق الحكيم .

وعدت اتصفح المجلة .. فوجدت تحت اسمه بضعة اسطر .. كلام ككل الكلام الذي يكتب فى القصص ، فالتفتت إليه قائلة :

— احكها لى .

— بل اقرئيها .

— لا داعى لأن تتعبنى يا حسان .. احكها وخلصنى .

ومد يده ليتناول المجلة فى يأس قائلا :

— هاتى .. هاتى . « بدرى عليكى » .. عندما تكبرين ستستطيعين القراءة .

وقبل ان اناوله المجلة لمحت صورة « لأنجريد برجمان » فوق نقد فيلم يعرض لها فى القاهرة فقلت له راجية :

— هل استطيع ان آخذ هذه الصورة ؟

وجذب منى المجلة فى عنف قائلا :

— هاتى .. بلا لعب عيال .

هكذا كانت مشاعره نحوى .. وهكذا كان موقعى فى نفسه لا يقل تفاهة عن موقعه فى نفسى .

ولم يكن بمثل هذا الشعور بمستطيع ان يفهم مشروع زواجنا الخطير .. إلا على انه مزحة أهل ، وعبث امهات تماما كما كنت أفهمه .

ولا جدال فى ان عدم الإعجاب المتبادل قد كان احد العناصر التى جعلت مشروع الزواج بالنسبة إلينا شيئا لا يستحق حتى مجرد الاعتراض .

المخلوق الذى كنت احس بانه مرآة يمكن ان تنعكس عليها كل خبايا نفسى .. والذى كنت اخلد إليه مرتاحة مسترخية .. هو « سلمى » زميلتى فى المدرسة .

كنت اتبادل معها الأفكار السخيفة التى تطوف براسى وكنا نتبادل الضحك من الاهل والسخرية من الآباء والأمهات .. وفى الساعات الطويلة التى كنا ننطوى خلالها فى حجرتى او حجرتها .. كنا نريق الضحك بغير حساب ، فقد كان شيئا ما .. اشبه بالسالب والموجب .. يتصل بيننا فيولد تيارا من الضحك .. كنا نتبادل كل شىء حتى الثياب ، وكانت تفهمنى كما افهمها .. بقدر ما نملك من فهم ، أو عدم فهم .

وكنا نعد المشروعات سويا .. لننفذها سويا ، ونتلقى عليها الشتائم سويا .. من امها ومن امى .

وفى يوم مولدى .. كانت لدينا عدة مشروعات مشتركة ، مشروعات مشتروات واكل .. وسينما .

وكان علىّ ان انزل مبكرة مع السائق والطباخ ، لامر عليها .. ثم ننطلق إلى السوق لننتقى مشترواتنا ، ونذهب بعدها إلى الغوطة .

ومن اجل ذلك ، ومن اجل جميع الأسباب التى وضحتها سلفا .. والتى لا تجعلنى اهوى البقاء فى البيت لتحية خالتى وزوجها .. واتخاذ وضع العروسة المثالية المقبلة لابنهما « حسان » .. من اجل هذا كله ، ارتديت ملابسى فى ثانية ، ووقفت بالباب اعلن امى .

— انا نازلة .

وصاحت بى :

— قلت لك انتظرى حتى تحضر خالتك .

— يا ماما انا مستعجلة .. لابد ان امر على سلمى ، وانزل إلى السوق لإحضار الجونلة والبلوزة .. و ..

— معنى هذا ان الأسطى عباس لن يطبخ فى يومه ؟

— ابدا .. سننتهى من كل هذا فى بضع دقائق .. ثم نذهب إلى الغوطة .

— ولماذا لا تنتظرين حتى تنزل كلنا معا ؟

ولم يكن هناك بد من اتباع طريق التوسل المصحوب بالأحضان .. فاقتربت منها وضممتها إلىّ وانا اهتف بها مستعطفة :

— اريد ان اتمتع بجو الغوطة فى هذا الصباح اللطيف .

ولانت الأم الطيبة واجابت :

— اذهبى .. واياك ان تؤخرى الطباخ .. وارسلى العربة بمجرد ان نصلى إلى الغوطة .

واندفعت إلى السلم اتواثب على درجاته .. متجهة إلى بيت « سلمى » .. واغنية طروب تطوف براسى وكانى بالدنيا الحلوة تهتف بى : « كل سنة وانت طيبة » .

مناقشة حول مائدة

وصلنا إلى الغوطة ، وهبطت انا و « سلمى » من العربة واستقبلنا « حسين » الحارس وزوجته ، واخذا فى مساعدة « الاسطى عباس » لنقل معداته إلى داخل البيت الصغير ذى الشرفة الرحبة المطلة على رءوس أشجار المشمش المكللة بالزهر الابيض المترامية على مدى البصر كانها أمواج البحر يعلوها الزبد او قمم الجبال يكسوها الجليد .

وكان الوقت ما زال مبكرا ، ونسمة الصباح الرطبة اغلب من شعاع الشمس الدافىء الذى يطل من رقع السحاب بين آونة واخرى ، وكان البيت لا يزيد عن حجرتين للرقاد وبهو كبير للجلوس والطعام يفضى إلى الشرفة الكبيرة .

وتعالت إلى سمعى اصوات مضخة المياه المجاورة للبئر بدقاتها الرتيبة والمياه تندفع من فوهتها فيما يشبه الهدير .. وبنفسى حنين لا يقاوم إلى المياه المتدفقة ، إلى رشاشها المتطاير وزبدها الابيض النوار ، إلى عنفوانها الثائر حتى تضمه حنايا المجرى العريض ، فينطلق بين ذراعيه فى استرخاء وصفاء .

وامسكت بذراع « سلمى » وهى تتكىء على حافة الشرفة محلقة فى البساط الأبيض الرائع الموشى بزهر المشمش وهتفت بها :

ـــ هيا بنا .

ـــ إلى اين ؟

ـــ إلى العريشة ، وإلى بيت الدجاج نجمع البيض .

ـــ الم تحذرك امك من جمع البيض ؟ !

ـــ هذا يوم الممنوعات ، سأفعل كل ما اريد .. وستغفر لى امى فى نهايته كل خطاياى .

ـــ وابوك ؟ !

ـــ يغفرها دائما .

واندفعنا نهبط درجات الدرج الحجرى ، ونعدو بين جذوع الأشجار الضخمة ، نتواثب فوق القنوات ، ونخوض وسط احواض الزرع الأخضر ، حتى وصلنا إلى العريشة .

وابصرت المياه تتدفق مندفعة فى الغدير الذى اقيمت عليه العريشة اسفل شجرة الجوز الضخمة العتيقة بأوراقها الخضر العراض المتكاثفة ، ولم أستطع مقاومة منظر المياه الجارية ، فخلعت حذائى ، واخذت اخوض فى المجرى كالأطفال ، واندفعت بساقىّ المبللتين اعدو إلى بيوت الدجاج .

كنت احس نشاطا عجيبا وسعادة غامرة ، فليس اجمل من ان يجد المرء نفسه قادرا على ان يفعل ما يشاء ، وقتما يشاء .

وفعلت انا و « سلمى » كل ما يخطر لنا ببال ان نفعله من عبث الصبية ، حتى استقر بنا المقام على الارائك المنخفضة تحت العريشة بعد ان اعددنا الجرامفون وزودناه بكل ما نحب من اسطوانات ، واسترخينا نقلب فيما بين ايدينا من كتب والبومات ومجلات ، ونقزقز الفستق ، ونطوح بقشره فى الغدير .

ولم اكن اظننى ارجو من حياتى اكثر من هذا .. كانت آمالى لا تتجاوز هذا المجال الصبيانى المحدود ، بكل ما فيه من لعب وقراءة وموسيقى .

كنت مخلوقة بلا مشكلات ، حتى مشكلات الدراسة لم اكن اعتبرها مشكلات ذات بال ، فقد كانت قدرتى الذهنية اكبر دائما من اى مرحلة

درنسية اقطعها ، بالإضافة إلى اننى وابى لم ناخذ الدراسة ابدا ماخذ الجد ، ولا كنا ندخل السقوط والنجاح ، كما هو الحال فى معظم الاسر فى باب الكوارث او الاحداث السعيدة .

مشكلاتى الصغيرة كانت تنحصر فى مرآتى ، وما اراه فيها يوما بعد يوم من مساوىء فى صورتى ، من ذقن تكبر ، او انف يتضخم ، او جبين يعرض ويتسع ، واوهام كثيرة كانت لا تفتأ تنبت فى مرآتى لتنغص على عيشتى وتوهمنى بأنى اقبح خلق الله ، على حين كان الجميع يؤكدون لى بأقوالهم ونظراتهم ، ولفتاتهم ، بأنى مخلوقة جميلة .

مشكلة المشكلات كانت شعرى ، اورثنى إياه — سامحه الله — ابى الكريم ، ضمن ما اورثنى من مزاياه .

كانت خيوطه مجعدة ، تظهر على حقيقتها ، كلما رطب الجو ، فلا يفيد فيها شد ولا ربط ، مما جعلنى اخشى مناطق الرطوبة واولها بيروت ، واعتبرها مناطق خطر على شعرى الذى استطعت ، بما اكتسبته من خبرة فى التمشيط — جاوزت خبرة امهر الحلاقين — بأن احتفظ به دائما مفرودا على اكمل وجه .

فإذا اعتبرنا تلك هى مشكلاتى الحقيقية ، وإذا اعتبرنا ان معظمها اوهام فى اوهام ، وانى فى جملتى مخلوقة — بلا غرور — جميلة ، وجدنا انى كما قلت ، بلا مشكلات ، وان كل ما اطلبه كان ملك يدى ، وان حبى للناس لم يدع للناس مفرا من ان يحبونى ، فانعدمت من حياتى حتى مشكلات الحسد والحقد والبغضاء .

وفى جلستى تلك تحت العريشة التى تظلها شجرة الجوز وتحيط بها اشجار الخوخ والمشمش ، ويختلط فيها خرير المياه ببكبكة الدجاج بموسيقى الدانوب الازرق بطرقعة قشر الفستق بين شفتى وشفتى « سلمى » .. فى جلستى هذه كنت احس انى اسعد مخلوقة فى هذه الدنيا .

وبدأ ضيوف ميلادى يتوافدون على الغوطة .

كانت الدفعة الاولى « خالتى حفيظة » وزوجها وابنهما « حسان »

تصحبهم الوالدة العزيزة .. التى انطلق صوتها ينادينى للاطمئنان على انى ما زلت على قيد الحياة .. ولم يصبنى مكروه .

ولم أجب عليها .. فقد كنت اكره دائما ان نتبادل الحديث بالصياح على مسافات كبيرة ، ونهضت ذاهبة إليها .

وعاد صوتها يصيح بى فى مبادىء جزع :

— سهير .. اين انت ؟

لم يكن هناك بد من ان اصيح مجيبة عليها وانا اضع قدمى فى الحذاء :

— أنا هنا تحت العريشة .

— الدنيا برد عندك .. هل تلبسين البلوفر ؟

ولم تكن الدنيا بردا .. ولكنها كانت دائما تتوهم ان البرد يختصنى بهجومه .. وان أهم واجباتها فى الحياة .. وقايتى من هذا الهجوم .

وكنت قد وصلت إلى الباب حيث تقف العربة . وافهمتها بهدوء أن الدنيا حر .. فقالت فى شىء من الجزع :

— إياك ان تجرى وتعرقى .. وتتعرضى للطشة هوا .

ولم اجبها بشىء .. لسبب بسيط ، هو انى لم اكن انوى الجرى .. فقد جريت بما فيه الكفاية .. وعرقت فعلا .. وإذا كان هناك مجال لتعرضى للطشة هوا فلابد انى اخذتها وانتهيت .

وضمتنى « خالتى حفيظة » إلى صدرها فى حرارة .. واشتممت من صدرها عبقا جميلا .. كانت دائما معطرة وانيقة .

رحبت بزوجها .. او خالى « عبد الله » كما كنت ادعوه .

وضمنى إليه قدر ما سمح له انتفاخ بطنه ، وربت ظهرى فى شىء من الإعجاب بزوجة ابنه .. وقال مازحا :

— كبرنا يا سهير .. واتدورنا واحلوينا .

ولم اخجل من تعليقه .. من فرط ما تعودته .

كنت اخجل فى بادىء الامر من مظاهر النمو فى جسدى .. ومن

نظرات الاقرباء إليه نظرات ذات معنى .. وابتسامات تعبر عن مدى فهمهم وتقديرهم لكل ما نتأ به من نتوءات .

وكانت « امى » نفسها من اشد المعجبات بى .. إعجابا عاما بشخصى .. وإعجابا خاصا بإحدى مناطق نفوذها .. او اقرب مناطق النفوذ إلى نفسها .

وكانت منطقة النفوذ الاولى بالطبع .. ابى .. ولكنه كان فيما يبدو منطقة مقلقة مستعصية .. يأبى إلا التمتع بالاستقلال الذاتى .. والتحرر من السيطرة .. مما يجعل نفوذ الأم عليه محدود المدى .

وكنت — والأمر كذلك — البديل الطبيعى الابى .. فى ممارسة سيطرة الأم واستغلال نفوذها العائلى .. وكنت بحكم انوثتى .. منطقة نفوذ بديهية ممهدة .. بل كانت تعتبرنى جزءا من نفسها .. وكانت تحمل نفسها بالنسبة إلىّ مسئوليات لا يمكن ان يحملها مخلوق عن آخر .

كانت مسئولة عن إطعامى .. ولست اقصد بذلك مسئوليتها عن إعداد الطعام .. ولكن اقصد عن إطعامى كما تطعم الأوزة .. او بتعبير ادق .. عن تزغيطى .

وكانت تتوهم دائما انى مخلوقة عاجزة .. لا قدرة لى على التفكير او التصرف .. او بمختصر القول .. حيوانة صغيرة .. ولم يكن يخطر لها انى انمو وان نموى مستمر .. إلى الحد الذى يحتمل معه ان اصبح اما مثلها وانجب ابناء مثلى .

عندما كنا نجلس على المائدة كانت تشير إلى طبق اللحم قائلة :

— كلى لحم .. انت تحتاجين إلى بروتين .

— اكلت يا ماما .

— لم ارك تاكلين .

— والله العظيم اكلت قطعة .

— كلى قطعة اخرى .. إنك ضعيفة .

— حاضر .

واتناول قطعة اللحم فازدردها لكى اريحها .. ولكى اضيف بعض البروتين إلى جسمى .. وتنظر إلى طبق السلطة قائلة :

— كلى سلطة خضرة بها فيتامين س .

— شبعت يا ماما .

— قلت لك كلى .

ولم تكن مسئوليتها عن إطعامى تقل عن مسئوليتها عن إلباسى .. كانت لا تكاد ترانى انتهيت من لبس ثيابى حتى تهتف بى :

— تعالى ارينى ماذا ارتديت .

ولا تكاد تلقى علىّ نظرة خاطفة حتى تصيح بى :

— ما هذا الذى فعلت بنفسك .. اذهبى .. اخلعى كل هذا والبسى الفستان الأزرق .

— يا ماما هذا يعجبنى .

— قلت لك البسى الفستان الأزرق .. ماذا يقول الناس عنك ؟

ولم اكن اعرف ابدا ماذا يمكن ان يقول الناس عنى .. لانى كنت دائما اذعن لما تريدنى ان البس من ثياب ، كما كنت دائما اذعن لما تريدنى ان آكل من طعام .

كانت تشعر اننى الجزء النامى من حياتها .. لم اكن ابدا شيئا منفصلا عنها .. ومن اجل ذلك كان يمكن بسهولة ان تحرم نفسها — باعتبارها الجزء غير المهم منها — من اى شىء لتمنحنى إياه باعتبارى الجزء الهام من نفسها .

ورغم ما فى كل هذا من دلائل رائعة على فرط حبها لى ، ورغم انى كنت اشعر لها بحب مماثل ، وانى كنت لا اتصور ابدا ان يمسها ضر او يصيبها خدش او مرض .. إلا اننى كنت اضيق بهذا الحصار الأموى الخانق من الحب والاهتمام وكنت اتمنى لو كانت اقل حبا واضعف اهتماما .. وكنت افضل على حبها طريقة ابى العاقلة فى حبى .

ومع ذلك كان علىّ ان اذعن لحصارها .. وانطوى — مؤقتا —

بين الخطوط التى ترسمها لحياتى .. واتصرف كما تحب ان اتصرف ، والا اقابل مشروع زواجى الخطير ، بما يستحق من سخرية .. وان اقبل على « حسان » بالاهتمام اللائق .

وشددت على يده الممدودة إلىّ ، وبنفس السهولة التى شممت بها عطر امه وهى تضمنى إلى صدرها .. استطعت أن اشم رائحة عرقه وهو على بعد ذراعين منى — ذراعى وذراعه — وان الح الشعيرات التى تنبت فى صدغه الممتلىء الذى كساه الاحمرار .

وكان يحمل فى يسراه بعض الكتب والمجلات .

وعاد يهز ذراعى فى ترحيب قائلا :

— كل سنة وانت طيبة يا سهير .. لقد تركت محاضرة بعد الظهر من لجلك .. رغم أن الوقت ازف .. والامتحـــانات قد اضـــحت على الابواب .

واجبته بالسخرية التى تعودت ان اعامله بها :

— امتحانات خطيرة ؟ !!

— طبعا .. امتحانات الليسانس .

— وماذا ستفعل بعد حصولك على الليســانس الخطير ؟

واجاب ابوه ونحن نصعد الدرج متجهين إلى البهو :

— لست اجد هناك اى خطورة فى ليسانس الآداب ، كنت اتمنى ان يدرس التجارة لعله يحمل عنى بعض اعبائى .

ولم يعلق « حسان » على قول ابيه .. ورد علىّ فى حماسة :

— ساذهب إلى القاهرة لأدرس للدكتوراه .

وهز ابوه راسه فى ياس قائلا :

— لافائدة .. من العبث لن اجعلك تهتم باعمالنا الحقيقية .

وردت خالتى حفيظة :

— لن تمنع دراسته للآداب .. من اهتمامه بالعمل عندما يجد نفسه مسئولا عنه .

ورد الاب :

— متى ؟ ! بعد أن اموت ؟ !

وردت أمى فى طيبة :

— بعد الشر عنك .

ورد « حسان » فى رقة :

— البركة فيك يا بابا .

— كنت اود أن تعرف شيئا عما نحن فيه من مشكلات . لقد دخلنا فى منافسة قاتلة مع شركة الشرق .

ويبدو ان احدا منا لم يكن على استعداد للإنصات إلى مشكلات الخال « عبد الله » ومنافسته مع شركة الشرق .. وكنا نعرف جميعا انه كفيل بحل مشكلاته بطريقة او باخرى ، وانه لا يستعصى عليه اى شىء ونفوذه فى الحكومة لا ينكره احد .. لا سيما وان نصـــف الوزراء اقرباؤه أو اصدقاؤه ، وعلى راسهم ابن عمه وزير المالية الذى ذهب ابى لمقابلته .

واستطاعت « خالتى حفيظة » ان تدير دفة الحديث بمهارة قبل أن يسترسل الخال فى سرد مشكلاته مع شركة الشرق .

وبدأ « حسان » يخرج من بين الكتب التى معه مجلة لم اشك من علامات السعادة فى وجهه أن بها شيئا له .. قصة أو قصيدة .

ولم يكن امامه بالطبع غير « سلمى » يمكن ان يمارس فيها عملية استعراض ما نشر له .. لا سيما وان امى قد تولت عنا إلى المطبخ .

ومد « حسان » يده بالصحيفة إلينا قائلا دون أن يخفى فرحته :

— قصيدة نشرت فى مجلة الرسالة وفى مقدمتها تعليق من رئيس التحرير .. ساقرؤه لكما .

وجذبت المجلة من يده قائلة :

— هات ساقرؤه انا .

وبدات اقرا بصوت مرتفع ، وهو يصلح لى قراءتى بين آونه واخرى

.. وقبل ان انتهى سمعت صوت عربة ابى تقف بالباب ، فقذفت بالمجلة من يدى واندفعت إلى الدرج .

كان مجيء ابى يعنى دائما شيئا طيبا لى .. فلا اظنه دخل علىّ ويده فارغة ابدا ، حتى انى لاذكر انه قد تجمعت عندى من الدمى واللعب فى طفولتى ما كان يمكن لى ان اقيم به محلا لبيع العرائس ولعب الاطفال .. وكانت امى دائما تتهمه بالجنون .

وهبطت إلى الباب ، ولم اجد ابى وحيدا .. بل كان معه « عبد الحميد هانى » وزير المالية وزوجته وابنته « عادلة » .

واحسست بشيء من الخجل ، ولكنى سرعان ما تغلبت عليه ومددت يدى مرحبة أحيى الضيوف .

وقال ابى مفسرا مجيئهم :

— مفاجأة يا سهير ؟

واجبته على الفور :

— مفاجأة سعيدة .

— لقد طال اجتماعى بعبد الحميد بك .. واراد ان يدعونى للغداء .. ولكنى اعتذرت له بارتباطى معك . فتكرم وقبل دعوتى .

واتم « عبد الحميد بك » قول ابى :

— واستطعنا معا ان نقنع كوثر وعادلة بالحضور .

واتجهنا إلى اعلى بعد ان تسلمت من « عادلة » لفافة الهدية التى احضروها إلى مصحوبة باعتذار الأم التقليدى:

— ليست على قدر المقام يا سهير .. ولكن الذنب ذنبك .. فقد كان عليك ان تنذرينا بيوم مولدك .. بدل ان يفاجئنا به ابوك .. فلا نعرفه إلا بطريق الصدفة .

وتمتمت بضع كلمات غير مفهومة .. لم يفهمها احد بالطبع لأنى انا نفسى لم افهمها .

ودون ان يحس احد بدأت اتحسس اللفافة لاعرف نوع الهدية ، ثم قفز ذهنى فجأة إلى وقع هذه الدعوة المفاجئة على امى .. فقد كانت

تحذر ابى دائما من دعوة ضيوف بلا إنذار ، إذ كانت تخجل ان تلقاهم بغير الاستعداد اللائق ، وكان ابى ينسى تحذيرها كل مرة ، ويدعو اصدقاءه للطعام بحسن نية ، معتقدا ان صديقه يمكن ان يشاركنا طعامنا بلا سابق إعداد .. ولكن امى كانت تعتبر المسألة اخطر مما يأخذها ابى .. وانه لابد من الاستعداد للدعوة بما يليق بالضيف .

ولم اتعب نفسى كثيرا فى التفكير فى مشكلة امى .. لا سيما وانا اعرف انه لابد ان يكون لديها من الطعام ما يكفى لضعف العدد المنتظر .. ومع ذلك لم تكد امى تلمح الضيوف حتى احسست بما يخامرها من جزع .. واستطعت ان اكتشف من نظرات اللوم التى توجهها إلى ابى مقدار ما ارتكب من ذنب بهذه الدعوة المفاجئة .

ولم تطل نظرات امى اللائمة لابى ، فقد ضاعت بين التحيات المتبادلة واصوات الترحيب والفكاهة والمرح .

وعادت امى مسرعة إلى المطبخ لتواجه المشكلة الخطيرة التى وضعها فيها ابى .

انقسم الضيوف جماعتين .. جماعة ضمت ابى .. والخال « عبد الله » وابن عمه الوزير .. وجماعة ضمتنى وسلمى ونادية وحسان .. ولحقت خالتى « حفيظة » بامى فى المطبخ تعينها على امرها .

وبدأ « حسان » من جديد يواصل قراءته لقصيدته الجديدة وتعليق رئيس التحرير عليها .. واستطاع ان يجد من « عادلة » ومن « سلمى » نوعا من الانصـــات .. ولكنى لم استطع ان اسمع اكثر من بيتين .. ووجدت سمعى يقفز متنقلا بين احاديث ابى واصدقائه .. وصيحات امى الصادرة من المطبخ وصراخ « حسين » الحارس اسفل الدار .

واستطعت ان التقط من احاديث ابى انه يريد قرضا لشراء عدد من التركتورات ، وسمعت شيئا عن صفقة قمح ، وعن إيجار الأرض ، وعن اشياء مما كان ابى دائم التحدث عنها .. ثم بدات دفة الحديث تتجه إلى مشكلة الخال عبد الله ، وعدت انصت من جديد إلى « حسان » ، وإلى

مشروعه للذهاب إلى القاهرة للإعداد للدكتوراه ، ورســالته عن تاريخ القصة ، وقال إنه سيلتقى بطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وقطع حديثه صياح أمى بحنيفة .. ثم مجىء خالتى « حفيظة » وقد اختلطت رائحة العطر فيها برائحة المطبخ .

واخيرا انتهى الإعداد من الطعام ، وهممنا بالنهوض إلى المائدة ، ولمحت فى وجه « سلمى » شيئا من الحرج والخجل وهى تجد نفسها وسط كل هذا الجمع ، وفكرت ان تعد مائدة مع « عادلة » على حده .. ولكن « خالتى حفيظة » لم تترك لنا فرصة التفكير .. فقد اقبلت علينا تشدنا إلى المائدة كانها صاحبة البيت قائلة :

— هيا بنا .. الاكل جاهز .

واستقر بنا المقام حول المائدة . وبدا الحديث من جماعة الرجال .. يسيطر على المائدة ، واشتركت فيه خالتى حفيظة .

وعادت مشكلة الخال « عبد الله » مع شركة الشرق تطل برأسها على مائدة الطعام .

وقالت خالتى « حفيظة » موجهة القول إلى الوزير :

— هذا غير معقول .. إنهم يريدون ان يخربوا بيوتنا .

واضاف زوجها قائلا :

— الأسعار التى يعرضون بها .. قطعا تؤدى إلى الخسارة .

واجاب الوزير فى شىء من التسليم العاجز :

— المنافسة حرة يا عبد الله .

— طبعا حرة فى أن تخرب بيتنا .. إنهم يغشون والحكومة عاجزة عن ضبطهم .

وهز الوزير راسه وتساءل ضاحكا :

— لماذا لا تغش انت ؟ !

وضحك ابى وقال مازحا :

— من ادراك انه لا يفعل ؟

واضافت خالتى « حفيظة » بنفس السخرية :

— ولكنهم فيما يبدو يغشون اكثر .

وصمت الوزير برهة وبدا منهمكا فى تقطيع قطعة من اللحم لم يكد يلتهمها حتى رفع راسه قائلا فى لهجة جادة :

— اسمع يا عبد الله .. الحكومة لا تستطيع ان تفعل لك شيئا .. وتبادل التهم ايضا لا فائدة منه سوى خسارتكما معا .

وتساءلت خالتى حفيظة :

— والحل ؟ !

— ان تتفقا .

وبدا الرضا على ملامح خالتى وتنهدت قائلة :

— قلت له هذا مائة مرة .

وعاد « عبد الحميد بك » يقول :

— لماذا لا تتفقان وتدمجان الشركتين ، وتسيطران على السوق كله ، وتنهيان هذه المنافسة الحمقاء ؟ !

— على اى اساس يكون الاتفاق ؟

— اى اساس .. خير من هذه الحرب الشعــواء بينكما التى لا يفيد منها سوى المستهلك .

— ولكنهم قد يفرضون شروطا ؟!

— تساهل يا عبد الله .. كل شىء يمكن التفاهم عليه .. ولكنى اؤكد لك انكما إذا اتفقتما امكنكما السيطرة على السوق كله .

واقبلت « حنيفة » تحمل نوعا من الحلوى .. افقدنى الانهماك فيه القدرة على متابعة المناقشة .. وكان كل ما رسب فى ذهنى من مشكلة الخال « عبد الله » انه إذا استطاع الاتفاق مع شركة الشرق مسيطرا على السوق كله .

ولم اعرف بالطبع اية سوق ولا اية سيطرة .

كان طعم الحلوى أغلب فى فمى .. من طعم الحديث .

وتركنا المائدة .. الكبار لتناول القهوة ، ومواصلة الحديث فى مشكلة الخال .

والصغار للعريشة لسماع الموسيقى ، والإنصات برغمنا إلى قصيدة « حسان » والمقدمة التى كتبها رئيس التحرير .. ومشروع الدكتوراه فى مصر ، ولقائه بالكتاب الكبار .. وانه سيصبح واحدا منهم فى يوم من الأيام .

ولم يحاول لحظة ان يندمج فى مناقشات أبيه ، ولا اهتم قيد أنملة باتفاقه مع شركة الشرق ، وسيطرته على السوق .

وانتهى الرجال من احتساء القهوة وبدأ الفوج الاول من الضيوف فى الانصراف .

وكان علينا أن نعود إلى البيت لاحتساء الشاى الذى اعد لزميلاتى فى الدراسة .. ثم للذهاب إلى السينما لنتمم اليوم بالعشاء فى نادى الشرق .

كان يوم ميلادى .. يوما حافلا .

أول دمعة

انتهى يومى الحافل وعدت اخيرا إلى البيت .. ومع الذكريات التى تكأكأت فى رأسى متدفقة تعرض لى كل ما فعلت فى يومى الطويل .. منذ صباح الغوطة حتى سهرة النادى ...

مع تلك الذكريات المتزاحمة احسست بشىء يثقل رأسى ويدور به مستترا فى جانب من جوانبه طارقا جبينى من الداخل بما يشبه دقات مطرقة رتيبة ملحة متواصلة .

وقلت لنفسى : « تعب اليوم حل بى فى آخره » .. وبدات انفض عنى ملابسى ، لارتدى قميص النوم وأستقر فى الفراش لارخى جسدى واوقف دقات المطرقة فى رأسى .

ولكنى احسست بموجة التعب تتدافع وتكاد تعجزنى حتى عن ارتداء القميص .. ووجدت انفاسى تتلاحق ساخنة كأنى محمومة .. ولم يصعب علىّ ان ادرك من صوت انفاسى وطعم فمى وانحلال اوصالى أنى مقبلة على مرض .

وكرهت ان استعين بأمى درءا لما يمكن أن يصيبها من جزع لا تستحقه حقيقة حالتى ، وخشية ما يمكن أن يصيبنى من لوم وتقريع واستعادة لكل ما نصحتنى به خلال اليوم من نصائح بأن أهدأ واخشع واهمد ولا اخفف ملابسى ، ولا اعرق ولا اتعرض للهواء .. إلى اخر هذه القائمة من النصائح التى كان إهمالى إياها — فى اعتقادها — سببا اكيدا لكل ما حل بى .

وتسللت إلى حجرة المكتب ابحث عن زجاجة « الاسبرين » التى كنت اظن انى فى حاجة إليه كعلاج مبدئى لى .

ولم اجد الزجاجة ، وذهبت إلى « حنيفة » اسألها فى صوت خفيض :

— الم ترى زجاجة الاسبرين ؟

وقبل ان تجيب « حنيفة » سمعت صوت امى يعلو متسائلا فى انزعاجها الطبيعى :

— لماذا تريدينها ؟

اجبت فى ضيق وانا اجدها توشك ان تكشف امرى :

— اشعر بشىء من الصداع .

وقبل ان يصلنى ردها .. رايتها تقف بجانبى وتمد يدها لتتحسس جبينى وتهتف فى جزع :

— انت ساخنة !!

ثم مدت شفتيها تتحسس شفتى كمجس ترمومترى ادق من كفها على جبينى وعادت تهتف فى جزع شديد :

— بماذا تحسين ؟

وسحبت نفسى من بين يديها ضائقة بكل هذا الجس والتحسيس والجزع ، وقلت لها :

— قلت لك شىء من الصداع .

— فقط ! ؟

— وبعض الهمود .

— اين ؟ !

— فى رجلى .

— فقط ؟ !

— وفى كل جسدى .

ولم تلبث بعد هذا الاستجواب السريع ان اصدرت حكمها قائلة فى ضيق :

— بردت .

وجرتنى من يدى إلى حجرتى قائلة :

— سأنام معك .

ولم اكن احس فى قرارة نفسى ان ما بى يستحق ان تعلن امى حالة الطوارىء التى بداتها بإعلان نومها معى .. وصحت بها محتجة على إعلان الطوارىء .

— المسألة لاتستحق .

وعادت تجذبنى إليها وهى تباشر عملية الجس من جديد :

— جبينك كالفرن .. حرارتك لا تقل عن ٣٩

ثم بدات تستعرض سلسلة التحذيرات التى ساقتها إلىّ خلال اليوم مبتدئة بجملتها التقليدية :

— لكى تسمعى كلامى .. ولا تركبى راسك بعد هذا ، هذه هى النتيجة .. طول النهار .. اقول لك اهمدى .. اختشـى .. الم احذرك فى الصباح وانت مستلقية تحت العريشة بتلك البلوزة الخفيفة .. الم ...

وقلت اقاطعها وانا اجد الصداع تزداد طرقاته :

— ماما .. لا فائدة من كل هذا الآن .. اريد ان استريح .

ومدت إلىّ يدها بقرص الاسبرين قائلة :

— ابتلعى هذا .. وساضع كمادات باردة على جبينك .

وكان ابى قد اقبل بعد ان وضع العربة فى الجاراج ، ووجد امى جالسة بجوارى على طرف الفراش فتساءل فى دهشة :

— ماذا بك ؟

— واجبته وانا ارسم ابتسامة على شفتى :

— شىء من الصداع .. اصابتنى عين من فرط ما استمتعت بيوم مولدى .

— سلامتك من العين .. ومن كل سوء .

ومد يده يتحسس جبينى فى رفق ، ولم يستطع ان يخفى من عينيه علامات الضيق والقلق .. وربت خدى قائلا :

— الأسبرين سيهدىء حرارتك .. استريحى .. وغدا تصبحين افضل .

واتجه ابى إلى حجرته .. وتمددت امى على الفراش بجوارى وكفها يتحسس جبينى بين آونة واخرى .

واغمضت عينى .. وساد السكون البيت .. ولم أعد اسمع سوى حفيف الشجرة الكبيرة القائمه على باب البيت . تحركها هبات النسيم ، واصوات عربات تمرق من امام البيت بين آونة واخرى هابطة المنحدر المؤدى إلى الميدان او صاعدة إلى الساحة المشرفة من فوق الجبل على المدينة .

ولم أعرف متى غفوت .. كنت اغمض عينى واتقلب فى ملل ، وانا أحس بانفاسى كأنها السنة اللهب المتلاحقة ، واطرافى تزداد تثاقلا .. وطعم المرض يزداد فى فمى ، وبين آونة واخرى تسألنى امى وهى تحس تململى :

— ماذا بك يا حبيبتى ؟

وبقدر ما املك من قدرة على الرد اجبتها ، محاولة ان اطمئنها :

— ابدا .. ليس بى شىء .

— والصداع ؟ !

واجبت كاذبة وانا احس طرقات الصداع تدق راسى كمطرقة حداد عصبى عجول :

— احسن .

وعاد الصمت يطبق .. وحفيف الاغصان يصل إلىّ من وراء النافذة كأنه الوشوشة .

واعتقد انى نمت .. لست ادرى متى .. ولا إلى متى ، ولا اكاد اعرف حتى كيف استيقظت .. كل ما اذكره هو كف امى فوق جبينى ووجهها يلامس وجهى وهى تتساءل فى شىء من الجزع :

— ماذا بك يا حبيبتى ؟ ! ماذا يضايقك ؟

واجيب فى شىء من الإعياء وانا ادفع يدها عن جبينى :

— ليس بى شىء يا ماما .. كفى جسا لى .

وحاولت ان انقلب لأمنحها ظهرى حتى انأى بوجهى عنها واتخلص من كل هذا الجس المقلق والقلق المزعج .

واحسست بشىء من الدهشة وانا اجد التقلب متعذرا كأن شيئا يشدنى إلى الفراش .. ليثقل جسدى ويقيد حركتى .

وعدت احاول التقلب باذلة كل ما املك من جهد .. ولكنى أحسست بعجز تام عن لف نصفى السفلى ، ومددت يدى فى شىء من الذهول .. احاول ان استعين بها على التقلب .. فإذا بى اكتشف ان ساقى اليمنى .. لم تعد لى .

لقد تحسستها .. كما اتحسس شيئا غريبا عنى .

واحسست بخوف شديد من ساقى .. كأن احدا قد دس ساقا غريبة فى فراشى .

وخفت ان امد يدى لجسها .

وازدردت ريقى فى خوف .. واحسست كأن شفتى قد جفتا .

مضت برهة .. وانا مأخوذة . عاجزة عن التفكير .. عاجزة عن التصرف .. عاجزة عن الصياح .

كنت اشعر كأن احدا اخذ ساقى ، ووضع مكانها ساق إنسان آخر .

وكانت امى ما زالت تتحسس جبينى وتضع خدها على خدى .. وعادت تسألنى فى قلق :

— ماذا بك يا سهير ؟

وازدردت ريقى مرة اخرى .. وقلت لها هامسة :

— ساقى .

— ماذا بها ؟

ولم اعرف ماذا اقول .. إن ساقى ليس بها شىء .. إنها غير

موجودة اصلا .. وهذا الشىء الموجود الذى يشبه الساق .. لا يمت إلىّ بصلة .

ونهضت امى ومدت يدها إلى الاباجورة فاضاءتها .. وعادت تسال فى قلق ،وهى تكشف عنى الغطاء فى شىء من الحذر :

ــ ماذا بساقك ؟

ــ لا اعرف .

ــ كيف لا تعرفين .. مجزوعة ؟

ــ لا .

ــ منملة ؟

ــ لا .

ــ ماذا بها إذن ؟

واجبتها فى صوت مبحوح ، لا اكاد اسمعه :

ــ لا اعرف ياماما .

وبدت نبرات الضيق فى صوتها وهى تسال ملحة :

ــ كيف لا تعرفين ! ؟ من يعرف إذن ؟

ومدت يدها تتحسس ذلك الشىء الملتصق بجسدى الشبيه بالساق ، وقالت وهى تحرك يدها متنقلة من مكان لآخر :

ــ هنا .. ام هنا ؟

ولم اجب بالطبع .

وعادت تسال فى عصبية :

ــ انطقى يا سهير يا حبيبتى .. لا تتعبينى .. قولى اين الوجع ؟

وهززت راسى فى ياس واجبتها :

ــ ليس هناك وجع .

ــ بم تشعرين إذن ؟

ــ بلا شىء .

ــ إذن ماذا بك ؟ .. ما دمت لا تحسين فيها باى وجع ؟ !

ــ إنى لا احس بها كلها .. لا استطيع تحريكها .

ووجدت أمى تثب من الفراش وثبة هرة وطىء ذيلها ، وندت عنها صرخة مكتومة كانها حيوان جريح ، وبعينين جاحظتين ، امسكت بساقى ، وهتفت فى صوت متحشرج :

ــ حركى ساقك .

ــ لا استطيع .

ــ جربى .

ولم تتمالك نفسها وشهقت بالبكاء ، وهى تهتف فى اسى وتعدو تجاه حجرة ابى :

ــ يا حبيبى يا سهير .. يا حبيتى يا بنتى .

وابصرت ابى يندفع إلىّ من حجرته اندفاع القذيفة .. وهو فى نصف وعيه ويهتف متسائلا :

ــ ما لها سهير ! ؟ مالها ! ؟

وفى ثوان كان ينحنى علىّ ويضمنى إليه فى لهفة صائحا :

ــ مالك يا سهير ؟ !

واحسست بالجزع على ابى اكثر مما احسست بالجزع على نفسى ، وضممته إلى بشدة وانا احس بدموعى تندفع إلى مقلتى :

ــ لا شىء يا بابا .. ليس بى شىء .

واقبلت امى تهتز كالريشة والكلمات تخرج من فمها مرتجفة قائلة :

ــ ساقها .. لا تستطيع تحريكها .

وبدا ابى يتمالك .. ومد يده فامسك بساقى ، وسالنى فى لهفة :

ــ ايهما ؟

واشرت باصبعى إلى الساق اليمنى .

وجرى باصابعه فوق القدم والساق حتى الركبة ، وانا اهز راسى فى يأس . ثم مد يده حتى اعلى الفخذ دون ان احس شيئا .

وبدا على وجهه خليط من الخوف والإعياء والعجز .. ومضت برهة وهو فاغر فاه ، واطلق زفرتين متلاحقتين .. ثم ما لبث ان استعاد قدرته على مواجهة الأزمات .. وبدا يكسو وجهه قناعا زائفا من الطمـــأنينة

والاستخفاف .. وحاول ان ينقل إلينا مشاعر الطمأنينة التى كانت أبعد ما تكون عنه قائلا :

— تخديل مؤقت .. لا يلبث ان يزول .. أغلب الظن أنها نامت عليها .

ونظر إلى أمى ودموعها تنهمر كمياه صنبور تالف :

— كفى بكاء .. ليس هناك ما يستحق كل هذا .. عندما يصبح النهار .. تكون واثقة كالحصان .

ورغم ما تبينته من حزم فى نبراته ، احسست بالقلق يكاد يصرخ من عينيه المتأرجحتين بين عينى وساقى .

وازدردت أمى ريقها المختلط بالدموع ، ونظرت إليه نظرة شك كسيرة محزونة ولم تنطق بكلمة .

واتجه أبى إلى آلة الهاتف ورفع بصره وقال وهو يهز رأسه فى حيرة :

— الساعة ما زالت الرابعة .. من الذى يجسر على إيقاظ طبيب فى مثل هذه الساعة ؟!

وهتفت به أمى فى توسل :

— اطلب فايز ابن عمتك .

ومد أبى يده إلى القرص يدير الأرقام ، وهو يقـول فى لهجة استخفاف مفتعلة :

— سأطلبه حتى يطمئنك .

وكنت أعرف انه اشد منها حاجة إلى الطمأنينة .

وصمت برهة وهو يضع السماعة على اذنه ينتظر ردا .. وأخيرا سمعته يهتف :

— آلو .. عائدة .. انا عبد الهادى .. آسف ان اقلقكم فى هذه الساعة .

وصمت برهة وعاد يقول :

— خير .. ليس هناك ما يزعج .. كنت أريده أن يرى سهير .. ساقها تبدو كأنها ...

ولم يعرف ماذا يقول ..

كيف يترجم كلمة « الشلل » الأليمة إلى لفظ اقل إزعاجا واكثر رحمة بالاسماع .

وعاد يلوك الالفاظ فى فمه باحثا عن اللفظ المبسط :

— اعنى ان ساقها .. لا تستطيع حراكا .. لا .. لا .. ليس كسرا .. وإنما هو نوع من التخديل ، أو التنميل .. وكنت أود ان يفحصها ليطمئننا .. انا أعرف أن الوقت غير ملائم .. ولكن .. اجل .. أجل .. اظن من الخير أن يراها فورا .

ويبدو ان السيدة ذهبت لتوقظ زوجها .. فقد وجدت أبى يمسك السماعة وينظر إلى أمى التى وقفت ترقبه فاغرة الفم .. مبهورة الأنفاس .

وكنت ارقب كل ما يحدث من فراشى .. وانا شاردة الذهن .. كان الأمر لا يعنينى ..

وبين آونة وأخرى انسل بأصابعى لامس ذلك الشيء الملتصق بى . لعلى اكتشف أنه تحول ليكون ساقا مرة أخرى ، فاطمئن أبى وأمى ، واريحهما من عناء العذاب الأليم الذى يتقلب كل منهما على جمره بطريقته الخاصة .

ولكنى عبثا حاولت ان أعيد إليه الاحساس ، كنت أدفع فى لحمه — أو لحمى سابقا — بطرف سبابتى وكأنى ادفعه فى الوسادة .

ولم يكن هناك ما يؤلمنى .. إلا انعكاس المسألة كلها على أبى وأمى . فنحن اكثر إحساسا بمصائبنا من خلال انفعال الآخرين بها .. سواء كان انفعال ألم ، أو رثاء ، أو شماتة .

ولم احاول ساعتـئذ ان اناقش نفسى فى آثار ما اصبت به .. ولا حاولت ان اتصوره بمعناه الأليم كشلل يمكن ان يقعدنى . بل كنت انظر إليه على انه عارض زائل . تماما كما يقول أبى . تنميل او تخديل ..

وكان اكثر ما يذهلنى فى الامر ، إحساس بأن جزءا منى لم يعد خاصا بى ، او بوجه آخر ، إحساس بأن جزءا لا امتلك التصرف فيه قد التصق بى .

إحساسى الذاتى بالمسالة .

شىء غريب حقا .. ان تحك جلدك فلا تشعر .. هذا هو مدى

اما عن إحساسى عن طريق ابى وامى .. فقد كانت نظراتهما تبعث الارتياع فى نفسى .

وفى بضع كلمات مقتضبة اسر ابى إلى قريبه الطبيب بالمشكلة .

وترك ابى السماعة وعاد إلى يكسو وجهه الابتسامة الدامعة ، وضمنى إليه قائلا :

— سيأتى الدكتور فايز حالا .. إنها مسالة بسيطة لن تحتاج إلى اكثر من بضعة تمرينات وتدليكات ، ويعود كل شىء إلى حاله .

وبعد فترة قصيرة سمعت صوت عربة تقف بالباب ثم اقبل علينا الطبيب واحمرار النوم ما زال فى عينيه وهو يقول ملتقطا انفاسه :

— خيرا إن شاء الله .. كيف حال عروستنا الحلوة .

واقبل على .. يجرى فحصه الطبى .. بترمومتر فى فمى .. وسماعة على صدرى ، واصابع تجس نبض يدى .

ثم بدا يفحص ساقى .. بدبوس بين اصبعيه .

ولم يطل به الفحص ، فقد كانت المشكلة بالنسبة له واضحة ، لم يصعب عليه ان يدرك ببساطة ان ما بى « شلل اطفال » وان الحرارة والصداع الذى ظنناه اعراض « انفلونزا » لم يكن سوى تقدمة للشلل المذكور .

ولم يقل بالطبع انه شلل اطفال .

لقد ربت على ذراعى بلطف ، ورسم على شفتيه ابتسامة رقيقة مشجعة وقال فى هدوء :

— المسالة بسيطة .. ستحتاج إلى بعض الصبر .. والتدليك

الكهربائى ، والتمرينات الرياضية ، وسيعود كل شىء إلى ما كان عليه بإذن الله .

ولم يبعث قوله شيئا فى نفوسنا اكثر مما كان بها .

مياه الصنبور التالف المركب فى عينى امى .. استمرت تنهمر ، وابتسامة ابى الدامعة ، استمرت تعلو شفتيه .. وإحساس اللامبالاة بشخصى ، والوجيعة لابى وامى استمر يملأ نفسى .

وتبع ابى الطبيب إلى الخارج ليسمع منه الاسرار الاليمة التى لا يسرها الأطباء عادة إلا للرجال .

وانصرف الطبيب وعاد ابى بنفس ابتسامته الدامعة .. زاد عليها شيئا من الشرود .. اعتقد انه كان يدبر به مشروعاته القادمة بالنسبة لى .

وبعد ان تهامس مع امى فى البهو ، اقبل علىّ .. وقد ملأ نفسه شحنة جديدة من الطمانينة والمرح ، لكى يدفع بها إلى .

واستقر بجوارى وضمنى إليه .

واحسست فى ضمته شيئا جديدا .

احسست انه يلصقنى به ، وكانه يخشى ان يختطفنى منه احد ، وملأتنى ضمته إحساسا بالخوف .. من ان انتزع منه فعلا . فضممته اكثر .

ولم اشعر إلا ودموعى تنساب من عينى ، واحس بها تسيل على خده .

فوجدته يرتجف .

احسست بجسده القوى الكبير وكانه يهتز كالريشة بين ذراعى وينتفض انتفاضة العصفور على صدرى .

وامسكت براسه ارفع وجهه إلى ، فوجدت احمرارا فى عينيه ، ودموعا تسيل على خديه .

واحسست بيد اليمة قاسية تعتصرنى .

كانت اول دمعة اراها تنسكب من عينى ابى .

اليمة .. اليمة ..

لم اعرف كيف اوقفها ، وهى تمزق شيئا فى باطنى .

وعرفت لأول مرة .. لماذا يضع الناس ابتساماتهم الزائفة على شفاههم ، ومن بين الدموع المنسابة على خدى رسمت أولى ابتساماتى الزائفة وقلت له :

— بابا .. أنا بخير ؟ !

— اجل يا حبيبتى بخير .. دائما بخير .

واخذ زفيرا طويلا ، يبتلع به ما تبقى من دمعه .. وضمنى إليه ثانية وهو يقول فى ثقة وإيمان :

— لن يصيبك سوء ، وانا معك .

وابتسم ابتسامة صادقة ، وهو يقبلنى قائلا فى لهجته المدللة :

— انت روح مين ؟

واجبته إجابتى التقليدية التى تعلمت بها النطق منذ سنوات طويلة :

— روح بابا .

وعاد يسأل :

— وحبيبة مين ؟

— حبيبة بابا .

ما امتع التدليل ممن يحبوننا .

لقد استطاعت الضمة الحانية والكلمات العذبة أن تفعل بنا فعل السحر .. ملأتنا ثقة واملا ، وقدرة على أن نخوض المعركة ، مع الداء الثقيل .

ساق فى قفص

بدات معركة المرض فى حياتى .

ولم اكن احس فى الفترة الاولى من مرضى انى طرف فى معركة .

كانت المعركة الحقيقية تدور بين ابى وامى فى طرف ، والداء الثقيل فى طرف آخر .. أما انا فلم أكن اكثر من ميدان للمعركة ، بكل ما بى من رضوخ ولامبالاة واستسلام لآثار المعركة .

ولم أشعر قط .. وانا فى بداية إصابتى .. ان الإصابة يمكن أن تطول بطريقة تبعث على اليأس من الشفاء .. ولا طاف بذهنى ذلك الخاطر البغيض الذى يجعلنى اتصور نفسى مشلولة مقعدة ، او عرجاء تجر ساقها جرا .

كنت اشعر ان رقدتى مؤقتة .. ولم يكن بإصابتى ما يسبب لى اى نوع من الآلام الجسمانية التى كانت اكثر ما تفزعنى فى ذلك الحين .

لم يكن مرضى اكثر من مجرد استلقاء فى الفراش .. يقابله من المزايا ما كنت أشعر أنه فاق كثيرا ما تستحقه رقدتى .. فقد انهالت علىّ مظاهر العطف من كل صوب بكل ما تحمله من هدايا وتدليل وتسلية .. واقبل علىّ الأهل والاقارب والاصدقاء يملئون رحاب الدار ، فلم تخل حجرتى من الزوار لحظة حتى كنت احن فى رقدتى إلى بعض الراحة والوحدة .

وبدات أمارس العلاج الطبيعى الذى اجمع عليه الاطباء من تمرينات وتدليك بالكهرباء .

ولقد اوجست خيفة فى بادىء الأمر من أوجاع العلاج ؛ ولكنى لم البث حتى تعودته .. ولم يعد الأمر بالنسبة لى اكثر من عملية رتيبة عادية ككل ما أمارسه من عادات خلال خلال أيامى العاجزة .

واحسست بفرط حب الناس لى ، واهتمامهم بى .

ليس فقط ابى وامى .. بل كل من حولى .

الغت « حنيفة » رحلتها إلى بلدة اخيها ، واستقرت تابعة بجوارى كأنها ظلى المتحرك .. لا اكاد اشير باصبعى حتى تقفز ملبية طلبى .. ولم تستطع دائما أن تكبح جماع دمعها الذى يفر بين آونة واخرى ليترك آثاره الحمراء فى جفنيها ويسبب لها نهر ابى ولوم امى .

واقبل علىّ رفاق المدرسة ومدرساتها وناظرتها العجوز التى كنت اتخيلها وهى تقبع فى حجرتها المغلقة او تقبل علينا بشعرها الاشيب جنية أو عفريتة فإذا بى أجدها وهى تجلس بجوار فراشى رتيبة طيبة .

ولم تكن « سلمى » تتركنى إلا للنوم والذهاب إلى المدرسة حتى طعامها كانت تتناوله معى .. وكانت تنقل الىّ صورة كاملة لما يحدث فى المدرسة بطريقتها المرحة التى كانت تولد تيار الضحك فى نفسى .

وبدات « خالتى حفيظة » تمارس معى كل انواع الرعاية ليس فقط كابنة اخت بل كزوجة ابن تقرر مصيرها كشريكة لحياة ابنها وام لاحفادها .

واقبل علىّ « حسان » يمنحنى مزيدا من الاهتمام والعطف النابع من طيبة قلبه .. ويعلم الله إن كان عامل الشفقة بى قد بدا ينزلنى من نفسه مرتبة جديدة ، او كانت اوهام الشاعر قد اخذت تنسج من حياتى قصة يحتمل ان اقوم وإياه فيها بدورى البطولة .. الله وحده يعلم طريقة تفكيره ، وحقيقة مشاعره .. اما الذى اعلمه أنا فهو اهتمامه بى وعطفه علىّ بطريقة جعلتنى اندم فيما بينى وبين نفسى على ما كنت القاه به دائما من سخرية واستخفاف .

واخذت الأيام تتسلل واقبل الصيف وانا راقدة فى فراشى ارقب

من نافذتى القباب والمآذن المنتشرة تحت سطح الجبل تتخللها اشجار الحور الباسقة ، حتى يلفها الليل فلا يبقى منها غير اضواء اللافتات الملونة وانوار النوافذ ومصابيح الطرقات تختلط فى الظلمة لترسم معالم ليل دمشق العزيزة .

وبدات أضيق برقدتى رغم كل وسائل التسلية ومظاهر العطف الذى احطت به .. ورغم كل ما بذل من أبوى لكى أعوض عن عجزى ولكى لا افتقد ساقى المشلولة او اذكر انى مقعدة .

رغم كل ما منحته من عون الآخرين احسست انى بدات افتقد عون نفسى .

بدات افتقد ساقى التى يمكن ان تدفعنى بعيدا عن الفراش .. بعيدا عن الحجرة .. بعيدا عن البيت .. لكى انطلق .. وانطلق .. واظل اجرى بلا توقف .. حتى ابلغ الغوطة .. واتسلق شجرة الجوز واقفز من فوق العريشة .. وافعل كل هذه الأشياء التى لا يمكن ان يغنينى عنها كل ما يفعلون من اجلى .. والتى يمكن أن أفعلها بدون هذه الساق العنيدة التى تأبى ان تحس وتصر على أن تصبح شيئا آخر لا علاقة له بى .

وبدات اعلن أول مظاهر تبرمى وضيقى عندما دخلت علىّ أمى تحمل طبق الفاكهة تصحبها خالتى « حفيظة » وكانت « سلمى » تجلس بجوارى على الفراش .

رفعت رأسى إليها وقلت لها فى شبه لوم :

— عندما أقوم إياك ان تقولى لى اهمدى .. واخشعى ...

إلى آخر هذه النصائح التى كانت تلاحقنى بها .

ووضعت أمى طبق الفاكهة على المنضدة ولم تستطع ان توقف تنهيدة انطلقت من صدرها .. وأجابتنى وابتسامة باهتة تعلو شفتيها لتخفى بها تأثرها :

— ستقومين يا حبيبتى وتجرين كما تشائين .

— متى ؟

وكان ذلك هو السؤال الذى بدأ يسبب لى ضيقا برقدتى .

لم اكن احس ان رقدتى باتت مرهونة بزمن محدد .. على ان اعد الأيام لاتخلص منها .. بل اضحت الأسابيع تتوالى حتى بلغت الاشهر وكل ما اسمعه حولى هو كلمات مبهمة يحاولون ان يبعثوا بها التفاؤل إلى نفسى ونفوسهم حتى بت احس ان قيامى قد بات اقرب إلى امنية وهمية منه إلى نتيجة مرتقبة واضحة ، ولم اعـد احس ان امـرى قد بات موكلا إلى الطب والطبيـب بقدر ما هو مـوكل إلى الله .. وباتت مترادفات « بإذن الله » و « إن شاء الله » و « بأمر الله » اقرب إلى اذنى من التفسيرات الطبية .. حتى الطبيب نفسه لم أعد اسمع منه إلا « ربنا يشفى » و « ربنا يعين » وغير هذا من المترادفات التى ابدته أمامى اقرب إلى الحائر العاجز الذى يرجو هبة على شىء لم يفعله منه إلى القادر الذى يطالب بنتيجة مؤكدة لعمل حاسم قام به .

ولم تكن امى بالطبع اكثر دراية من الطبيب حتى احاول سؤالها .. ولكنها كانت فقط اكثر الناس صبرا على ضيقى .

وكانت « خالتى حفيظة » اسرع منا فى الإجابة ، فقالت فى لهجة مؤكدة :

ــ بعد اسبوعين ستتوقف جلسات الكهرباء .. وستبدئين التمرين على السير .. وسـنذهب سويا إلى بيروت ونقضى الشـهر كله فى بحمدون .

ولم اكن اعرف من اين استقت خالتى هذه المعلومات التى ساقتها بلهجة التأكيد ، ولم احاول ان ادقق فى مدى صحتها ، بل التقطت الجزء الاخير الذين يمكن ان اتأكد عن مدى صحته فسألت امى قائلة :

ــ احقيقة سنذهب إلى لبنان كما قالت خالتى ؟

ــ اجل يا حبيبتى .

ولم اكن اثق بالطبع فى موعد قيامى من الفراش .. واردت الا اربط سفرنا إلى لبنان به فعدت اتساءل :

ــ حتى ولو لم اتمكن من السير ؟

ــ بل ستنهضين وسنذهب .

ولما كنت اصر على الحصول على وعد مطلق بالسفر إلى لبنان فقد عدت الح فى التساؤل :

ــ وإذا لم انهض حتى ذلك الوقت .. الا نذهب ؟

ــ بل سنذهب فى اى وقت تشائين .

ــ واين سننزل ؟

وردت خالتى :

ــ سننزل كلنا فى الامبسادور .

واحسست بشىء من الارتياح من اختيار « خالتى » للفندق ، إذ كان قريبا من البيت الذى تعودت ان تنزل فيه « سلمى » مع أسرتها .

والتفت إلى « سلمى » قائلة :

ــ متى ستذهبين إلى لبنان يا سلمى ؟

وهزت سلمى راسها فى حيرة ، واجابت :

ــ لا اعلم بعد .. ولكنى اعتقد اننا سنذهب فى الشهر القادم عندما يحصل ابى على اجازته .

وبدانا نعد مشروعاتنا سويا .. ولم يكن اسهل على من ان انسى ساقى العاطلة .. وانطلق فى آمالى سليمة معافاة .

واقبل ابى بعد برهة .. وكان اكثر الناس قدرة على منحى الأمل .. بضمته القوية الحنون وابتسـامته المشرقة .. وتسـليمه المطلق بكل ما اطلب ، وتحقيقه الكامل الدقيق العاجل لكل مشروعاتى مهما سخفت .

ولم يكن اسهل عليه من التسليم بما اتفقنا عليه ، وجلس يشاركنى و « سلمى » فى مشروعاتنا التى اعددناها للنزهة فى الجبل فى « عين الصفا » و « نبع الباروك » و « زحلة » وبقية انحاء الجبل .

واقبل الليل وقد غلب تفاؤلى برحلات الجبل المأمولة ما كنت قد بدات احس به من ضيق برقدتى ، ويأس من شفائى ، وهبت نسمة محملة بعبق الياسمين الذى تكاثرت ازهاره الرفيعة البيضاء حول نافذتى .

واقبلت « حنيفة » تحمل فى يدها عقدا نظمته من الزهور الرفيعة ومدت يدها تضعه حول عنقى وهى تبتسم قائلة :

ــ كادت رقبتى تتصف وانا اجمعه .

ــ حاسبى على نفسك يا حنيفة .. لا تتسلقى الياسمينة حتى لا تقعى وترقدى مثلى .

ولم اكد اقول ما قلت حتى اخذت اراجع نفسى .. ومددت يدى اربت على كتف « حنيفة » وهى مستلقية على إحدى الحشيات على الارض بجوار فراشى .. وقلت لها فى شىء من السخرية :

ــ وإلا تسلقى كما تريدين .. ياما جريت وقفزت ، ولم يصبنى شىء .. ويأبى الله إلا ان يصيب ساقى وانا راقدة فى الفراش .

ولم تحر « حنيفة » ردا .. وبدت كأنما قد احزنتها بقولى .. فمدت يدها تتحسس يدى فى رفق ، وقالت وهى ترفع راسها إلى السقف كأنما تتحدث إلى الله ، وتمتمت قائلة :

ــ حكمتك يا رب .

واجبتها فى دهشة :

ــ اى حكمة مى ان يرقدنى هكذا ؟ !

ــ عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم .

ــ لا اظن خيرا لى ابدا ان اظل عاجزة الساق .

ــ ستشفى ساقك بإذن الله .

ومضت برهة شرود خيم الصمت علينا .. وما لبثت « حنيفة » حتى عاودت حديثها متمتمة بصوتها الخافت :

ــ من يدرى .. ربما وقاك الله برقدتك هذه .. من شر منها .. الم يكن من الممكن ان تخرجى فى اليوم الذى رقدت فيه .. فتصدم بك العربة .. وتصابى ــ لا سمح الله بشر مما اصبت به فى ساقك . الا يمكن أن يكون الله وقد وقاك من صدمة قاتلة برقدة فى الفراش .. تستريحين فيها من شقاوتك بعض الوقت .

وبدأت انكر فى إصابتى لاول مرة بالطريقة التى فكرت بها « حنيفة » واحسست ان المسالة اهون بكثير مما احس بها الجميع .

لم تكن الإصابة إذا .. كما سلمت بها « حنيفة » اكثر من واق من لطمة اشد .. ومانع من صدمة اقوى .

كانت فترة استجمام .. او راحة .

تفسير ساذج مريح .. لا دخل له باية تعقيدات طبية .. لقد تناولت المسالة كلها على انها تدبير طيب من الله .. اوقعه بنا ليقينا من شر منه ، وسيرفع عنا بإذنه عندما يشاء .

ولم تبعد كثيرا فى نهاية تفسيرها . عن النتيجة التى انتهى إليها علم الاطباء .. « شفاء من الله » .

ولم يكن اسهل علىّ والمقارنة قد انتهت إلى نفس النتيجة من ان اسلم بما قالت « حنيفة » فقد كانت فى نظرى اسلم منطقا .. فقد بدات المسالة من الله وانتهت إلى الله .. اما الاطباء فقد بدءوها بالطب وانتهوا بعد العجز إلى الله .

وقلت اسال « حنيفة » سؤال المصدق على قولها :

ــ اتظنينه فعل هذا حقا لكى يعفينى من شر اشد ؟

واحست « حنيفة » بقوة منطقها فاجابت مؤكدة فى حزم :

ــ طبعا .. الله يحبنا يا سهير .. يحب عباده جميعا .. فما بالك بالطيبين منهم ، الذين لم يؤذوا احدا ، ولا ارتكبوا شرا .

ــ وسيشفينى يا حنيفة ؟ !

ــ ما خالجنى فى ذلك شك لحظة واحدة .

ــ لماذا كنت تبكين علىّ إذن ؟

واجابت متسائلة فى شىء من الاستنكار :

ــ انا ؟ بعد الشر عنك ، ولا سالت عليك دمعة واحد .

والتفت إليها وقلت احذرها مازحة :

ــ لا تكذبى يا حنيفة .. لقد كنت ارى دائما عينيك محمرتين .

وردت « حنيفة » ضاحكة :

ان يشفى ساقى ، وان يعيد إلى قدرتى على الحركة والعدو والقفز ، والانطلاق فى الغوطة وفى الجبل وفى الجبل .

واغمضت عينى وانا احس بكثير من الارتياح .

واسترخيت فى فراشى . واحسست بحنيفة تربت يدى ثم تغادر الحجرة .

واستيقظت فى الصباح .

ولم اعرف ما إذا كان الله قد اراد الا يخذل ثقة الفتاة الطيبة به .. ام انه يحبنى حقا .

الذى اعرفه هو انى استيقظت فى الصباح والشمس تتسلل من النافذة الشرقية لتفرش أرض الغرفة .. وقبل ان اصيح لأنبه اهل البيت انى استيقظت احسست كان شيئا يثقل ساقى . وقبل ان أحاول جذبها للخلاص من هذا الشىء الذى يثقلها .. اكتشفت فجاة انها الساق العاجزة .. او الساق التى لا وجود لها .

وتملكنى الخوف قبل ان ادرك حقيقة ما حدث . وخشيت ان تكون وراء ما احسست به من ثقل .. آلام جديدة .. ومددت يدى فى حذر أتحسس ساقى فإذا بجلدها يشعر بمس اصابعى .. وإذا بهــا موجودة .

وصحت باقرب النداءات إلى شفتى :

— ماما .

وفى ثوان كانت امى تقف امامى فاغرة فاها فى ذعر ومن ورائها ابى يسأل فى لهفة :

— ماذا بك يا سهير ؟

وقد بدا كلاهما كأنه يتوقع المزيد من الأنباء المفجعة .

واشرت فى ذهول إلى ساقى هامسة فى تردد وخوف :

— ساقى .

— من تخريط البصل .. والله يا حبيبتى .

وضحكت لكذبتها .. ورددت ضحكتى بضحكة صافية وامسكت بيدى ورفعتها إلى خدها قائلة :

— صدقينى انا يا سهير عندما اقول لك ستشفين .. لا تصغى إلى هؤلاء الأطباء .. إنهم لا يعرفون شيئا .. هل هم الذين ارسلوا الداء ؟

وأجبتها ضاحكة :

— طبعا لا .

— من الذى ارسله ؟

— ربنا .

— ربنا إذن يرفعه كما ارسله .. اسأليه ، وادعيه .. وصلى له .

ونظرت إلى ساقى العاجزة وتساءلت فى دهشة :

— اصلى .. كيف ؟ ؟ !

واجابت « حنيفة » مؤكدة :

— فى فراشك .. ارفعى وجهك إليه ، وادعيه ان يشفيك .. إلجئى إليه بكل ما فى قلبك من حرارة الإيمان .

وبثقة عجيبة وإيمان شديد واصلت قولها فى تاكيد :

— غــير معقــول الا يســتجيب إليــك .. انا اعــرف ربنــا جيدا .. لقد ذكرنى بمصائبه من قبل .. ولكنه كان يمنحنى إياها لتقيــنى شرا منها ، لم يخذلنى الله ابدا ، كانت رحمته اغلب على كل ما رمانى به .

ولست ادرى كيف نقلت إلى المخلوقة المؤمنة الساذجة الطيبة بما فى قلبها من ثقة بقدرة الله وإيمان برحمته ، فوجدت نفسى ارفع راسى لأحلق فى رقعة السماء التى بدت من النافذة .. واحسست كان الله هناك .. عند بضعة النجوم المتلألئة من بعيد ، واحسست بانه — كما قالت حنيفة — طيب كريم رحيم ، وخيل إلى انه يحبنى حقا .. فسألته

وفى نفس واحد هتف كلاهما فى جزع :

— ما لها ؟

— احس بها .. إنها تتحرك .

وحركت ساقى فى حركة خفيفة من اعلى الفخذ .

ووقفت امى مأخوذة برهة ، وهى تزدرد ريقها وتبتلع دمعها . واقبل ابى غير مصدق يتحسس ساقى فى خوف وهو يتساءل هامسا :

— اتحسين بها هنا ؟

وهتفت مؤكدة :

— اجل .. إنى احس بأصابعك تضغط عليها .

واستمر « ابى » يتحسس ساقى حتى هبط إلى ما بعد الركبة ، فلم اعد احس بمس اصابعه ، وعاد يتساءل فى همسه الوجل :

— اتحسين هنا ؟

وانتظرت برهة قبل ان اجيب فى شىء من الخوف الممزوج بالخيبة :

— لا .

واستمر يهبط حتى القدم وانا اهز راسى بالنفى .

وبدت على وجه « ابى » علامات الخذلان فهتفت به فى إصرار ملىء بالثقة والأمل :

— ولكنى احس هنا .

واشرت إلى فخذى وانا احركه بقدر ما املك من قوة ، واتممت فى فرحة :

— الا ترى انى استطيع تحريكها ؟

ولم يلبث « أبى » ان انتقلت إليه فرحتى واخذ الامل يغمر نبرات صوته وهتف قائلا :

— اجل يا حبيبتى .. اجل .. مدهش .

واخذت « أمى » تتمتم ودموعها تنساب من عينيها :

— الحمد لله يا حبيبتى .. الحمد لله .. ربنا يتم شفاءه .. سليمة إن شاء الله .

وكانت « حنيفة » قد اقبلت على اصواتنا .. ولم يصعب عليها ان تدرك ما حدث .. فرفعت كفها إلى السماء كالمأخوذة .

لقد اعتبرت بداية الشفاء الذى حدث استجابة مباشرة من الله إلى دعواتها .. وازدادت إيمانا بالله كقوة منصفة مستجيبة .. رحيمة كريمة ، ورفعت كفيها إلى السماء .. وبدت كأنما توجه إلى الله حديثا خاصا بينه وبينها :

— يا رب .. لطفك فاق الحد .. انت كريم يا رب .

واقبلت علىّ وهى ترتجف من الفرحة والخوف .. وهتفت بى فى صوت مبحوح :

— ارايت يا سهير .. لقد كان اقرب إلينا مما نتصور ، ارايت كم يحبك .. ارايت رحمته ولطفه .

واقبلت علىّ تضمنى فى لهفة وفرحة .

وسرت بين الاهل والأصدقاء أخبار الشفاء الجزئى الذى احرزته ، وبدانا نعيش فى دوامة من التهانى والفرحة والتمنيات الطيبة بأن يتم الله شفائى .

واخذت مشروعاتى مع « سلمى » لرحلات الجبل تتبلور ولم تعد مجرد اوهام اتطلع إليها وانا قابعة فى فراشى .

كنت اعتبر الشفاء الذى حصلت عليه مقدمة للشفاء الكامل ، وكنت اواصل دعواتى فى إلحاح لله كى يتم فضله ويزيل بقية الشلل من ساقى .

وفى الليل الصامت .. كنت اتطلع من النافذة ، ابحث عن الله فى الرقعة الزرقاء بين النجوم المتلألئة .. اتضرع إليه ان يستجيب همساتى .. واؤكد له انى احبه ، واومن برحمته ولطفه .. واثق فى انه لم يقصد اذاى قط ، وانى قد قبلت مصابه بلا تذمر .. ولكنى قد ضقت برقدتى ، وانى اريد ان اعدو كما كنت اعدو .. اريد ان انطلق فى الجبل كما تعودت ان انطلق .. دون ان تعوق انطلاقى هذه الساق المدلاة إلى جانبى .

وفى الصباح .. كان اول ما انعله هو ان امد يدى لاتحسس نتائج دعواتى ، وارى إذا كان الله قد انصت الىّ فى الليل واستجاب لرجائى .

ولكن الأيام مرت .. والساق المشلولة مدلاة إلى جانبى .

بدات اتحرك فى البداية مستندة على كتفى ابى وامى .. او امى وحنيفة عندما يكون ابى فى الخارج .. ولكنى كنت اتحرك فى نطـــاق محدود ، وانا أجر ساقى المدلاة من ركبتى كأنها خرقة بالية .

واستمر العلاج الطبيعى .. بالتمرينات والتدليك ، رغم ان الأمل قد بدأ يخف ، وبدات حالتى تتجمد عند هذا الوضع .. ولم يعد الشفاء الجزئى الذى حصلت عليه مقدمة لشفاء كامل .. بل بات كأنه تطور طبيعى للمرض .. وخبا الرجاء فيه كتباشير القيام والحركة والانطلاق .. بل اصبح بالنسبة إلينا اقصى ما يمكن ان يرجى من تحسن بوسائل العلاج التى نتبعها .

ووضعت ساقى فى القفص الحديدى الذى يشد مشط القدم إلى اعلى ولا يجعلها مدلاة تصطدم بالأرض كعنق الدجاجة المذبوحة .

اقبل علىّ ابى به اول مرة ، وقد كسا وجهه قناعا زائفا من المرح .. وقال بلهجة مازحة :

ــ ما رايك فى هذه الساق الحديدية .. لو ضربت به احدا شلوتا .. لصرعته .

واكمل الطبيب قوله فى لهجة جادة :

ــ ستساعدك كثيرا على السير .. يمكنك ان تتحركى بها دون حاجة إلى اية مساعدة .

ولم اكن املك سوى الاستسلام لكل ما يعرض علىّ من وسائل للعلاج ، ولكنى لم ارحب كثيرا بالمشد الحديدى . كنت اكره ان يكون هذا هو مصيرى المحتوم .. اكره ان اتحرك بكل هذا الضجيج كأنى عربة القطار .

ولكنى لم اجد بديلا .. اللهم إلا ان اسير محمـــولة على كتفين ،

او محمولة على ذراعين ، او مدفوعة على عربة .. كآنية الذرة المسلوق .

وبدات اجرب المشد الحديدى ، وكنت اضيق به فى اول الأمر .. وكنت افضل عليه الرقاد .

ولم يحاول احد ان يثقل علىّ به ، او يرغمنى على ارتدائه .

ولكن « سلمى » اخذت تخفف علىّ من وقع المسالة كلها .. وبدات تغرينى بالخروج إلى الغوطة .

وقلت لها فى دهشة :

ــ كيف اخرج امام الناس .. وانا اطرق الارض بهـــذا المـــدق الحديدى .. ماذا يقولون عنى ؟

ــ لن يقولوا شيئا .. ثم إننا لن نرى احدا ولن يرانا احد .. سنذهب وحدنا إلى الغوطة ونجلس اسفل العريشة كما تعودنا ان نفعل .

وامسكت بالمشد الحديدى فى يدى وقذفت به فى ضيق وقلت لها :

ــ ولماذا لا اسير بدونه .. إنى استطيع ان اتكىء على اى شىء .

ولم يكن هناك احد معنا فى الحجرة ، فقالت « سلمى » فى حماس :

ــ اتستطيعين حقا ؟

ــ ولِمَ لا .. .. هيا بنا نجرب .

وكنت اجلس مادة ساقى لعى اريكة فى الحجرة ، فبدات ادلى ساقى السليمة ، ثم سحبت ساقى المشلولة وانزلتها على الأرض .. ومددت يدى استند إلى كتف « سلمى » ووقفت محملة على ساقى السليمة ثم اخذت فى الحركة .. وخطوت خطوتين ، وخيل إلىّ انى استطيع ان استغنى عن كتف « سلمى » فرفعت عنها يدى وخطوت الخطوة الثالثة وحدى .

ولكنى لم اكد انقل قدمى السليمة حتى ارتطمت القدم المدلاة خلال حركتى بالأرض فإذا بى اتعثر وافقد توازنى واهوى على الأرض قبل ان اتمكن من الاستناد إلى كتف « سلمى » .

واختلطت صرخة « سلمى » بصرختى بضجة وقوعى على الأرض ، واقبلت امى تعدو فزعة على صوت الضجيج ، وانحنت علىّ باكية مذعورة وهى تصيح متسائلة :

ــ ماذا حدث ؟

واجبت وانا انهض بجذعى الاعلى :

ــ لا شىء يا ماما . . كنت احاول السير .

وردت امى فى تأثر بالغ :

ــ لماذا يا حبيبتى تفعلين بنفسك كل هذا ؟ !

واجبتها فى لهجة مستغفرة :

ــ كنت أجرب السير بدون هذا المشد الذى يبدينى كالجنية العجوز التى تطرق الأرض بقدمها الحديدية . . والتى يخيفون بها الاطفـــال الصغار .

ومدت امى يدها تساعدنى على الجلوس على الاريكة ، وقالت « سلمى » وهى تحس انها المسئولة عن سقطتى :

ــ أنت واهمة يا سهير . . ليس بالمشد ابدا ما تظنينه من كل هذا الإزعاج . . إننى على استعداد لأن ألبس واحدا مثله . . حتى لا تخجلى منـــه .

وربتتها امى فى حنو وقالت :

ــ لا احوجك الله إليه . . واغنـــانا عنه . . إنهـــا فـــترة مؤقتة سيساعدك فيها على السير ، وبعدها ستسيرين وحدك إن شاء الله .

وكنت قد بدأت انسى ما لقنته اياى « حنيفة » من حب الله لى . . وعطفه علىّ . . ورحمته بى . . ولم اعد اشك فى انه لم يعد يشاء لى الشفاء . . إنه كف عن الإنصات إلىّ والاستجابة إلى دعواتى بعد المرة الأولى التى منحنى فيها الشفاء الجزئى .

ولم اعلق كثيرا على قول « امى » . . ولكنى عزمت على ان اتقبل المشد كحل نهائى . . وعلى الا اعود إلى إثارة المتاعب لاحد ، وتناولت التفص الحديدى الملقى بجوارى واخذت اضع فيه قدمى وانا اقول فى شىء من التحدى :

ــ عرجاء . . عرجاء . . لن يهمنى قول احد .

تلتها وكانما اصابع الناس تشير إلى ساقى المشلولة وهى محبوسة بين قضبان سجنها قائلة :

« هذه هى العرجاء » !!

قبيـل الرحيـل

بدات المرحلة التالية من مرضى .. بساقى العاجزة . حبيسة المشد الحديدى .

ولم يكن هناك ما يقلقنى خلالها سوى نظرات الناس المليئة بالرثاء والشفقة .

واقتنعت بعد فترة بأن كل شىء يمكن ان يهون بالتعود .. حتى هذه النظرات الرائية التى كنت اضيق بها بدات اعتادها مع الهمسات التى احاط بها كلما وجدت بين النـــاس .. والتى يصـــل إلى رذاذها .. « مسكينة » ما اجمل وجهها ، او « خسارة » .. شكلها لطيف ، والتى تلخص آراء الناس فى بالمقارنة الدائمـــة التى يعتـــدونها بين ساقى العرجاء .. ووجهى اللطيف .

كل هذا بدات اتعوده .. وطرقات قدمى على الارض لم تعد غريبة على اذنى ، واصابنى رضاء العاجز الذى لا يملك إلا الاستسلام لقضاء الله فيه .. والذى لا يملك إلا ابتسامة مستخفة تصحبها هزة من راسه وهمسات لنفسه تقول :

« ما الذى استطيع ان افعله » ؟

وبدات فى رضوخى .. امارس كل ما استطيع ممارسته من متع .

كل ما كنت امارسه عدت امارسه .. بلا عدو .. بل بساق عرجاء تطرق الأرض فى كل خطوة .

ولست اظنها حرمتنى الكثير مما كنت اتمتع به .

عدت اتمتع بالغـــوطة .. اقطف الزهر والتهم الثمـــار واجمع بيض الدجاج ، واستمع إلى دقات المضخة وهدير المياه .. وكل شىء .

رحلت إلى لبنان .. وبساقى الحديدية .. نفذت كل مشروعاتى مع « سلمى » .. ذهبت إلى عين الصفا ، وزحلة ، وتقبلت نظرات الناس المشفقة إلى ساقى ووجهى فى غير اكتراث .

وعدت من الجبل لأبدا عامى الدراسى ، واثير فضول كل من فى المدرسة بعرجى وضجج ساقى .. حتى بدءوا يتعودوننى ، واصبحت بشكلى الجديد جزءا متمما لحياتهم اليومية .

وعادت تروس آلة الحياة من حولى إلى دورانها الطبيعى ، واخذ كل شىء يسير فى رتابة وانتظام .. على اساس انى قد استقررت فى الوضع الذى انا فيه كمصير محتوم لى .

حتى موجة العطف الزائد التى كان« حسان » يغمرنى بها قد بدأت تنحسر ، وبدأ بعد حصوله على الليسانس يشغل نفســـه بمشروعات مستقبله ، وسفره إلى مصر لتسجيل رسالة الدكتوراه .

كل من حولى قد اعتاد مصابى وانا اولهم ، عدا مخلوقين كانا يقفان من الداء موقف التحفز الدائم .. كأنهما القط المقوس الظهر المكشر الأنياب .. لم تفلح الأيام قط فى تهدئتهما .. ولا إرخاء اعصابهما .

« امى » بحزنها الواضح .. ودموعها التى لا تجف .

و « أبى » بحسرته المدفونة فى اعماقه .. وقلقه الدائم وهو يحاول ستره امامى بكل ما يملك من اقنعه زائفة توهم الهدوء والرضا .

وكنت احس ان « ابى » لم يكف لحظة عن استشارات الاطباء .. بل اكثر من هذا عرفت مما ابصرته على مكتبه ذات مرة انه بدا يقرا كل ما يستطيع الحصول عليه من كتب عن خصمه المبين المسمى « شلل

الأطفال » الذى جعل من هوايته الجميلة المحببة « سهير » مخلوقة عرجاء مشلولة .. لا تكاد تتحرك إلا وفى قدمها قيد من حديد .

وبدات اسمع من همسات تدور بينه وبين امى .. كلمة « العملية » .. وسمعتها بعد ذلك من بضعة اطباء اتوا إلى بيتنا واجروا ما يشبه المؤتمر على ساقى العاجزة .

وكنت ادرك من جو البيت ، ومن اهتمام « خالتى حنيفة » بان هناك إعدادا لشىء .

ولم تكن مفاجأة لى عندما اقبل أبى علىّ ذات صباح قبل ان يخرج ليضمنى إليه قائلا :

ــ ما رايك فى السفر إلى لندن ؟

ورفعت عينىّ إليه متسائلة :

ــ لندن ؟ .. لماذا ؟

ــ نستشير الأطباء هناك . اعتقد ان لديهم علاجا لحالتك .

وصمت برهة .. وشردت اقلب الامر فى راسى .. ووجدتنى فى الطائرة .. ثم فى لندن .

وخيل إلى « ابى » ان شرودى شرود خوف .. فقال مطمئنا :

ــ لن نفعل شيئا قبل ان نثق فى نجاحه .

ثم صمت برهة وواصل قوله فى لهجته المطمئنة :

ــ حتى إذا احتاج الامر إلى عملية .. انت تعرفين ان العملية بسيطة جدا .. تذكرين عملية الزائدة الدودية التى عملتها ، لا يحس المرء إلا بشكة إبرة ، ثم يصحو .. فإذا بكل شىء قد انتهى .

ولم اكن قد وصلت ابدا إلى ما وصل إليه ابى .. ولا كانت المخاوف التى يحاول طردها من نفسى قد بلغت إلىّ .

كنت ما زلت فى الرحلة .. كيف ساطير ، وكيف ساودع اصحابى فى المدرسة .

واستمر ابى فى حديثه المطمئن قائلا :

ــ لقد علمت ان محمود بن عبد العزيز بك اصابته مثل حالتك ،

واجروا له عملية فى لندن .. انتهت بنجاح تام .. .. وهو يسير الآن على قدميه كانه لم يصبه شىء .

وبدأ ذهنى ينتقل من الرحلة كرحلة ، إلى الرحلة كعلاج ، احقيقة يمكن أن اشفى واسير كما يسير الناس .. ام هى مجرد محاولة فاشلة ككل تلك المحاولات التى يقوم بها الأطباء والتى تنتهى بأن يهزوا رءوسهم فى عجز واستسلام ويهمسوا بان الشفاء من عند الله تماما كما تفعل « حنيفة » ؟

وامسكت بكفه واخذت اعبث بأصابعه متسائلة :

ــ ايمكن حقيقة ان تشفينى العملية ؟

ــ طبعا .. بإذن الله .

ولم احاول ان اسأله .. « وإذا لم يأذن الله ؟ » . فلم يكن هناك ما يدعو ان ابعث اليأس فى نفسه التى لا تعرف اليأس .. وقلت له متسائلة :

ــ ومتى نسافر ؟

ــ لقد أرسلت التقرير الطبى وصور الأشعة إلى طبيب من اشهر الأطباء الذين نصحونى بهم .. وما زلت انتظر الرد .

ــ ومتى يحتمل ان نذهب ؟

ــ فى أى موعد يحدده الطبيب .

ــ ليته يحدده فى الصيف بعد ان تنتهى الدراسة .

ــ الصيف أو الربيع .. فهما افضل من ناحية الجو .. لا نريد ان تقاسى برد لندن فى الشتاء .

ــ افضل السفر بعد الامتحان .

وتحسس « ابى » رأسى فى رفق وهو يهم بالنهوض قائلا :

ــ يا حبيبتى .. الامتحان امر يمكن تدبيره ، يمكنك ان تؤدى الامتحان بعد ان تعودى .. وحتى إذا فاتك الامتحان .. بناقص عام .

ولم اكن استخف بأمر الامتحان كما يستخف « ابى » .. فقد كرهت ان اضيع العام فقلت بإلحاح وعناد :

ـــ لا يا بابا .. لن اضيع العام بحال من الأحوال .

وسار « ابى » إلى الباب وهو يقول فى شرود :

ـــ ربنا يسهل يا سهير وتعودين سليمة وتؤدين الامتحان .

ومرت بعد ذلك بضعة أيام كدت انسى معها امر العملية .

وكنا فى بداية الشتاء .. وفروع الشجر العارية تبدو من وراء زجاج شرفة البهو ،وهبات الريح تسمع فى صفير متقطع مبحوح كأنه النحيح ، وامى قد انحنت شاردة الذهن فوق إبرتين تنسج بهما صديريا من الصوف ، وانا قد جلست على الاريكة ممدودة الساقين احاول أن انتهى بسرعة من واجب حساب مدرسى حتى اتسلى بقراءة المجلات التى رصصتها بجوارى ، و « حنيفة » تعد المائدة للعشاء ، وهى تنصت فى ذهابها وإيابها من المطبخ إلى حجرة الطعام إلى نغمات الغناء المنبعثة من الراديو .

وسمعت صوت العربة تقف بباب البيت ، وكان وقوف العربة فيما مضى يعنى وثبة منى إلى الباب وقفزات على الدرج تلقى بى فى احضان « ابى » متسائلة :

ـــ ماذا احضرت لى ؟

وكان دائما يحضر لى شيئا .. أى شىء .. حتى ولو كان قطعة من الشيكولاتة ، او باكو لبان .. حتى إنى الأذكر انه كان يدخر فى جيبه رصيدا دائما من الهدايا الصغيرة يستعملها وقت الحاجة عندما يكتشف فجأة وهو بالباب انه نسى أن يحضر لى شيئا .

وكنت احس انه يفتقد وثباتى على الدرج ولقائى على باب البيت .

كنت احس ذلك فى خطواته المتثاقلة على الدرج وكأنه يحمل ثقلا على ظهره ، او كأنه يحملنى انا على كتفيه .. كما كان يحلو له دائما أن يفعل .. ولكنه لا يكاد يعبر الباب حتى يلقى بكل اعبائه ويتجه إلىّ بقناع المرح الذى يكسو وجهه ويمد يده إلىّ بما احضره لى قبل ان اسأل :

ـــ ماذا احضرت لى ؟

فى هذه الليلة لم تخف خطواته المتثاقلة .. حتى بعد أن عبر باب

البهو الذى فتحته له « حنيفة » .. بل اقترب نحو امى وقد بدا عليه الاهتمام واخرج من جيبه ورقة قائلا :

ـــ وصلت برقية من الطبيب الذى ارسلنا إليه التقرير .

ورفعت « امى » راسها وتساءلت بلهفة :

ـــ ماذا قال ؟ !

ـــ قال إنه مستعد ان يراها فى منتصف يناير .

ـــ فقط ؟

ـــ وماذا يستطيع ان يقول اكثر من هذا ؟

ـــ الم يقل لك إن العملية ممكنة ؟

والتفت إلىّ ابى ورسم ابتسامة على شفتيه واجاب فى ثقة :

ـــ طبعا ممكنة ، وإلا لما كان هناك ما يدعو لذهابنا إليه .

وكانت « امى » تريد ان تعرف المزيد مما يطمئنها .. فعادت تسأل فى لهفة غبية :

ـــ اعنى هل ستنجح العملية ؟

ـــ هل تظنين انه سيرسل إلينا البرقية قبل ان يراها ليقول إن العملية ستنجح ؟

ولم يرض امى رد ابى .. فرفعت راسها إلى الله ـــ ملجئها الأخير ـــ عندما يخذلها كل من حولها ، والذى يقبل كل توسلاتها ودعواتها فى صمت مريح .. وإنصات مهدىء .

رفعت راسها واطلقت تنهيدة حارة وهتفت فى توسل :

ـــ يا رب .. انت كريم يا رب .

وكنت انا قد احسست ان كرم الله قد توقف معى .. بعد تلك الليلة حين استجاب إلىّ ومنحنى القدرة على تحريك الجزء الأعلى من ساقى ، ولم اعد اطمع بعد ذلك فى المزيد من كرمه .. بعد ان طاشت دعواتى وصلواتى ورجواتى ، واستمرت الساق مدلاة من ركبتى فى قيدها الحديدى .

ولم آبه كثيرا لدعوة امى .. بعد ان نسيت كل ما اقنعتنى به

« حنيفة » من ان الامراض يرسلها الله ويأخذها الله . وان الطب والاطباء لا قدرة لهم على امراض الله .. إلا بالتسليم بأمره وانتظار إذنه بالشفاء .. تماما كما يفعل بقية العباد الذين ليسوا أطباء .

والتفت إلى ابى اسأله :

ــ أأعطانا الطبيب موعدا للعملية ؟

ــ اعطانا موعدا لزيارته ، وسيقرر بالطبع بعد ان يفحصك ماذا سيفعل .

ــ ايجوز الا يجد هناك مبررا للعملية ؟

وكنت اعرف انى ارتكب نفس الإلحاح الغبى الذى ارتكبته « امى » فى سؤال « ابى » عما لا يمكن ان يكون على علم به .. ومع ذلك فقد كنت اود ان اعرف هل تقرر إجراء عملية لى .. ولم يكن امامى سوى « ابى » لأسأله .

وحار ابى بالطبع ، ولم يعرف كيف يجيب .. ولكنه سرعان ما رد على بلهجة الواثق المطمئن :

ــ اعتقد انه لابد واجد طريقة لشفائك .. سواء بالعملية ام بغيرها .. لست اولى من اصبن بهذا المرض يا سهير . إنى واثق ان كثيرين من الذين اصيبوا به شفوا تماما .

وصمت برهة ثم بسط كفيه فى استسلام قائلا :

ــ على اية حال .. لابد ان نبذل كل ما نملك من جهد ، على الاقل حتى نريح انفسنا من لوم التقصير ، وليس امامنا فى النهاية سوى التسليم بمشيئة الله .

وردت « امى » داعية فى حرارة :

ــ ربنا يشفيها .. ويقيمها سالمة .

ثم وجهت القول إلى ابى فى شىء من التردد :

ــ ولكن .. الم يكن من المستحسن لو اجريت العملية فى جو اكثر ملاءمة من هذا البرد القارس الذى نحن مقبلون عليه ولا سيما فى انجلترا .. انت تعرف أن سهير لا تحتمل البرد .

وكانت « امى » على حق .. إذ لم يكن هناك اسهل من إصابتى بالبرد .. بل إنى كنت فى تلك الآونة اعانى من بداية برد بدا بحرقان فى الزور وسعال خفيف .. ابى إلا أن يعلن عن وجوده ساعتذاك حتى يؤكد قول « امى » .

ونظر إلىّ ابى فى قلق .. وقال متسائلا :

ــ منذ متى بدا هذا السعال ؟

واجبت فى استخفاف :

ــ لا اذكر .. ربما اليوم .

ــ لا تذهبى إلى المدرسة غدا .. يجب ان تحرصى جيدا من البرد .. حتى نستطيع السفر .. وإن كنت سابرق للطبيب حتى يؤجل الموعد إلى اوائل الربيع ، لا سيما وقد وصلتنى برقية عن احتمال وصول شحنات الآلات الزراعية التى استوردتها للأرض فى اوائل فبراير ، والمفروض ان أكون فى استقبالها ، حتى اراقب تسلمها وتوزيعها على الارض .

وردت « امى » مؤكدة :

ــ اظن مارس سيكون موعدا ملائما للسفر .

وتدخلت بينهما ابدى رايى فى المشكلة قائلة :

ــ المهم ان اكون هنا قبل الامتحانات .

وهز « ابى » راسه قائلا :

ــ إن شاء الله .

وسمعت « حنيفة » تتمتم وهى تقبل علينا لتدعونا إلى المائدة :

ــ والله لا لزوم للسفر والتعب .. الشفا من عند الله ، إنه يذكرنا برحمته اينما كنا .. إن شاء الله ستشفى هنا فى هذا البيت .. دون حاجة إلى السفر .

وردت « امى » عليها فى إيمان شديد :

ــ قادر على كل شىء يا حنيفة .. ليتنى كنت مكانها .

ــ بعد الشر عنك .

ونهضنا للعشاء تصحبنا الدعوات المتبادلة بين الأم و « حنيفة »

وقد شرد كل منا فيما نحن مقبلون عليه من احداث تعتبر الأولى من نوعها في حياتنا الرتيبة الهادئة .

ومرت بضعة ايام قبل ان يصل رد البرقية التى ارسلها ابى .. وكانت نوبة البرد قد ازدادت حدة رغم انطوائى فى الدار حتى لا اتعرض لأية مضاعفات قد تتسبب فى إعاقة السفر إذا ما استقر الراى عليه .

وكان يتملكنى إذ ذاك إحساس بالاستسلام لكل ما يقترح علىّ .. ولم تكن بى لهفة على السفر ، فما كنت احس بشىء من ذلك الجزع الذى يحسه ابى علىّ .

كنت اشعر ان علىّ ان استسلم لذلك الوضع الذى اصبحت عليه .. فلم يكن هناك سبيل للمقاومة ، ولم يكن هناك مبرر للجزع .

ومع ذلك لم اضق بفكرة السفر ، ولا تملكنى خوف من إجراء العملية . وما دام هناك مخدر يجعلنى – كما قال ابى – انام واصحو لأجد كل شىء قد انتهى .. فعلام الخوف ؟

اما عن النتيجة .. فإذا شفيت فأمر طيب .. وإذا لم اشف فسابقى كما انا .. بلا اى إزعاج جديد .

وفى ظهر أحد الأيام سمعت أبى يقول لأمى فى لهجة حاسمة :

– سنسافر فى منتصف يناير .

وسمعت « أمى » تجيبه فى شىء من الدهشة وخيبة الأمل :

– لماذا ! ؟ ألم تطلب من الدكتور التأجيل ! ؟

– أجل .. ولكنه اجابنى اليوم ببرقية اخرى انه يفضل الحضور فى الموعد الذى حدده .. واكد لى أن الجو لن يسبب اى ازعاج .

– وماذا ستفعل فى الآلات التى تنتظرها ؟

– ليحدث ما يحدث .. المهم سهير .. لقد وضعت فى ذهنى أن أسافر بها اولا ، والمسائل الأخرى يمكن تدبيرها .

وصمت برهة قبل ان يصل إلىّ صوته حزينا خافتا وهو يواصل حديثه :

– عندما اتصور انها يمكن أن تبقى طيلة حياتها هكذا .. احس بان شيئا يمزق صدرى ، وانى أوشك ان اختنق .

وأحسست بان الدمع يطفر إلى عينى وانا اسمع صوت ابى المليء بالدموع .. وكرهت ان أكون سببا لكل هذه الآلام التى يرزح تحت ثقلها هو وأمى ، وتمنيت لو استطعت ان اخفف عنهما واؤكد لهما انى حقيقة لا اشعر بكل هذه الآلام التى يحملانها لنفسيهما .. وانى قد تعودت حياتى ويمكن ان احتملها بلا ضيق ولا تذمر .

واقبل علىّ ابى يتضاحك وكأن شيئا لا يثقل عليه ولا يمزق صدره .. وكنت احس بموجة من الحزن من اجله تجتاحنى .. ولكنى لم ارد ان احمله مزيدا من الاحزان وكان علىّ ان اقابل تضاحكه بابتسامة سعيدة راضية .

قال لى وهو يمسك يدى ليساعدنى على الانتقال إلى حجرة الطعام :

– سنسافر فى منتصف الشهر القادم .. لقد اصر الطبيب على موعده .. فلنتوكل على الله .

ووصلنا إلى المائدة واجلسنى برفق على مقعدى وهو يواصل حديثه فى حماس :

– شهران يمضيان كلمح البرق .. ونعود بك فى اتم الصحة والعافية .. لتمارسى اعمال الشقاوة والعفرتة .

وانتقلت إلى عدوى ضحكاته فقلت فى لهجة ملؤها الأمل :

– سأتعلم الانزلاق على الجليد فى لبنان .. اتذكر تلك الاعمدة التى كنا نراها على يسارنا ونحن نصعد الجبل قبل ان نصل إلى صوفر ! ؟

ولا أظنه كان يذكرها .. ولكنه اجاب مؤكدا :

– طبعا اذكرها .

– ذلك هو مكان الزحف على الجليد .. بمجرد ان نعود سنذهب إلى هناك للانزلاق .

واجاب « ابى » فى لهجة ملؤها التمنى ، كانه لا يكاد يصدق انى يمكن ان اعود سليمة معافاة . لاجرى واتعلم الانزلاق على الجليد :

ـ عندما نعود يا حبيبتى سنفعل لك كل ما تريدين .. سنذهب للانزلاق فى جبال الألب .. سنطوف بفرنسا وسويسرا وإيطاليا فى صحوة الربيع ، وسناخذ المركب من فينيسيا .

وهز راسه وواصل الحديث مؤكدا :

ـ فقط .. يشفيك الله .. والباقى دعيه لى .

وسالته مازحة :

ـ وإذا لم يشفنى .. ستتركنى دون أن ...

واجاب فى حماسة وهو يطرد السحابة القاتمة من الحزن التى كدت أجعلها تجثم على وجهه :

ـ سأفعل لك كل شىء .. على اى حال .. وفى اى وضع .

واقبلت امى لتاخذ مكانها على المائدة وقد شرد ذهنها فى الأحداث التى توشك ان تخوض غمارها .. سفر .. وعمليات جراحيـة .. واغتراب .. وبرد .. الخ .. كل هذه المشكلات التى سمعتها ترددها لأختها « حفيظة » .

ولم يكن ابى قد انتهى بعد من تاكيداته المطمئنة إلىّ فقد رايته ينظر إلى نظراته المعجبة الحنون وهو يؤكد فى إخلاص :

ـ لن تحلى هما ما دمت حيا ..

ولم اكن فى حاجة إلى تأكيداته .. فقد كنت اشعر دائما انه ملاذى فى كل ضيق ، وما اظنه خذلنى مرة واحدة فى كل ما سألته إياه .

كنت احس ـ بلا غرور ـ انى اهم ما فى حياته .. اهم حتى من أمى التى كانت تعتبرنى جزءا منها .. وكانت تسلم بسهولة واغتباط بمركزى المفضل عند « أبى » .. فقد كنت الوحيدة التى ترضى « أبى » بالتنازل لها عن حقها فيه .. وأفضليتها عنده .

وبدات مرحلة الاستعداد للسـفر ، واخـذت زيارات الاقارب

والأصدقاء تتزايد كلما قرب يوم السفر حتى بتنا فى الأيام القلائل الأخيرة لا نكاد نستقر وحدنا لحظة .

ورايت الكثير من اقاربنا الذين كنت اسمع عنهم دون ان اراهم .. كلهم أقبلوا يودعوننا ويتمنون لنا عودة سليمة معافية .

وانتهت « أمى » من طى السجاجيد ، ولم الاثاث وحزم الامتعة وترتيب الحقائب ، ورشت النفتالين فى الدواليب .

ولم يكن ابى يستقر لحظة واحدة .. كان يبدو لى كانه يصفى كل ما له من امور وعلاقات ، وانه سيسافر إلى غير عودة .. من فرط ما كان يقوم به من أعمال بمقابلاته ومحادثاته التليفونية التى لا تنتهى .

وفى اليوم الأخير لى فى المدرسة ودعتنى الناظرة الضئيلة الجسم ، البيضاء الرأس ، التى اكتشفت طيبتها ورقتها وسط مظاهر الحزم التى تحيط بها نفسها .

نادتنى فى حجرتها ونهضت لتمد يدها إلىّ وتضمنى إلى صدرها قائلة :

« قلوبنا كلها تدعو لك بالشفاء .. اذكرى دائما أن الله معك .. إياك أن تفقدى إيمانك به » .

ولم اكن استطيع ان اتقبل قولها بسهولة ، ولا حاولت ان آخذه مأخذ الجد .. فقد كنت اشعر ان الله ينسانى كثيرا .. وكنت احس ان التجاء الناس إليه وتعلقهم به اضحى نوعا من العادة .. لا يقصد منها ان تحقق غرضا حقيقيا .. بقدر ما يقصد بها التفريج عن الهم ، وإراحة النفس اليائسة الضائعة .

وعادت السيدة الحازمة المظهر ، الرقيقة الباطن ، تواصل حديثها وهى ما زالت تمسك بكفى بين كفيها :

ـ لا تيئسى ابدا من رحمة الله ، حتى لو فشل علاجك فرحمة الله اكبر من ان نحددها فى صورة بذاتها .. إنه يمنحها لنا بشكل او بآخر .. فى شفاء ساقك ، أو فى صفاء قلبك ، أو فى رضاء الناس عنك وحبهم لك .

ولم ادقق كثيرا فى معانى اقوالها .. وإن .. وإن كنت اعرف انها تعزينى مقدما عن احتمال عدم نجاح العملية .

وانتقلت السيدة من حديثها نصف المفهوم إلى حديث اكثر وضوحا .. حديث اقرب إلى فهمى وإلى مطالبى .

قالت تطمئننى عن الامتحانات :

ــ لا تحملى للامتحان هما .. فى اى وقت تعودين .. سادع بعض مدرساتك يراجعن الدروس معك ، حتى تكونى جاهزة للامتحان .

وتمتمت ببضع كلمات غير مفهومة اعبر لها عن شكرى وواصلت السيدة الناظرة حديثها قائلة :

ــ لقد طلبت من ابله عزة ان تعد لك قائمة بما يمكن ان تذاكريه لو وجدت لديك فرصة فى سفرك .

ولم يكن الاستذكار قد خطر ببالى خلال السفر ، وإن كنت لم اجد ضررا فى الحصول على القائمة التى تحدثت عنها الناظرة لا سيما وإن ابله « عزة » لم تكن غريبة عنى ، فقد كانت اخت « سلمى » وكانت كثيرا ما تقوم بالتدريس لنا فى المنزل عندما تستعصى علينا مسالة او يفوتنا درس .

وعدت إلى البيت لأجده مكتظا بالاقارب .. واقبل علىّ « حسان » وقد بدا عليه التاثر النابع من طيبة قلبه .. وامسك بعض كتب فى يده قائلا :

ــ لقد انتقيت لك بعض القصص السهلة القراءة الجذابة الاسلوب لبعض الكتاب العرب .

ومد يده بالكتب واتم حديثه مازحا :

ــ اطمئنى ليس بها شىء لى .. ولكنى واثق انها ستسليك فى رقدتك فى المستشفى .

وتناولت الكتب وقد تملكنى إحساس بالاخوة له .. وقلت له فى خلاص :

ــ تمنيت لو كان بينها كتاب لك .

ــ حقيقة ؟

ــ اجل .

ــ ولكنك كنت تسخرين من كتابتى دائما !

ــ لانى كنت لا احب القراءة .

ــ والآن ؟

ــ ساحاول ان احبها .. لن يكون امامى فى رقدتى سواها .. لا اظننى ساجد ما يشغل ساعاتى الطويلة هناك .

وهز « حسان » راسه فى إعجاب :

ــ لو استطعت ان انتهى من طباعة مجموعة قصصى قبل عودتك فسأرسلها إليك .

واحسست ونحن نتحدث ان نوعا من التفاهم العاقل قد بدا بيننا .. وبدا لى انه يمكن ان نكون على علاقة طيبة ، ما دمنا بعيدين عن هذا الشكل الذى تحاول الاسرة فرضه علينا ، اعنى شكل الزواج .

واقبلت خالتى « حفيظة » وقد احسست ان كلاما طيبا يجرى بيننا وكانت اكثر افراد الأسرة تحبيذا لسفرى وتأييدا لإجراء العملية ، وكنت اشعر فى قرارة نفسى بمدى اهتمامها بى .. ولهفتها علىّ كتحفة قيمة لا تعوض يجب ان يصلح ما اصابها من تلف ، وكانت تضع نفسها منى موضع صاحب التحفة او وارثها .

وحاشاى ان اقصد بتعبيرى هذا الإقلال من قيمة مشاعرها نحوى .. فلهفتها علىّ لم تكن تقويما لقيمتى المادية فقط .. كوارثة لآلاف الدونمات التى يملكها ابى ، بل كانت تعتبرنى فى جملتى اثمن ما يمكن ان تهديه لابنها ، وكانت تكره منه جهله بقيمتى ، وعدم إقباله علىّ .. إقبال المتلهف الذى يعرف حقيقة قدرى كزوجة المستقبل الكاملة التى تخلع عليها كل صفات الكمال والجمال بلا خوف من تزيد او مبالغة .

ولم تحاول « خالتى » بالطبع ان تاخذ سخريتى منه .. ومن حديث

الزواج به ، ماخذ الجد ، أو تعتبرها تعبير حقيقى عن شعورى .. لأنها كانت تعتبرنى اصغر من ان اتحدث فى تلك المسائل حديث الجاد ، وكانت تسلم بأن هذه هى الطريقة الطبيعية لمناقشة الفتيات مثل هذه المسائل فى مثل هذه السن .

وكانت تعرف ان طبيعة تقاليد الأسرة المتوارثة تفرض على الأبناء التسليم بمشروعات الزواج التى يخططها لهم الآباء ؛ ولم تكن تحس من طبيعة خلقى ان ثمة حوائل خارجية ، أو نزوات من الشعور يمكن ان تجرفنى خارج تخطيطها .. وتجعلنى افكر فى اى زوج آخر ، غير هذا الزوج المعد لى .

ومن اجل هذا كنت أحس بطمأنينتها إلىّ ، وعدم انزعاجها من الطريقة الصبيانية التى أعامله بها .

ولكن الذى يزعجها كان « حسان » نفسه .. فما اظنها احست منه قط اهتماما جادا بى .. حتى فى الفترة الأولى من مرضى عندما كان يكثر من العطف علىّ والاهتمام بى .. كانت تدرك أنه كان إحساس شفقة لم يلبث ان تضاءل بطول المرض واعتياده .

ولقد سرها ولا شك — وهى التى تحاول ان تثير اهتمامه بى — ان ترى نوعا من التفاهم الذى بدا لها جادا قبل ان أرحل .

فاقبلت علينا فى حماسة تقول :

ـ بعد غد سيسافر حسان إلى القاهرة لتسجيل رسالته وعندما تعودين بالسلامة سيكون قد انتهى من عملية التسجيل وعاد ليتسلم عمله كمعيد فى الجامعة .. ولعل الله يكون قد وضع حدا لأحزاننا .. وليجعل عودتك إيذانا بأفراح دائمة .

ولم يرتح احد منا لما احس به وراء كلمات الخالة .

لقد كان أقصى ما يمكن أن نقبله بيننا .. هو الصداقة ، اما ما يتعدى ذلك من مشروعات سخيفة ، فقد كنا حقيقة نضيق بها .

وهز « حسان » رأسه واستدار لينصرف خشية ما يمكن أن يتطرق

إليه حديثها من ذكر الزواج ، أو معايرتها التقليدية له بأنه لا يستحق قلامة ظفرى .

وبدأت خالتى « حفظة » تملينى عناوين معارفها فى سفارتنا فى لندن ثم سلمتنى فى النهاية رسالة إلى صديقة لها قائلة :

— اول ما تذهبين اتصلى بالسيدة لطيفة زوجة الدكتور محمـــود هاشم استاذ التاريخ الإسلامى .. انا اعرف ان امك خائبة وتغرق فى شبر ماء .. والسيدة لطيفة صديقتنا من مصر وقد أمضت ما يزيد على عشر سنين فى لندن وتعرف كل شبر فيها ، وهى معرفتنا منذ زمن بعيد ، وكريمة وعشرية إلى أبعد حدود الكرم والعشرة .. وستنفعكم جدا خلال إقامتكم هناك ..

لقد قلت لأمك عنها .. ولكنى خشيت أن اسلمها الرسالة فتضيعها .

ولم اكن أحس اننا سنكون فى حاجة إلى احد .. لقد كنت اتصور أننا سنذهب للطبيب الذى سيجرى لى العملية فى نفس اليوم واظل راقدة فى المستشفى حتى انهض على قدمى ثم اعود إلى دمشق .

ومددت يدى آخذ الرسالة وادسها فى حقيبة بجوارى حتى اريح خالتى .

واحسست بذراعيها تلتفان حول جسدى وتضماننى إليها فى حنان وعطف وإيمان بأنى شىء ثمين .. ولم تستطع ان تكبت زفرة حارة انطلقت من صدرها وهى تدعو :

— ربنا يعيدكم بالسلامة .

وكانت « سلمى » تتبع بجوارى كالقطة الوديعة .. ترقب مناظر الوداع المختلفة التى تتوالى علىّ ؛ وقد بدت شاردة حزينة .. وعندما حان فراقنا وجدتها تشيح بوجهها لتخفى دمعتين تترقرقان فى مقلتيها وهى تهمس قائلة :

— اكتبى إلىّ كثيرا يا سهير .. سأكتب انا لك كل يوم لأخبرك عن كل شىء .

وكانت « حنيفة » آخر من اقبل علىّ عندما انفض السامر وخيم السكون على البيت .

اقبلت تحمل مصحفا وكتيبا صغيرا دستهما تحت الوسادة وهى تقول فى جزع :

— ضعيهم دائما تحت وسادتك .. واذكرى ان الله يحبك .. وان بيده كل شىء ، وانه وحده صاحب الشفاء ، لم يكن هناك ما يدعو للسفر ابدا .. فهو قادر على ان يشفيك فى اى مكان .. ولكن ما دام لابد من السفر .. فليعدك الله بالسلامة .

إحساس بالوحشة

بدات رحلتنا إلى لندن فى الطائرة .

اتخذت موضعى بجوار امى وقد شددت الحزام حولى ، واخذت ارقب ارض المطار وقد بدت فى آخره اشباح المودعين ، مختلطة وجوههم ، متشابكة اذرعتهم الملوحة فى الهواء .

واستقر ابى على مقعد مجاور بعد ان رص معاطفنا وحقائبنا فوق الرف وبدا يرخى اعصابه بعد طول ما بذل من جهد والتفت إلى يبتسم متسائلا :

— امستريحة فى مقعدك ؟

وأشرت له براسى « نعم » .

ومدت امى يدها تتحسس المشد الحديدى قائلة :

— يمكنك ان ترخيه حتى لا يضايقك طوال الرحلة .

وقلت لها إنه لا يضايقنى .. ومع ذلك فقد ارخيت اربطته حتى اريحها هى .. وعدت ابتسم لابى ابتسامة تطمئنه علىّ .

لقد شعرت انهما فى حاجة مستمرة لكى أؤكد لهما إنى بخير .. وإنى مستريحة .

ومرت المضيفة بطبق الحلوى ، فتناولت واحدة ألوكها فى فمى .. وتركت لنفسى فرصة الشرود .

لم اكن استطيع ان احدد لنفسى كيف اشعر .

كانت مشاعرى مبهمة حتى على نفسى .

لم اكن اعرف ما إذا كنت خائفة مما انا مقدمة عليه .. ام مطمئنة إلى نتيجته .

لم اكن اعرف حتى إذا كنت اتلهف حقيتة على الشفاء .. ام ان المسألة تستوى عندى .

هل كان يضايقنى ما أنا فيه إلى حد المغامرة بالسفر والعملية ؟

لو ترك الأمر لى لما اقدمت على شىء .

فلست اظننى فى سنى هذه كنت اشعر بالضيق الحقيقى بما انا فيه .. فقد كان اكثر ما يزعجنى حينذاك الالام الجسمانية .. وما دمت لا اشعر مما انا فيه بشىء من الالم .. فالمسألة عندى تكاد تكون غير كائنة .. فآثارها النفسية لم تكن عندى ذات موضوع .. إذ لم اكن قد بدات بعد احس بما يمكن ان تتركه من تشويه فى جسدى .. بل لم اكن ارى بعد ان جسدى يمكن ان يكون مظهرا من مظاهر الجمال .. بل كان إحساسى بجمالى لا يتعدى وجهى وشعرى .

ومن هنا كان سبب اللامبالاة الذى كنت اتناول به المسألة كلها ، والذى جعلها بالنسبة إلىّ رحلة بالطائرة ، تعقبها رقدة فى الفراش وعملية يقينى المخدر كل آلامها ، والنتيجة مهما كانت ، فلن تكونُ اسوا مما انا عليه .

لم اكن استطيع ان احكم على المسألة إلا من خلال السن التى انا فيها .. لم اكن استطيع ان اشعر بها كما يشعر ابى وامى اللذان يعرفان كيف يمكن ان يكون اثرها فى نفسى بعد بضع سنوات عندما انمو ويكتمل جسدى وتصبح ساقى المشلولة كالجزء العطب فى الثمرة الناضجة .

ولم اتجاوز فى شرودى ذكرياتى القريبة .. واخذت استعرض فى ذهنى ما مر بى على ارض المطار ثم احسست بالأرض تتباعد عن اعيننا وتملكنى الخوف واغمضت عينى واطبقت على كف امى المستندة على يد المقعد .

وفتحت عينى بعد برهة لأجد الطائرة قد استقرت فى الجو كأنها مثبتة فى السماء ، وابصرت ببساط أبيض من السحب يمتد اسفلى .

وفككت الحزام واحسست بالاسترخاء ، وبدات اتصرف كأنى استقر على مقعد فى حجرتى ، ولم اشعر بالملل يتطرق إلى نفسى خلال الرحلة .. فقد بدات اتشاغل بالاكل وبالقراءة وبالحديث مع امى تارة ، ومع ابى تارة اخرى ، وبدات استعرض معهما قائمة المشتريات التى انوى شراءها من هناك وكأننا راحلون فى نزهة .

وهبطت الطائرة مرتين على ما اذكر فى روما وفى جنيف ولم احاول النزول ، فقد كرهت ان أحمل ابى عبء نزولى وصعودى من الطائرة بلا مبرر ، لا سيما وان صعودى إلى الطائرة أول مرة لم يكن من السهولة بحيث يشجعنى على تكراره .

وانتقل ابى إلى جوارى وحاول ان يشرح لى ما مررنا عليه طول الطريق ، وكنت انظر اسفل فلا ابصر سوى اكداس السحب .. لم اميز سوى قمم الالب الناصعة وقد اختلطت بأكوام السحب المتراكمة حولها .

واخيرا هبطت بنا الطائرة فى لندن ، ولم اشعر كيف تسلل التعب إلى جسدى .. كنت مسترخية طوال الرحلة ، ومع ذلك لم اكد اهبط إلى الأرض حتى احسست بثقل فى راسى وتمنيت لو استطعت ان اتمدد فى فراشى .

ولطمتنا على الأرض هبة ريح باردة كادت تفقدنا الاحساس بأطرافنا .. واحسست بأبى وقد بدا عليه الإجهاد بحمل حقائب اليد فى احدى يديه ، ويلف ذراعه الخالية حول جسدى حتى لتكاد تحملنى من فوق الارض ويقول لى فى إشفاق :

ـــ البرد شديد .

وهززت راسى وانا احاول الابتسام :

ـــ اجل .

— من اجل هذا حاولت تأجيل موعد الطبيب .

وابتسمت لاعتذاره واجبت ضاحكة :

— لقد حضرنا وانتهى الأمر .

وأوصلنا اتوبيس الطائرة إلى المدخل الطويل المؤدى إلى مبنى المطار ، وسرنا وراء المضيفة الزرقاء العينين ، الطويلة الجسد ، وقد بدا علينا منتهى الإجهاد حتى وقفت بنا امام مكاتب موظفى الجوازات وأشارت إلى لافتة مكتوب عليها « غير الانجليز » فتقدم ابى وبدا يكتب أوراقا ويقدم أوراقا ، واخذ الموظف فى فحص جوازاتنا .. ولم تكن المدة التى استغرقتها اكثر من دقائق ولكن خلتها دهرا من فرط ما كنت اشعر به من تعب ورغبة فى الرقاد .

واتجهنا بعد ذلك إلى منضدة الجمارك ، وانتهى فحص حقائبنا فى لحظات خاطفة ، واتجهنا إلى باب الخروج وقد بدت على وجه ابى علامات الحيرة ، حتى ابصر رجلا يلوّح له بيده .

واقبل علينا الرجل الذى ميز ابى وعرفنا به ابى :

— الاستاذ جمال الملحق التجارى بالسفارة .

وحيانا الاستاذ « جمال » واستفسر عن حقائبنا ، ثم تركنا ليحضر عربته .

ووقفنا تحت مظلة البناء الخارجية ، ورذاذ المطر يتساقط أمامنا ، والريح القارصة تدفع به إلينا لتلطم به وجوهنا .

واخذت انكمش داخل معطفى وقد ملأنى إحساس بانقباض شديد وانا اكاد اجد كل ما حولى باردا كئيبا ، واشعة المصابيح تنكسر وراء ذرات الضباب المتثاقل حولنا .. فلا تنفذ إلينا إلا ضعيفة مترنحة ، وتمنيت لو استطعت ان ابكى وكدت اصيح بأبى :

— اريد ان اعود .

من العبث ان احاول وصف الإحساس الموحش بالغربة الذى احسست به وانا اقف منكمشة داخل معطفى والريح تلسعنى والمطر يطرق ارنبة أنفى وعظام وجنتى .

كنت ارتجف من التعب والبرد والخوف .. ولم تكن امى افضل منى حالا وقد شحب وجهها ، وبدا عليها الإرهاق والشرود ، واحسست ان ابى اثقل بالمتاعب ، وانه قد حمل فوق طاقته .

وطالت غيبة صاحبنا الذى ذهب ليحضر العربة .. وازدادت طرقات المطر ولسعات البرد وازداد معها الإحساس بالغربة والضياع وهمست بأبى وانا اكاد اسقط إعياء :

— ليتنا ما حضرنا .. كنا مستريحين فى دمشق .

اجل .. لقد باتت دمشق كلها فى نظرى وكأنها بيت تحنو على جدرانه ويظللنى سقفه .

لقد تملكنى حنين شديد ، وانا فى وقفتى تلك إلى كل ما بدمشق . إلى طرقاتها المليئة بالأنس ، إلى انفاسها الدافئة رغم برد الشتاء ، إلى حركة شوارعها وازدحام حوانيتها .. إلى بيوتها واشجارها ، إلى نهرها الحنون الرقيق ، إلى صيحات باعتها يدفعون عرباتهم الصغيرة أمامهم ، إلى كل الناس ، إلى « حنيفة » ، إلى « سلمى » ، إلى كل حجر فى دورها ، وكل قبضة طين فى ارضها .

ومد ابى ذراعه فأحاطنى بها فى حنان شديد ، وقال مترفقا :

— سينتهى كل هذا التعب عندما نستقر فى الفندق .. لابد ان تحتملى يا سهير .

وقلت له وانا ارتجف :

— اكره هذا البلد .

— ستألفينه بعد قليل .

واخذت امى تبدى قلقها متسائلة ، وهى لا تقل عنى ارتجافا :

— متى سيحضر العربة ؟ ! لقد كدت أجمد .

وقبل ان يجيب ابى كانت العربة تقف امامنا .

وبعد لحظة وضعت الامتعة فى صندوق العربة ، وانطلقت بنا تجاه المدينة .. واحسست بالنوم ويطبق جفونى ، وطال بنا الطريق والمطر

ما زال ينهمر ومنظف الزجاج يتحرك كالبندول فى حركة عصبية رتيبة ليزيح قطرات المطر من أمام السائق .

وتبادل ابى والأستاذ « جمال » بضع كلمات تائهة يقطعان بها صمت الطريق ، واحسست أننا قد أشرفنا على نهاية الطريق عندما قال « جمال » لأبى :

— لقد تم الحجز فى البيت الأبيض .. ابلغنا الفندق أن الحجرتين محجوزتان ابتداء من اليوم ، والأفضل ان نتجه إلى هناك راسا .

ورد ابى فى لهفة :

— اجل .. اجل .

وبدا التردد على « جمال » وهو يتمهل بالعربة قليلا ثم تساءل :

— اظنها فى شارع الباتى .

وايد « ابى » قوله مؤكدا :

— اجل .. فى شارع الباتى .. لقد طلبت الحجز فيها لأنى سبق أن نزلت بها فى المرة السابقة عندما مررت بلندن .

— إنها مريحة جدا .

— وهى قريبة كما أعلم من المستشفى الذى تقرر أن تجرى به العملية .

— اجل .. اجل .. اعتقد هذا .

ومرة أخرى بدا عليه التردد وهو يتوقف بعربته وينتظر عابر سبيل اقبل علينا وقال فى شبه اعتذار :

— الواقع أنى لا أعرف مكانها بالضبط ، لأن الحجز تم بالتليفون .. ولكننا نستطيع ان نسأل .

وبدأت عملية السؤال ، واخذنا نتأرجح شرقا وغربا فى الشوارع التى أعتمها الضباب وأغرقها المطر .. وكان التعب والضيق قد استنفد كل ما نملك من مقاومة ، وكدت أصيح باكية :

— اعيدونى حيث اتيت .. إنى راضية بساقى كما هى .. إنى لم اشك لأحد .

ولكن بقية خشية على مشاعر « ابى » ، وخجل من الرجل الغريب منحانى مزيدا من الصبر فالقيت براسى على مسند العربة واغمضت عينى .

واخيرا هتف الأستاذ « جمال » وهو يدور بالعربة فى منحنى ثم يتـوقف امام باب زجاجى عـريض وقف تحت مظلته حارس يرتدى بذلة خضراء .

— وصلنا اخيرا .. آسف على هذا التعطيل .

واخذ الحارس يتناول الحقائب ويحملها إلى الداخل .

ولم تمض لحظات حتى كان ابى يتناول مفتاحين ويشد على يد « جمال » شاكرا وهو يقول معتذرا :

— آسف على ما قد اكون سببته لك من إزعاج .

وهز الرجل الرقيق راسه متمتما :

— حاشا لله .. هذا اقل ما يجب عمله .. اترككم لكى تستريحوا .. هذا رقم تليفونى إذا احتجتم اى شىء .

وصعدنا إلى الحجرة .. وبدا الدفء الذى انبعث من داخل الفندق يزيل آثار البرد الذى جعل آذاننا واطراف انوفنا تكاد تجمد .

واستقر بنا المقام فى إحدى الحجرتين المحجوزتين .. والذى قصد ابى ان يكونا حجرتين فى جناح واحد .. ولكننا لم نجد سوى حجرتين كل منهما مستقلة عن الأخرى .

وارتميت على أقرب مقعد .. وبدات احس بالجوع وقلت لأمى :

— الا يوجد شىء يؤكل ؟

ونظرت أمى إلى ابى .. فقد كان حلال مشكلاتها المستعصية وقد عد الطعام فى هذه الليلة الموحشة المتعبة من المشكلات المستعصية .

ونظر ابى إلى قائمة الأجراس وضغط على أحدها .

وأقبل الساقى بعد لحظات يتساءل فى أدب عما نريد .

وسأل ابى :

— كيف يمكننا ان نتناول الطعام ؟ ؟
وهز الرجل رأسه فى أسف قائلا :
— المطعم قد أغلق .
— الا تستطيع ان تشترى شيئا يؤكل ؟
وعاد الرجل يهز رأسه فى اسف وهو يقول :
— لا أظن .

وخرج وهو يعتذر .. وبدت الحيرة على وجه ابى .. ولكنه نهض فجأة وأخذ يفتش فى حقيبة يده حتى اخرج قطعة من الشيكولاتة مد بها يده إلىّ كأنه قد وجد كنزا وقال ضاحكا :
— خذى هذه تصبرى بها حتى الصباح .

ولم يكن امامنا بعد ذلك سوى النوم .. وكنا فى امس الحاجة إليه فألقينا اجسادنا على الفراش وأستغرقنا فى النوم .

واستيقظت فى الصباح .

لم يكن صباحا بالمعنى المفهوم للصباح .. فما كان يحمل ابسط معالم الصباح .. وهو الإشراق .. بل وما كنت لادرك انه اقبل لولا احساسى بأنى شبعت نوما وبأنى لم اعد أطيق الاستلقاء فى الفراش .. وأكد لى إحساسى بأن الليل قد انتهى وأن عقارب الساعة كانت تشير إلى السابعة والنصف .. ولم تكن واقفة .. بل كانت مستمرة فى التحرك .

ووقفت وراء النافذة الزجاجية ارقب الطريق الساكن وارقب مصابيحه ذات الضوء الأصفر التى تتكسر أشعتها وراء ذرات الضباب الثقيل فلا تكاد تتعدى دائرة ضيقة تحيط بالمصباح .

ورويدا رويدا بدأ ستار الظلمة يرتفع .. وضاعت الدوائر الصغيرة الصفراء المحيطة بالمصابيح وسط الضوء الرمادى الذى غمر الطرقات .. وبدت لى أسقف الدور المنحدرة وقد غطتها طبقة ناصعة من الجليد ، امتدت إلى قمم الأشجار العارية وإلى اسقف العربات بل إلى ارض الطريق نفسه .

ولم تكن اول مرة أبصر الجليد .. فقد سبق ان ابصرته فى جبال لبنان وعلى قمم بلودان ، ومع ذلك فقد اخذت .. كانت المرة الأولى ان ارى كل شىء امامى قد غطاه الجليد حتى الأرض السوداء وبدت الدنيا كلها كأنها إناء فار فيه اللبن وغطت رغاويه البيضاء كل ما حوله .

واتجهت إلى ابى الذى اخذ يتمطى فى فراشه وهتفت به فى فرحة :
— ارايت الجليد ؟ لقد غطى كل شىء .

ونهض ابى وصحبنى إلى النافذة ، ووقف معى يرقب البياض الممتد أمامى .. ولم تبد عليه الحماسة التى كنت اتوقعها .. وقلت له متسائلة :
— ما رأيك ؟
— جميل .. وإن كنت افضل عليه شعاع شمس دافئا .
وغادر النافذة وهو ينظر إلى الساعة ويواصل حديثه قائلا :
— الساعة الثامنة .. وموعدنا مع الطبيب فى الحادية عشرة .. أظن ان لدينا وقتا كافيا للإفطار والذهاب إلى البنك .

وقبل ان يغادرنا ابى للذهاب إلى البنك كنا قد انتقلنا إلى جناح أرحب يكاد يكون فى تكوينه شقة صغيرة بحمام مريح ومطبخ يحوى فرنا وثلاجة .. واحسست فيه بشىء من الاستقرار ، وبدأت ارتب ملابسى واسطواناتى وكتبى وعثرت بين الكتب على الرسالة التى اعطتها لى خالتى لصديقتها المصرية ولوّحت بالرسالة لأمى متسائلة :
— رسالة الست لطيفة .. ماذا اصنع بها ؟
— اطلبيها فى التليفون .
— ماذا أقول لها ؟
— قولى لها إن خالتك حفيظة تسلم عليها و ..
ولم يكن هناك أثقل علىّ من محادثة الغرباء ، فقلت لأمى سأطلبها لك وكلميها أنت .

وامسكت بالسماعة وبما اعرفه من إنجليزية ركيكة استطعت ان اطلب الرقم . واحسست بالحرج وأنا اسمع صوتا يتحدث إلىّ بالعربية قائلا :
— آلو .

واجبت بالعربية :

ــ صباح الخير .

ــ صباح الخير .. من ؟

وارتبكت ولم اعرف ماذا اقول وحاولت ان استنجد بأمى فوجدتها قد تشاغلت عنى بترتيب الدواليب .. وكان علىّ ان اقول شيئا فاجبت فى ارتباك :

ــ انا سهير .. خالتى حنيظة ....

ولم اكد انطق اسم خالتى « حنيظة » حتى هتفت السيدة :

ــ أهلا وسهلا .. الف اهلا وسهلا .. حمد الله على السلامة .. كيف حال حنيظة ؟

ــ بخير .. وقد أرسلت إليك رسالة .

وكانت امى قد اقبلت فوجدت فيها منقذا ، وقلت للسيدة على عجل :

ــماما ستكلمك .

ومددت يدى بالسماعة اسلمها لامى .

وعدت اتشاغل بترتيب كتبى فى رف بالحائط .

وانتهى الحديث بين امى و « لطيفة » بوعد السيدة بزيارتها وزوجها بعد الظهر ، ولكن لم تمض برهة حتى دق التليفون وعدت اسمع صوت « لطيفة » تقول معتذرة :

ــ اهلا سهير .. قولى لماما إننا سنحضر إليكم هذا الصباح .. فلعلكم تكونون فى حاجة إلى شىء .. مع السلامة .

ولم تدع لى فرصة المناقشــــة ووضعت الســـماعة وابلغت امى بالحديث .

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما عاد ابى من الخارج .. يجدنا قد ارتدينا ملابسنا وجلسنا فى انتظاره . ولم تكن امى تبلغه منبأ الزيارة المتوقعة حتى دق جرس الباب ، واقبل الضيفان « الدكتور هاشم » وزوجته « لطيفة » واستقبلهما ابى بالترحاب قائلا :

ــ اهلا وسهلا .. لا اظننا فى حاجة إلى تعارف . فقد تحدثت عنكما حفيظة بما فيه الكفاية .. واظنها رأتكما فى القاهرة .

واجابت السيدة :

ــ كان لقاؤنا الأول فى لبنان ثم زارتنا بعد ذلك فى القاهرة .. وعندما حضرت إلى لندن منذ بضع سنوات لم نكن نفترق لحظة . لقد اوحشتنا جدا .. كيف حالها :

واجابت امى :

ــ بخير .

وكنت اشعر ان النظر يسترق إلى ساقى .. ولم يصعب علىّ ان اميز النظرة المليئة بالشفقة التى تثيرها المقارنة اللا إرادية بين وجهى وساقى .

وكان « الدكتور هاشم » رجلا طيب السمات ، طويل القامة ، محترم المظهر ، يمنحه منظاره وراسه الأملس وقار الأساتذة ؛ وكانت زوجته « لطيفة » نموذجا طيبا للسيدة الشرقية بكل ما فيها من طيبة وذكاء وخفة دم وحسن لقاء .

وفى لحظات رفعت الكلفة بين الاسرتين واحسست ان السيدة المصرية الذكية البشوش قد استطاعت بسرعة ان تكتسب ثقة أمى الخجول المنطوية ،كما احسست ان امى بطيبتها وهدوئها قد وقعت من نفسها موقعا طيبا .

وكان طبيعيا ان يدور الحديث حول ساقى .. بعد ان انتهت فترة التحيات والسلامات والمديح فى خالتى « حفيظة » وبعد ان طال استراق النظر إلى ساقى المشدودة فى قيدها الحديدى .

وطرق ابى الموضوع مباشرة بقوله :

ــ لقد حضرنا لإجراء عملية لسهير .

وقاطعته لطيفة متسائلة :

— من الذى سيجريها ؟

— الدكتور إيفانز .

— من افضل الأطباء هنا .. متى سيجريها ؟

— موعدنا اليوم معه فى الحادية عشرة .

ونظر ابى إلى ساعته ثم اضاف قائلا :

— بعد نصف ساعة.. لقد قبل ان يتولى علاجها بعد ان ارسلنا له التقارير الطبية وصور الأشعة .. واظنه سيقرر اليوم بعد ان يفحصها ماذا ينوى ان يفعله .

واحس « الدكتور هاشم » ان الوقت قد ازف للذهاب إلى الطبيب فنهض واقفا وهو يقول :

— اظن موعد الطبيب قد ازف . اتعرف عنوانه ؟

واخرج ابى ورقة من محفظته وفحصها قائلا :

— شارع بورتلاند ٨٢ .. اظن ان ...

وقاطعته « لطيفة » قائلة :

— سيذهب هاشم معكما إلى الطبيب .. وسابقى هنا مع فاطمة هانم فى انتظاركما .

واجاب ابى شاكرا :

— لا داعى لتعطيل الدكتور هاشم . نستطيع ان نأخذ تاكسى إلى عيادة الطبيب يوصلنا بسهولة .

ورد « الدكتور هاشم » فى إصرار :

— ليس لدىّ ما اعمله الآن .. إن شارع بورتلاند على مقربة خطوات من الفندق .. هيا بنا .

وقبل ان نغادر الحجرة قالت لطيفة :

— سنتناول العشاء الليلة سويا .. سيحضر حمدى ابن اختى من ولنتش اليوم .. إنه ضابط فى الجيش تخرج فى السنة الماضية وارسل فى بعثة مدفعية إلى انجلترا .. إنه عزيز علىّ كاولادى .

ومر اسم حمدى « ابن اختى » بسمعى مر الكرام .. لم اعرف بالطبع انه سينقش بعد سنوات فى ذهنى وفى قلبى . لم يطف براسى قط انه سيعنى لدى فيما بعد شيئا .. شيئا هاما خطيرا .. بل اخطر ما يمكن ان يكون فى حياة إنسان .

لم يخطر ببالى انه سيكون .. إسما لك .. وإلا لكنت حفلت بالإصغاء إليه .. والاستفسار عنه .. ولما تركته يدخل من اذن ليخرج من الاخرى .. وانا اتعلق بذراع ابى خارجة من الباب متجهة إلى المصعد .

وهبطنا إلى ساحة الفندق الداخلية وقد دبت فيها الحركة ، نزلاء يدخلون بحقائبهم وخدم يحملون المكانس او الملاءات ، وصبى يدفع امامه عربة صغيرة محملة بصناديق ، خشبية ، وموسيقى تنبعث من بهو النادى الصغير القائم حول حوض السباحة .

ووصلنا إلى باب الفندق وانا استوعب ببصرى كل ما حولى .. ولم نكد نطل برءوسنا من الباب الخارجى حتى لسعتنا سياط الريح الباردة .. كنت قد نسيت البرد وأنا داخل الفندق من فرط ما كان ينبعث فيه من الدفء ، ووجدت نفسى ارتجف وانا متعلقة بذراع ابى خارج الباب ، واشار ابى إلى الحارس الكهل الطويل الممتلىء وقد بدا بحلته الفاخرة ووقفته المتعالية كانه رئيس وزراء او قائد جيش وهم بأن يطلب عربة اجرة عندما قال الدكتور هاشم :

— المسافة لا تستحق .. العيادة فى الشارع المجاور لهذا .

وكان مدخل الفندق يقع فى ميدان مثلث صغير يتوسطه بناء عتيق اشبه بالكنائس احاطت به اشجار ضخمة تجردت اغصانها إلا من الجليد المتراكم عليها كالزهر الابيض ، وكان الجليد ما زال يفترش كل المسطحات عدا ارض الطريق التى نفضته عنها عجلات العربات التى اخذت تتعاقب الواحدة فى ذيل الأخرى .

واستهوانى منظر الجليد الهش يفترش الارصفة واحسست به تحت قدمى كانه الحشية البيضاء اللينة وتمنيت ان اخوض فيه .

ورفعت راسى إلى ابى وقلت راجية :

— اريد ان اسير .

وبدا التردد على ابى وهو يجيبنى :

— الجو بارد يا سهير .

وكان الجو باردا حقا .. ولكن إلمعطف الذى ضممته إلى جسدى والإيشارب الصوفى الذى لففت به راسى واحطت به عنقى قد صدا عنى سياط البرد ومنحانى القدرة على ان اخوض غماره بلا رجفة ولا خوف ، وكانت شعلة النشاط التى اكتسبتها من نومة طويلة عميقة فى الليلة الماضية بعد الجهد الشاق الذى اصابنى من الرحلة تملؤنى رغبة فى السير فعدت الح على ابى :

— السير سيدفئنا .

ولم يبد على « ابى » الاقتناع .. إذ كان اكثر ميلا إلى الركوب ، ولكن خشيته من ان يشعرنى بعجز ساقى جعلته لا يتردد فى قبول فكرة السير ولا سيما بعد ان عاد « الدكتور هاشم » يقول مؤكدا :

— المسافة لا تستحق الركوب يا عبد الهادى بك .

واجاب ابى وهو يرسم ابتسامة الاستسلام على شفتيه :

— امركما .. انا ايضا استطيع السير .

وبدات انقل قدمى فى حشية الجليد الممتد على الرصيف واحسست بقبضة ابى تمسك بى فى حرص وكانه يخشى ان اسقط منه فى كل خطوة اخطوها .

وعبرت الطريق .. ثم سرت على الرصيف الآخر .. وابصرت الحدائق تمتد على مدى بصرى .. حدائق جردها البرد من كل عود اخضر .. وسكب على نجيلها الأخضر لبنه الابيض فلم يعد يبصر منها إلا جذوع الشجر القائمة تنبت من بساط الجليد .

ولم يطل بنا السير حتى وقفنا امام بيت ابيض كبير ، واجتزنا عتبة

الباب الضخم لنجد بهوا فرش بالابسطة وجهز بالمقاعد كانه بهو داخلى لمسكن خاص لا مدخل عام للبيت ، وعلى يمين البهو وقف واحد من هذه الشخصيات الخطيرة المسماة فى لندن بالبوابين ، وخيل إلىّ فى اول الامر انه لابد ان يكون الطبيب نفسه ، ولكن لم البث ان رايته يتقدم فى ادب متعجرف او عجرفة متادبة ليسالنا عما نريد .

واجابه « الدكتور هاشم » متسائلا :

— الدكتور إيفانز ؟

واشار البواب الفاخر إلى باب على يسارنا .. فتقدم ابى يضغط زر الجرس ، ولم نلبث قليلا حتى ابصرنا فتاة طويلة القامة ، حمراء الشعر ، منمشة الوجه ، تفتح الباب باسمة .

وقبل ان ينطق ابى بكلمة .. سالته الفتاة برقة :

— السيد عبد الهادى السمان ؟

واجاب ابى :

— اجل .

— تفضلوا .

— سانبىء الدكتور بوجودكم .

وقادتنا إلى ركن فى البهو الصغير قد اشتعلت فيه نيران مدفأة وقالت فى ادب :

وبعد لحظات عادت لتقودنا إلى الدكتور .

ودخلت وابى إلى الحجرة وانا احس بدقات قلبى تتزايد وتعلو .

وعاودنى الاحساس بالوحشة والخوف الذى شعرت به وانا اقف خارج المطار والبرد يلسعنى والمطر يطرق وجهى .. عدت اقل لنفسى :

« لماذا اتيت ! ؟ إنى لم اشك من شىء .. إنى راضية بساقى هكذا » ؟ !

وكنت هناك

لقينى الطبيب الإنجليزى ببشاشة ورفق .. ، وتحدث مع ابى برهة ثم اخذ يفحص صور الأشعة الملقاة على مكتبه .

والقيت نظرة خاطفة على الحجرة ، فلم اجد فى مظهرها ما يوحى بأنها عيادة طبيب .. كان اثاثها عتيقا فاخرا .. وبها مدفأة رخامية دقيقة الصنع ، رصت كتل الحطب فى سلة بجوارها ، ولكن جوفها كان خامد النيران ، واستعيض عن دفء الوقود بدفء الكهرباء وانابيب المياه الساخنة .

وعلى الارض فرشت بعض سجاجيد عجمية ، وفوق الحائط علقت لوحات زيتية لانهار واشجار وجياد ورجال يبدون كالملوك او العظماء .

من وراء النافذة الزجاجية ابصرت الطريق يتلاحق فيه الناس فى سرعة عجيبة ، كأنهم يسيرون فى شريط سينمائى صامت .. والجليد قد بدا فى الذوبان وداسته الاقدام ، فاختلط بياضه الناصع بسواد الارض فى كتل رمادية كأنها رغاوى الغسيل القذر .

وانتقل بصرى من النافذة إلى وجه الطبيب ، واخذت ارقب شعر حاجبيه الاسود الكثيف الملتوى إلى اعلى كأنه مظلة فوق عينيه ، وهبطت عيناى إلى الشرايين الدقيقة الحمر المتعرجة المنتشرة فى انفه ، ثم انتقلت من انفه إلى وجه ابى .. واحسست ببعض الراحة ، وانا ارقب الوجه الاليف المحبب إلىّ .

وكان ابى قد اخذ يسرد موجزا لسير مرضى .. ولم احاول ان انتبعه ، فقد كنت أكاد احفظه من فرط ما سمعته منه وهو يسرده للأطباء .

وصمت ابى .. وكانت السكرتيرة الحمراء الشعر المنمشة الوجه قد جلست على مقعد منخفض امام مكتب الطبيب .. وامسكت ورقة وقلما واخذت تدون الملحوظات التى يبديها الطبيب .

وترك الطبيب مكتبه واقترب منى ، ولم يصعب علىّ ان اميز بسهولة عرجا فى مشيته .. وتذكرت بائع الصحف الأعرج الذى يقف بمدخل الفندق ، وخيل إلىّ ان الناس كلهم عرج ، وانه ليس علىّ من حرج فى عرجى ، ولم أعرف لم كل هذا القلق علىّ من ابى .

واقترب منى الطبيب وربت ظهرى فى رفق ، واشار إلى اريكة منخفضة فى ركن الغرفة بجوار مكتبه .. وقال وهو يبتسم :

ــ ايمكن ان ترقدى هناك حتى القى عليك نظرة ؟

وكنت قد اعتدت كشف الأطباء ، حتى حفظته عن ظهر قلب .. فأسرعت بفك المشد وخلعت الجورب ، واستلقيت على ظهرى فوق الاريكة .

ولم يطل فحص الطبيب لى ، ولم يفعل اكثر مما تعود ان يفعله بى غيره من الاطباء .

ونظر إلىّ وهو يهز راسه ويرسم ابتسامته الرقيقة على شفتيه قائلا :

ــ حسن .. يمكنك ان تنهضى .

وعاد إلى مكتبه واخذ ينقر بقلم فى يده بضع نقرات على المكتب ، ثم قال لابى فى هدوء :

ــ اعتقد انه من الممكن إجراء العملية .

وهز ابى راسه واجاب مؤكدا :

ــ نحن رهن إشارتك يا دكتور .

بعظم القدم ويصبحان عظمة متصلة واحدة ، وتظل القدم مثبتة فى وضع معين لا يمكن تحريكها منه بعد ان تثبت عظام المفصل ، واعلم ان هذا يمنع القدم من ان تتدلى ولكنه أيضا يمنعها من ان تتحرك فى أى اتجاه ، ولا أظن مشية الإنسان يمكن ان تكون طبيعية إذا لم يستطع ان يحرك مفصل قدمه .

ومد أبى ساقه وقد ثبت قدمه ، وأشار إليها مؤكدا .

— لقد حاولت أن أجرب السير بقدم غير متحركة .. فكانت مشيتى غير طبيعية .

ولم يتمالك الطبيب نفسه من الابتسام .. لم يكن بلا شك قد تخيل أن الأمر وصل بأبى إلى كل هذا المعلومات والتجارب .

وعاد أبى يشير بقلمه إلى الرسم الذى خطه أمام الطبيب وهو يقول فى انهماك تام :

— أما العملية الثانية .. فهى ترزيع وتر حى من عضلات الساق الخلفية فى عضلات القدم لتحل محل العضلة الأمامية المشلولة .. وتقوم مقامها فى تحريك القدم .

ثم خط بقلمه امتدادا لعضلة الساق الخلفية فى الرسم ولفه بعضلة القدم قائلا فى لهجة ملؤها التمنى :

— وهكذا يمكن للوتر المزروع ان يحرك القدم .

ورفع الطبيب حاجبيه الكثيفين فى دهشة ، والابتسامة العريضة ما زالت ترتسم على شفتيه ، وقال مؤكدا :

— لم اتصور قط ان لديك كل هذه المعلومات ، ومع ذلك فانا ما زلت اؤكد لك انى « ضد » العملية الثانية بشدة .

ثم شطب بقلمه على الوتر الذى رسمه أبى .

ولم يستطع أبى ان يخفى معالم الضيق وخيبة الأمل التى ارتسمت على وجهه ، وتمنيت وانا جالسة ان انهض واضمه إلىّ وأؤكد له انى سعيدة باى شىء ، وانى اشعر بما قاله لى هو نفسه .. إن كل شىء يهون عندى ما دام حيا .

واحس الطبيب بآلام ابى وقال له فى رقة :

— تبدو قلقا ؟ !

ولم يجب ابى ، وهز الطبيب رأسه واضاف فى اسف :

— ولكن هذا هو ما اراه .

ونظر إلى الساعة .. وبدا كأن مناقشة ابى قد اخذت من الوقت اكثر مما قدر لزيارتنا .. مما جعلنا نجور على صاحب الموعد التالى .

واحس ابى اننا لابد ان ننصرف ، ولم يجد معنى للإصرار على المناقشة .. بعد ان اصر الطبيب على رأيه .

ونظر الطبيب إلى سكرتيرته ثم إلى ابى ، وقال فى لهجته الهادئة :

— سنحجز لها حجرة فى مستشفى لندن .. على ان تكون هناك بعد ظهر يوم الأربعاء .

ولم يبد ان هناك شيئا يقال بعد ذلك .. ومد الرجل يده لابى مصافحا ، ثم ربت ظهرى فى رقة وهو يبتسم قائلا :

— سأراك يوم الاربعاء .. إلى اللقاء .

وخرجت وابى .. وقد بدا عليه الوجوم والشرود .. وتبعتنا السكرتيرة قائلة :

— يمكنكما ان تنتظرا لحظة حتى احضر لكما ورقة المستشفى .

واتجهنا إلى ركن البهو حيث ينتظرنا الدكتور هاشم .. ولحظ الرجل وجوم ابى ، فاقبل عليه يسأله فى دهشة :

— خير !!

وحاول « ابى » عبثا أن يرسم على وجهه ابتسامة ما .. واجاب الرجل فى قلق :

— يصر الطبيب على عملية .. لا اعتقد انها ذات فائدة .

ثم اطرق واضاف كأنه يحدث نفسه :

— لم اقطع كل هذه المسافة لأجد لها قدمها .

ولم يفهم الدكتور هاشم ما يقصد ابى .

فقال يسأله :

— ماذا حدث ؟

وقص « ابى » عليه باختصار ما حدث بينه وبين الطبيب .. ولم يكد ينتهى من شرحه .. حتى بدت الحيرة على الرجل .. ولكنه ما لبث ان قال لابى فى لهجة حازمة :

— إذا لم تكن مقتنعا به .. استشر غيره .. ليس هناك ما يقيدك به .

وقبل أن يجيب ابى .. اقبلت السكرتيرة تحمل ورقة دخول المستشفى وهى تقول :

— الساعة الرابعة يوم الاربعاء ستكون الحجرة معدة لاستقبالها .

وقبل ان تنصرف الفتاة .. سألها ابى .. والضيق ما زال يملأ معالم وجهه :

— ارجو منك ان تبلغى الدكتور .. انى اريد العملية التى يصر هو على الا يقوم بها .

وبدت الدهشة على الفتاة .. ولم تعرف كيف يمكن أن تبلغ الرجل بأن مريضا يريده ان يقوم بما هو مصر على الا يقوم به .

وهزت رأسها فى تردد وحيرة :

— إن لديه زائرا .. ولا اعرف كيف ابلغه .. اظن من الأفضل ...

وقبل ان تتم قولها .. فتح احد ابواب البهو واطل وجه احمر ممتلىء لشاب ضخم الجسد .. وبدا كأنه قد وضع حدا لحيرة الفتاة ، فقد هتفت قائلة :

— هذا هو دكتور روبرت .. مساعد الدكتور ايفانز .. أظن من الأفضل ان تبلغه ما تريد .

ولم يترك ابى الفرصة فاتجه إلى الرجل .. وفى كلمات واضحة مختصرة افضى إليه بالمشكلة .

وبدت الدهشة والحيرة على وجه الطبيب الشاب .. وقال لابى فى رقة وفهم :

— من الناحية الإنسانية اقدر مشاعرك كأب .. ولكنى لا اعرف

وجهة نظر الدكتور ايفانز فى معارضته للعملية الثانية .. ربما لشكه فى قدرة العضلة المزروعة على تحريك القدم .. فالمسالة كلها متوقفة على مدى الشلل فى عضلات ساقها .

وصمت الرجل يفكر برهة ثم هز راسه قائلا :

ـ على اية حال .. سأنقل وجهة نظرك للدكتور .. وإذا اتصلت بى فى التليفون صباح الغد .. ساخبرك بالنتيجة .

وتركنا عيادة الطبيب ، ولم يفلح حديث الطبيب المساعد فى إراحة ابى .. إذ لم يخطر بباله ان الطبيب الكبير سيتنازل عن رايه .

واشار ابى لإحدى عربات الأجرة ، واستقر كل منا على مقعده ، وقد بدا علينا الشرود ، وكان اول من نطق صاحبنا الذى حملناه همنا .

قال الرجل محاولا ان يخفف عن ابى :

ـ لا تحمل هما .. هنا عشرات الأطباء المهرة ، الذين قد يرون فى المسألة وجهة نظر اخرى .. ليس هناك ما يربطك به .. نستطيع اليوم بعد الظهر ان نعرضها على طبيب آخر .

واجاب ابى فى ضيق :

ـ صور الأشعة والتقارير كلها عنده .

ـ نأخذها منه .

وهز ابى راسه فى حيرة :

ـ إذا كان رايه هكذا وهو فيما سمعت من اكبر الأطباء الأخصائيين .. فما الجدوى فى التنقل من طبيب إلى طبيب ؟ !

واطرق ابى وهو يقول كالمحدث نفسه :

ـ على اية حال لننتظر إلى الغد .

ثم رفع راسه إلىّ وهو يحاول تكلف الابتسام قائلا :

ـ لا داعى الآن نخبر امك بما حدث .. لا اريد ان ادخلها فى تفاصيل لا تفهمها .. ولكنها تسبب لها المزيد من القلق .. إنى افضل ان تعرفى انت كل شىء .. اظنك لا تحتاجين بعد كل ما سمعت إلى مزيد من الشرح .

وهززت راسى علامة الموافقة ، دون ان انبس بكلمة واحدة .

كان الامر يتساوى عندى .. هذه العملية ام تلك .. ما دمت لا اتألم .. المهم عندى الا يتضايق ابى والا تنزعج امى .. ومن اجل ذلك احسست ان ابى احسن صنعا عندما نوى الا يخبر امى بكل تلك التفاصيل التى ازعجته ، ما دامت المسالة كلها بالنسبة لها عملية جراحية .. بكل ما فيها من متاعب ومخاوف .. فليس هناك ما يدعو إلى تحميلها المزيد من الوساوس والأوهام ..

ولقد تمنيت لو استطعت ان اجنب ابى ما يعانيه من ضيق وقلق .. ولم اكن املك سوى ابتسامة شاكرة . ونظرة حنون .

واحس بما اعنيه بابتسامتى ونظرتى فربت يدى برفق ، وقال وقد عاودته بعض ثقته وإيمانه :

— إن شاء الله كل شىء سينتهى إلى خير ، وتعودين سالمة سعيدة .

وعقب الرجل الطيب الجالس بجوارنا قائلا :

— تعودون كلكم قريرى العين مجبورى الخاطر .

وقلت « لابى » وقد احسست، ان سحب الهم قد اخذت تنقشع من حولنا :

— سنمكث فى سويسرا برهة للانزلاق على الجليد .

ورد الدكتور هاشم ضاحكا :

— هكذا مرة واحدة ؟ اول ما تشطح تنطح ؟

ووصلنا إلى الفندق واستقبلتنا « امى » فى قلق ولهفة ، وقال لها « أبى » بابتسامته الواثقة ولهجته المطمئنة وقدرته العجيبة على طى المتاعب فى باطنه :

— كل شىء على ما يرام .. لقد قرر إجراء العملية .. وسنذهب إلى المستشفى يوم الأربعاء .

وكنا فى يوم الجمعة .. وكان علينا ان نقضى خمسة ايام من القلق والانتظار .. وعبرت امى عن إحساسها بقولها وهى تتنهد :

— ظننته سيقوم بها غدا او بعد غد .. لماذا لم يعجل حتى ينهينا .. وقوع البلاء ولا انتظاره .

وأجابتها السيدة « لطيفة » ضاحكة :

— ليس بلاء .. بل شفاء إن شاء الله .. كلها اسبوعان وتقوم بالسلامة .

ثم مدت يدها مودعة وهى تقول :

— موعدنا فى المساء إن شاء الله .. سيمر عليكم ابنى إبراهيم لأخذكم بالعربة .. كتبت لكم عنـــوان البيت ورقم التليفـــون من باب الاحتياط .

وقالت امى فى لهجة شاكرة :

— لا ضرورة لكل هذا التعب .

واكمل ابى قولها :

— إننا نستطيع الوصول بسيارة اجرة .. لا ضرورة لان يتعب إبراهيم .

ورد الدكتور هاشم فى لهجة لائمة :

— لماذا كل هذا التكليف .. إبراهيم سيكون قد انهى دراسته بالكلية ، والعربة جاهزة .. ولن يتعبه أن يحضر لأخذكم .. السلام عليكم .

وانصرف الزوجان الطيبان .. وبقينا وحدنا .. وبدا ابى نوعا من الثرثرة يستر بها الضيق الذى امسك بخناقه حتى حل موعد الغداء فهبطنا لتناوله فى بهو المطعم فى الطابق السفلى .

وتركنا مدعيا انه ذاهب إلى السفارة لزيارة بعض الأصدقاء ولقضاء بعض المهام .

ولكنى كنت واثقة .. انه ذهب فى امر يتعلق بى . فلا اظن أن هناك شيئا كان يمكن ان يشغل باله او يسيطر على تفكيره سواى .. بكل ما بى من متاعب .. ومنغصات ، حتى العملية التى كانت فى حد ذاتها مخاطرة مزعجة .. قد بخل بها القدر .. وابى إلا ان يضع فى سبيلها العقبات .

ومرت بضع ساعات وانا مستلقية فى الفراش . اقرا تارة واشرد تارة .. وامى كعادتها دائما منهمكة فى ترتيب الحجرات والدواليب وتنظيف الحمام والمطبخ .. كاننا فى بيتنا فى دمشق .

ودق جرس الباب .. واقبل علينا ابى .. ومن نظرة خاطفة لوجهه استطعت ان ادرك ان مشكلة الصباح التى اقلقته قد حلت .

لم اعرف كيف .. ولم ارد ان اساله .. فقد كنت اعرف انه قد لخفى المسالة كلها عن امى .. ولكنى كنت واثقة من ان حملا قد رفع عن كتفيه .. ليس كل الحمل بالطبع .. ولكنه الحمل الإضافى الذى وضعه الطبيب هذا الصباح على كاهله .

انحنى على وضمنى إليه فى شوق ولهفة .. كاننا نلتقى بعد فرقة .. ثم جلس واخذ يسامرنى بقوله :

— كيف قضيت الوقت بعد ان تركتك ؟

— قرات .. وفكرت ..

— قرات ماذا .. وفكرت فى ماذا ؟

— تصفحت بعض المجلات .. ثم بدات فى كتاب من الكتب التى اعطاها لى حسان .. كتاب شائق .. استطاع ان يجذبنى إلى قراءته حتى كدت اصل إلى نصفه .

ومددت يدى إليه بالكتاب فتصفحه ثم وضعه جانبا وعاد يسال :

— وفكرت فى ماذا ؟

— فى اشياء كثيرة .

— مثل ؟ !

— ما سافعله فى الايام التالية .. قبل الذهاب إلى المستشفى .

— ووضعت مشروعات ؟

— كثيرة .

— ندرسها سويا ؟ !

— بل ننفذها سويا .. لا وقت للدراسة .

— إذن هاتيها .. قولى .. اولا .

ـــ الا استقر فى الفندق لحظة .. يجب ان اعوض سلفا الأيام التى سارقدها فى المستشفى .. فرصة ان ازور كل شىء قبل ان ارقد .

ثم اضفت مازحة :

ـــ من يدرى . ربما لا تتاح لى فرصة السير بعد هذا .

ونظرت امى إلى فى ضيق وانزعاج قائلة :

ـــ مزاحك سخيف .

ثم تلتها بجملتها التقليدية :

ـــ ابصقى من فمك سبع بصقات .

واسرعت انفذ وصيتها حتى لا يتحقق المزاح .. ثم قلت موجهة القول إلى ابى :

ـــ سنزور متحف الشمع .. ما رايك ؟

ـــ موافق .

ـــ وبرج لندن ؟ !

ـــ موافق .

ـــ وسذهب لمشاهدة واجهات المحلات ولشراء ما يعجبنا منها .. اريد ان اشترى سترة شمواه .. و ...

وضحك ابى وهو ينهض :

ـــ هذه مشروعات من اختصاصات امك .

ـــ تنزل وحدنا فى شوارع لندن ؟ اتحسن الظن بأمى إلى هـــذا الحد ؟ !

وقال « ابى » مسلما :

ـــ سانزل معكما وامرى إلى الله .

وكانت الظلمة قد خيمت قبل أن تبلغ الساعة الخامسة . ولم يكن النهار مميز الملامح بضوئه الرمادى الشاحب .. وشمسه الضائعة وراء ستار كثيف من السحب ، ومصابيح الكهرباء المضيئة ابدا داخل الدور .. والتى يعجز الضوء المتسلل من النافذة عن تبديد اشعتها الموحية بليل متواصل لا تشرق له شمس .

وانتهينا من ارتداء ملابسنا استعدادا للعشاء .. ولم يطل انتظارنا حتى دق الجرس واقبل فتى خجول مؤدب لم نشك فى انه « إبراهيم » .. ودعانا للنزول .

وكنت ألمح نظرات الرقة وابتسامات العطف من كل وجه القاه .. عامل المصعد والبواب وسائقى التاكسى .. كلهم كنت اعتبر فى نظرهم إنسانة مميزة .. تستحق نوعا خاصا من التكريم .. بساقها العرجاء .. ذات التقنص الحديدى .

ولم اضق بتلك المعاملة المميزة .. على الرغم مما توحى به إلىّ من احساس بالنقص او العجز .. فقد كانت بصدقها وبعدها عن التكلف .. اقدر على أن تشعرنى بحب الناس لا ان تشعرنى بعجزى .

وبعد جولة فى الشوارع المبتلة ابدا .. حيث يتلاحق الناس كانهم افراس سباق لا يتلفتون ولا يتمهلون .. توقفت العربة أمام احد تلك البيوت التى لم احس ان منظرها غريب على عينى من فرط ما رايتها فى افلام السينما ، البيوت الرمادية المتجاورة المتشابهة التى تفضى إلى ابوابها بضع درجات خارجية .

اترانى فى حاجة إلى أن اصف لك البيت .. واذكر لك تفاصيل العشاء ليلتذاك .

انت تعرف جيدا .. سلمه الحجرى المرتفع .. وطرابزينه الحديدى العتيق الذى يقودك إلى الطابق الثالث ، وكأنه الخامس أو السادس من فرط ارتفاع الادوار ، يترك انفاسك تتلاحق كأنك تصعد إلى السماء .

تعرف حجرة الجلوس ذات المائدة المستديرة التى رصت عليها صحاف الطعام وجهاز الراديو بجوار الحائط والأريكة المتسعة والنافذة الزجاجية الكبيرة المنخفضة والجدران المغطاة بالورق المزخرف .

وماذا ايضا ؟ !

اذكر اشياء كثيرة بدقة .. كانى اراها فى امسى القريب .. لست ادرى لمه !

لانها لازمت اول لقاء لكَ !!

ولكن انت نفسك لم تكن تعنى — ولا كان يمكنك ان تعنى — وقتذاك شيئا لدى .

ولا اظننى كنت فى مرحلة عمرى .. وفى ازمة مرضى تلك .. أهلا للانفعال بأى إحساس عاطفى يمكن ان يجعل من التفاصيل التافهة ذكريات مضيئة لا تخبو على مر الزمن .

ومع ذلك لا استطيع ان انكرها .. وهى موجودة بتفاصيلها فى الذاكرة .. لمجرد ان المنطق لا يجد لثباتها مبررا ولا سببا .

لم نكن وحدنا الضيوف الذين ضمتهم الحجرة الضيقة الدافئة . كانت هناك الفتاة ذات الوجه الحاد والملامح العصبية التى لم تنطق بكلمة عربية واحدة خلال حديثها إلى « امى » رغم انها اخبرتها برقة أنها لا تعرف الإنجليزية .. وكان هناك ذلك الرجل الذى اجرى عملية فى حنجرته .. والذى كان يتكلم بصوت مبحوح .

وكان هناك .. انت !!

او كما كنا نسميك — مازحين — فيما بيننا « حمدى » ابن اختى .. كما تصر على ان تناديك « خالتك لطيفة » .

وكان واضحا ان « خالتك » فخورة بك ، بطريقة جعلت من المسألة سببا للفكاهة بيننا .. وجعلتنا .. كرد فعل لمبالغتها فى التفاخر بك .. نرى فيك شيئا لا يستحق التفاخر .

وإياك ان تغضب منى إذا قلت لك .. إنى اخذتك فى تلك الليلة ماخذ السخرية .. بحيائك الشديد .. وذوقك المفرط .. واحترامك للناس احتراما لا مبرر له .

لم احبك ليلتذاك .

طبعا كنت سخيفة .. ولا الوم نفسى بقدر ما الوم تلك السن التى تضفى على تفكيرنا اكبر قدر من السخافة . ولكن عندما اتصورك الآن ، اجد نفسى على استعداد تام ، لأن احبك .. فى اى سن .. وعلى اى حال تكون .

الا يكفى هذا تكفيرا لسخافة تفكيرى وسوء تقديرى لك وقتذاك ! ؟

اما عن مشاعرك انت نحوى تلك الليلة .. فلا اظنها كانت اكثر من إحساس بالشفقة اثيره فى نفس كل من اقابله .. عندما ينقل البصر من وجهى إلى ساقى .. ويمصمص بشفتيه ولسان حاله يقول : « خسارة » .. كأننى التحفة المكسورة .

لا تنكر ان هذا كان إحساسك .

وحاشاى ان اكون من السخف والغرور بحيث اطمع فى اكثر من ذلك .

واكلت كثيرا تلك الليلة .. لقد تعمدت « خالتك » ان تغدق على بكل ما حفلت به مائدتها من اطعمة سورية ومصرية .. بما فيها من « الكبيبة » و « المسقعة » .

وانتحى ابى ركنا مع زوج خالتك .. وكنت اعرف ان « الدكتور هاشم » سيتحدث معه فى مشكلة الصباح .. فاصغيت السمع جيدا .. وجعلت ادفع بالملعقة فى فمى .. واذنى تلتقط الحديث الهامس الدائر بين الرجلين .

قال ابى :

— ذهبت بعد الظهر إلى السفارة .. ولقيت بعض الاصدقاء وشرحت لهم المشكلة .. فأصر الجميع على ان اعرضها على طبيب آخر .. واتصل اجستاذ جمال بعيادة الطبيب لكى يستفسر عن وجهة نظره ويستاذنه فى إمكان استشارة بعض الأطباء .. ورد عليه مساعد الطبيب .. وفاجأه بأن الطبيب قد وافق على إجراء العملية الثانية .

وسمعت « الدكتور هاشم » يقاطعه فى فرح :

— حسن جدا .. هذا خبر طيب .

ولكن ابى اطرق وبدا عليه الشرود ثم واصل حديثه قائلا :

— يخامرنى بعض الأوقات إحساس بالخوف .. واسأل نفسى لماذا اصررت على العملية رغم ان الطبيب اصر على انه ضد إجرائها .. الم يكن من الخير ان استمع إلى نصيحته ! ؟

ـ على اية حال .. لا اظن الرجل سيجرى العملية ضد رغبته .. إنه لن يجريها إذا لم يكن مقتنعا بها .

ـ هذا هو ما يطمئننى بعض الشىء .

وربت الرجل ركبة ابى .. وقال وهو يرفع الكأس إلى شفتيه :

ـ توكل على الله .. ابعد عن نفسك الوساوس .

واقبلت « خالتك » فقطعت حديث الاثنين بقولها لأبى :

ـ ماذا ستفعلون غدا ؟

ـ سأحاول ان اخرج سهير لأريها متحف الشمع .

ـ حمدى ابن اختى ليس لديه ما يفعله غدا .. سيمر عليكم بالعربة ويذهب بكم إلى المتحف ويريكم معالم المدينة .

وحاول ابى ان يرفض شاكرا ، ولكن إلحاح « خالتك » كان اقوى من رفضه .

وعدنا إلى البيت .. وقد رسمت لنا « خالتك » اللقاء الثانى .. دون ان تسعى إليه ، ودون ان تكون له وقتذاك اية قيمة .. ولكن ذكرياته .. ما زالت باقية فى نفسى .. جميلة .. جميلة .

وساوس .. ودعوات

كان واجبا عليك لابد ان تؤديه إكراما لخالتك .

لا تحاول ان تكذب وتدعى انك اقبلت عليه برغبة واستمتاع .

إياك ان تنكر انك رغبت فى ان تضيفه إلى الحسنات التى ستحاسب عليها فى السماء إلى جانب الأعمال الطيبة الاخرى التى قمت بها للعجزة من امثالى .

ولن أحاول ابدا ان ادعى اننى استمتعت بصحبتك ، ولكن لن انكر كذلك انى استمتعت بالرحلة السريعة عبر المدينة تحت قطرات المطر المنهمر .

تركنا الفندق معك قبيل الظهر .. الظهر الذى لا وجود له .. واتجهت بنا يمنة فى طريق قريب من عيادة الطبيب .. وكان المطر ينهمر فى رذاذ خفيف غير منقطع ، وضباب شفاف يلف الدور والشجر والناس ويسرى بينها فى خفة كأنه الانفاس .

وطرقت باب متحف الشمع .. وبدات تقوم بدور الدليل .. وحاولت ان تبدو انك تعلم كثيرا .. وابت كبرياؤك ان تترك « أبى » يدفع تذاكر الدخول ، وصعدت بنا إلى الدرج .. واكدت لنا ان الحارس لم يكن اكثر من تمثال .. رغم انه يبدو ككائن حى .. فى كل خلجة من خلجات وجهه .. وكل لفتة من لفتاته .

ومددت يدك لتتحسس ذراعه .. فإذا بالتمثال يلتفت إليك ويبتسم فى رقة قائلا :

ــ فى خدمتك يا سيدى .

واحمر وجهك .. وتلعثمت وتعثرت ، وانت تتبين ان ما كنا نظنه رجلا .. وحاولت أن تقنعنا انه مجرد تمثال ، قد اتضح انه رجل فعلا ..

ولم املك نفسى من الضحك .. وقلت لك فى سخرية :

ــ عجيبة !! إنه يتكلم ويبتسم !

وقلت تتمتم معتذرا :

ــ عجيبة !! كان فى موضعه تمثال مثله تماما .

وعلى بسطة السلم الثانية .. بدا حارس آخر .. واصدقك القول انى لم اعرف إن كان تمثالا ام رجلا .. وكان علينا ان نحذر جميعا ان نمسه .. حتى ضحك الحارس الحقيقى .. وقال مازحا وهو يشير إلى التمثال الذى يقف على البسطة التالية :

ــ اظن ان هذا الزميل هو الذى كنت تقصده اولاه ؟ !

وطفنا بأرجاء المتحف ورأينا العظماء .. كأنهم يقفــون بلحمهــم وشحمهم .. وانتقلنا إلى الجناح التاريخى الذى يمثل افراد الأسرة الإنجليزية المالكة بأزيائهم التقليدية الملونة .

ونزلنا إلى القبو حيث المقاصل والمشانق والمناظر المخيفة .. ويبدو انك قد بالغت فى تصوير الأثر المروع لمناظر التعذيب التى جسدتها التماثيل الشمعية .. فقد طفنا بالقبو دون ان يبدو علينا اى مظهر من مظاهر الرعب الذى كنت تخشى منه لا سيما علىّ انا كفتــاة ضعيفة عاجزة .

ولقد تعمدت الا اجزع وان استخف بما رايت حتى اتحدى لهفتك نحوى وشفقتك بى .. فقد خيل إلىّ وقتذاك انهما شعور متكلف تعمدت به أن تؤدى واجبك نحو ضيوف « خالتك » على اكمل وجه .

وتركنا المتحف بعد ان مررنا ببهو الملاهى وتناولت منــك قطعة الشيكولاتة والتى استمتعت بها رغم انك جعلت بها منى مجرد طفلة .

وانطلقت بنا بعد ذلك تنهب الارض المبتلة وقطرات المطر تقرع سقف العربة وتنحدر على نوافذها ، ولم احاول ان اميز معالم الطرقات بمبانيها العجيبة التى تكاد تتشابه بجدرانها واسقفها الداكنة المائلة ورءوس المداخن تطل منها مرصوصة كأنها عساكر الشطرنج .. والأسوار الحديدية السود تحيط بأسفلها وتلتف حول الدرجات القائمة امام مدخلها .

كانت الكائنات تمر أمام بصرى من خلال نافذة العربة المنداة بالمطر .. وقد شرد بى الذهن فى العملية التى توشك ان تجرى فى ساقى بعد ايام قلائل .. واحسست بالخوف يتسلل إلى نفسى من ذلك المجهول الذى اوشك ان اخوضه ، وتواترات على ذهنى صور مقبضــة .. المستشفيات بممراتها الطويلة وصمتها المخيف ، والممرضات يتسللن من حولى كأنهن الاشباح البيض .. والطبيب بمشرطه .. وحاولت عبثا ان اطرد كل تلك الصور بما لقنه إياى « ابى » من ان العملية « شكة إبرة » ثم صحوة يجد فيها المرء ان كل شىء قد انتهى .

وافقت من هواجسى وصوتك يهتف بنا :

ــ هذا هو الطريق المفضى إلى قصر الملكة .. يسمونه المول .

والتفت حولى لأجد طريقا واسعا .. امتدت على يمينه ابنية ضخمة مترامية الأطراف لمع فى وسطها ماء البحيرة .

وتوقف العربة امام قصر الملكة .. بسوره الحديدى الضخم ولمحت من خلاله الحراس بقبعاتهم السود الكبيرة وستراتهم الحمر يتحركون كأنهم الدمى .

ولم يطل بنا الوقوف حتى انطلقت العربة تخوض الطرق المبتلة المتشابهة تحيط بنا اشجار ضخمة سود الجذوع جافة الفروع كأنها الحطب .. وتوقفت بنا ثانية على شاطىء « التيمز » وقد ارتفعت مياهه حتى لتوشك ان تنسكب على حافة الطريق .. وبدا الخــلاء على طول امتداد القصر لا شىء يحجب مياه النهر والخضرة الممتــدة والأشجار العارية .. والسكون مطبق والصمت موحش ، وبضع عربات وقفت

على حافة النهر وقد انكمش أصحابها يرقبون الأفق القاتم والمياه المنبسطة تقرع ظهرها سياط المطر .

ولم يكن هناك شيء يشرح النفس ، وهززت راسك وانت تدير العربة قائلا :

ــ فى الصيف يصبح المنظر اكثر جمالا .. بورق الشجر ونبت الأزهار .

وانطلقت بالعربة .. مرة اخرى .

وكان قد بقى من معالم المدينة .. مشهد اخير .

وكان الملل قد بدأ يتطرق إلى نفسى .. وهممت بأن اطلب العودة إلى البيت .. عندما توقفت فى ميدان ملىء بالحمام والنافورات والاسود النحاسية السوداء الرابضة حول العمود المرتفع الذى يمتد إلى السماء ليخفى التمثال المستقر على قمته .

وفتحت باب العربة وقلت فى شيء من الحماسة وانت تهبط بنا :

ــ هذا ميدان الطرف الاغر يتوسطه تمثال نلسون .

وحملقت من زجاج العربة كما تعودنا فى كل مشهد تتوقف بنا عنده .. وانتظرنا ان تتخذ مكانك امام عجلة القيادة لتعود بنا إلى الفندق .. ولكن يبدو ان مهمتك لم تكن قد انتهت بعد .. فقد وقفت تشير إلى افواج الحمام الذى يملأ الساحة وقلت :

ــ الحمام يطعم الحب من ايدى الناس .

وبدا واضحا لدىّ ان كسلنا ورغبتنا فى ان نقبع داخل العربة لن تكون شفيعا لديك فى الخروج عن برنامجك المرسوم لزيارتنا والذى يدخل ضمنه ان تهبط إلى الساحة لنطعم الحمام بأيدينا كما يفعل المئات من السعداء الذين يقف الحمام على رءوسهم واكتافهم .

ولم يكن هناك مفر من الاستمتاع بإطعام الحمام .. وهبطنا من العربة لمجرد إرضائك .

وهبطت الدرجات الرخامية العريضة اجر ساقى وقد تعلقت بذراع لبى .. واسرعت انت امامنا تستحث الخطا ، كأنك تريد اللحاق بشيء ،

ثم عدت إلينا وملء كفك الحب ومددت يدك إلىّ وانت تقول باسما :

ــ الا تريدين إطعام الحمام ؟

وتناولت منك الحب وبسطت يدى وانا احس ببعض الخوف . وهبطت حمامة على ذراعى وبدات تلتقطه من كفى ، وفجاة احسست انى سعيدة .. وتمنيت أن اشترى مزيدا من الحب لاطعم مزيدا من الحمام .. ورايتك تضع بعض الحب على راسك فتهبط عليه حمامة لتلتقط الحب من فوقها . وضحكت انا إلى حد القهقهة .. وبدوت انت سعيدا لأنك اضحكتنى .. وادركت لأول مرة انك مخلوق خفيف الدم .. واحسست أنك تقوم بشيء اكثر من مجرد تأدية واجب نحو ضيوف « خالتك » .

وعدنا إلى العربة .. وكانت ثلوج الكلفة بيننا قد اخذت تذوب ، وانطلق لسانك يتحدث فى سهولة عن دراستك وعن حنينك لمصر وعن اختك « نادية الأديبة » التى تخرجت فى كلية الآداب وعن رسائلها إليك .. وعن اشياء كثيرة لا اذكرها ، وإن كنت اذكر اهتمامى بحديثك فى مجموعه .. حتى وصلنا إلى الفندق .

وشكرنا لك فى إخلاص .. وودعناك فى حرارة .

وكان آخر عهدى بك .. فى لندن .

فلا اظنك تريد ان تحتسب زيارتك لى فى المستشفى وانا ما زلت تحت تاثير المخدر وانت تبدو لى فى صورة مزدوجة مهتزة .. لا اكاد اميزك عن « الدكتور هاشم » .

وكانت حصلية مشاعرى نحوك فى هذا اللقاء الخاطف فى غربتنا على بعد مئات الأميال من بلدى ومن بلدك .. انك مخلوق مؤدب خجول يمكن ان يكتشف الإنسان فيك خفة دمك بعد ان يرفع بينكما حجاب الكلفة .

ولست اظنك تتوقع ان يبقى منك فى نفسى ــ لمجرد هذه المشاعر ــ شيء ذو بال .

لقد انطمست معالمك فى ذاكرتى .. ولا اظننى كنت اذكر منها كل

هذه التفاصيل .. لولا انها اصبحت فيما بعد شيئا متعلقا بك انت .. كاضخم معالم حياتى .. وابرز احداثها .

ومرت بنا الأيام القلائل التالية .. قبل ان نذهب إلى المستشفى .. سريعة خاطفة .. فقد كانت على ما تملكنا خلالها من قلق الانتظار وخوف المستقبل المجهول .. يغلب علينا إحساس بقوة ما يجمعنا من روابط وباللهفة على الاستمتاع بصحبتنا معا كأنما نوشك ان نخوض غمار فرقة طويلة .

كنت احس ذلك فى نظرات امى الطويلة التى لا تستطيع ان تخفى الحزن الذى يملأ نفسها .. وفى ضمتها لى بين آونة واخرى .. ضمة ملؤها الحب والحنان .

وكنت اشعر بها فى كل لفتة من لفتات ابى وكل نظرة من نظراته .

كنت استيقظ فى الصباح وكفه يتحسس شعرى فى رفق وشفتاه تتحسسان وجهى وصوته يهتف بى برقة ومرح :

— صباح الخير .. والنور .. والجمال .

واجيبه فى نبرات خافتة متقطعة وانا شبه نائمة :

— صباح الخير .

ثم افتح عينى لاجده قد ارتدى ملابسه فاتساءل فى انزعاج :

— انت خارج ؟

— اجل .

وتزداد لهجتى غضبا وانا اقول :

— إلى اين ؟

— إلى حيث تريدين .

— ستخرج معنا ؟

— طبعا .

ويمنحنى إحساسى بقربه وصحبته فرحة واملا .. وانهض لارتدى ملابسى .. ثم ننطلق فى الطرقات ..

لم يعقنا برد ولا مطر ولا ثلج .

بساق تطرق ارض الطريق .. وذراع معلقة بذراعه ، طفنا بشوارع لندن .. ودخلنا حوانيتها .. واشترى لى كل ما طلبت وما لم اطلب .. واكلنا الوينبى .. طعامهم الشعبى المفضل .. كفتة بالبصل .. وبلعناه بالويسى .. فراولة باللبن فى اكواب من ورق .

وفى نهاية اليوم نعود إلى الفندق .. محملين بالاكياس المليئة بالمشتريات .. لتبدأ « امى » مهمتها فى الرص والترتيب .

وقبل النوم يجلس ابى بجوارى على الفراش .. ويقص على ماذا ينوى ان نفعله عندما نعود إلى دمشق .

وكان يقول لى كلاما معادا ، ومع ذلك كنا نستمتع به ، فقد كنت احس ان ليالينا معا توشك ان تنتهى .

كان اكثر ما يقلقنا ، انى سابيت وحدى فى المستشفى ، فقد كان المبيت به محرما على غير المرضى .

ولست اذكر انى نمت وحدى فى حجرة منذ ولدت .

كنت ابيت دائما فى احضان « امى » .. وعندما خصصت لى حجرة منفصلة .. كانت « حنيفة » تنام على اريكة فى الحجرة ، ولم اكن اغمض عينى قبل ان اطمئن إلى وجودها .

ولم اكن اعرف كيف استطيع ان ابيت وحدى . ولكنى لم احاول ان اناقش الموضوع حتى لا اثير ضيقا لابى وامى .

كنت قد عزمت ان احتمل كل شىء .

ولقد سمعت ابى فى بعض مناقشاته يحاول ان يجد حلا لكى يبيت هو او امى معى .. ولكن الجميع اكدوا له ان المبيت مستحيل ، وقالت له الست « لطيفة » على سبيل بث الطمانينة :

— لا تخشوا عليها ابدا .. إن التمريض فى المستشفى ممتاز .. ويمكنكم ان تخصصوا لها ممرضة فى الليالى الأولى من العملية .

ولكن المسألة لم تكن عدم اطمئنان إلى الخدمة .. ولكنها إحساس مرير بالفرقة والوحشة .

وكنت ادرك ذلك جيدا من إحساسى ، ومن وجوم امى وشرودها كلما اقبل الليل وطاف بذهنها .. انها ستعود فى الغد إلى الفندق وتخلفنى وحدى هناك .

حتى « ابى » بكل ما يملك من صلابة وقدرة على إخفاء مشاعره لم يكن يملك إلا ان يطيل جلسته إلى جوارى كل ليلة ليضمنى إليه ، وكانه يوشك ان يحرم من شىء حبيب إلى نفسه .

وفى يوم الاربعاء رصت « امى » امتعتى فى الحقيبة وحمل ابى الكتب والاسطوانات والجرامفون ، وهبطنا فى المصعد الكبير لنذهب إلى المستشفى .

ولم يكن المستشفى يبعد اكثر من بضع دقائق عن الفندق ونظر « ابى » إلى « امى » ونحن نسير فى الطريق قائلا :

— اظنك تستطيعين بسهولة ان تذهبى وحدك إلى المستشفى ، لقد تعمدت ان ننزل فى هذا الفندق حتى يكون قريبا منه بحيث لا تحتاجين إلى اية مواصلة .

وكنت اعرف مدى ارتباك « امى » فى مجرد الانتقال من رصيف إلى رصيف .. واخذت اضحك وانا اجد « ابى » يصف لها الطريق ويدلها على مكان الانتقال من جانب الطريق إلى جانبه الآخر .

وحاولت « امى » ان تتبع حديثه بقدر ما تملك من ذهن شارد فى الاحداث التى توشك ان تخوضها .

ووصلنا إلى المستشفى وعبرنا مدخلها الفاخر اللطيف .. وسلم « ابى » خطاب الطبيب إلى حارس يقف بحجرة على يسار المدخل ، وما لبث الحارس ان اعطى « ابى » رقم الغرفة .. وقادنا إلى المصعد .

وفتح باب المصعد الرحب واشارت لنا حارسته العجوز الرقيقة بالدخول ؛ وعندما اغلقت الباب واستدارت إلينا تسألنا عن رقم الطابق ، بدا عرجها واضحا ، ووجدتها تناولنى ابتسامة زمالة ملؤها الشفقة .. وقالت وهى تهز راسها مازحة :

— يوم جميل .

وكان شعاع ضئيل باهت من الشمس قد بدا خلسة من خلال الغيوم .

ورددت على ابتسامتها بابتسامة مثلها ، واجابها « ابى » موافقا دون ان يبدو عليه الاقتناع :

— يوم جميل جدا .

ووقفت امام الطابق الخامس .

والقيت على العجوز العرجاء نظرة اخيرة وانا اغادر المصعد .. وعدت اذكر طبيبى الاعرج ، وبائع الصحف الاعرج ، وجميع العرج الذين التقيت بهم ، وسألت نفسى : وماذا علىّ ان اكون انا ايضا عرجاء .. لِم كل هذا القلق والتعب والسفر .. والمخاطر التى توشك ان نخوضها ؟

وسرنا فى الممر الطويل ذى الجدران البيضاء والارض المغطاة بالمشمع الازرق والابواب البنية العريضة ، نقشت عليها ارقام الحجرات . تندفع منها الممرضات ذوات « المرايل » الزرق او يدخلن إليها فى خطوات سريعة .. ومرّ بنا عجوز يتوكأ على عكاز ، ومريض يجر على فراش ، وخادمة سوداء تحمل صينية .. واشار لنا البعض بهزة من راسه ، او ابتسامة من شفتيه ، ومر بنا البعض الآخر كانه لا يحس لنا وجودا .

وخيل إلىّ ان الممر الطويل لا ينتهى .. كل هؤلاء قابلتهم ونحن نسير وراء الممرضة النحيفة ذات الوجه الشبيه بالسمكة ، حتى وصلنا اخيرا إلى الغرفة .

واحسست بالطمانينة النسبية وانا آوى إليها ، الممر الطويل الحافل بالممرضات والمرضى .

ولم البث قليلا حتى ابدلت ملابسى وارتديت القميص واستقررت فى الفراش ، واخذت اقلب النظر فى الحجرة الضيقة المستطيلة يتوسطها

الفراش فيكاد يشطرها شطرين منفصلين ولا يترك سوى ممر ضيق بين طرف الفراش والحائط يكاد يدخل الإنسان فيه بصعوبة .

ولم يكن بالغرفة شيء مميز .. حوض المياه فى ركن من اركانها بحامل للمنشفة بجواره ، وشفونير صغير بمرآة وبضعة ادراج رصت « امى » فيها المناشف والملابس وعلبة بسكويت وشيكولاتة وبلحا مدنوظا ، وبجوار الفراش منضدة عليها دورق مياه وإناء به سكر ، وفى الجانب الآخر منضدة استقر عليها التليفون ، وفى ركن الغرفة المقابل لحوض المياه استقر دولاب صغير للملابس .. ووضع بجواره مقعد مريح من القش .

وخلع « ابى » معطفه وسترته واستقر بجوارى على مقعد صغير وجلست « امى » على المقعد بعد ان نقله لها « ابى » فى الداخل اسفل النافذة .

ومرت برهة صمت شردت خلالها اذهاننا فى العملية التى توشك ان تجرى ، ولم يلبث كل منا ان بلور افكاره فى سؤال يتساءله .. وكان اكثر ما يقلقنى هو ما يمكن ان اتعرض له من اوجاع وآلام ، وكنت اول من عاد من شروده سائلة « ابى » للمرة المائة :

ـــ حقيقة لن اشعر بأكثر من شكة إبرة ؟

ورفع « ابى » راسه قائلا فى تأكيد :

ـــ طبعا يا حبيبتى !

ومد يده يربت يدى فى رفق قائلا :

ـــ اتعرفين شكة الحقنة ؟

ـــ اجل .

ـــ لن تحسى باكثر من هذا .. مجرد حقنة تدفع فى ذراعك .. فتغرقين فى سبات عميق ، وتستيقظين فتجدين كل شيء قد انتهى .

ـــ اهذا هو كل شيء ؟

ـــ طبعا .

ـــ لماذا يخشى الناس العمليات إذن ؟

ـــ من الذى يخشاها ؟

ـــ قبل ان تجرى عملية الزائدة .. كانت امى تخشى عليك منها .

ورد « ابى » ضاحكا وهو ينظر إلى « امى » وقد اخذت ترقبنا بنظراتها الشاردة :

ـــ امك يا حبيبتى تخشى علينا من اى شيء .. حتى من عبور الطريق .

وضحكت واحسست ان غيوم القلق قد بددت من نفسى ولم اشعر ان هناك ما يوجب الوجوم او الشرود .. فنظرت إلى « امى » احاول ان ابدد ما يعتريها من ضيق .. وسألت :

ـــ ما بك يا ماما ؟

وهزت راسها تقول :

ـــ لا شيء يا حبيبتى .

ولكنها لم تلبث ان اخرجت قلقها فى سؤال وجهته إلى ابى :

ـــ اظن انه لا يوجد اية خطورة من البنج ؟

وتساءل « ابى » فى شيء من الضيق :

ـــ خطورة ؟ !

وردت « امى » وما زال الوجوم والقلق يرتسمان فى ملامحها :

ـــ اجل .. إن اكثر ما اخشاه فى العمليات .. البنج ، ولكنى سمعت ان البنج هنا افضل انواع البنج فى العالم .

وكنت اعرف ان « امى » قد علق بذهنها ما سمعته ذات مرة عن موت احد المرضى فى غرفة العمليات بمجرد ان سرى البنج فى عروقه ، وكانت امى دائما تلتقط حوادث الخطر لتقيس عليها كل ما يصادفها من احداث .

ولم يجد « ابى » ما يدعو إلى الخوض فى مناقشة معها ليؤكد لها ان حادثة او حادثتين من البنج لا يمكن ان يقاس عليها . فقد كفته « امى » مشقة الإقناع بتاكيدها ان البنج هنا من افضل انواع البنج فى العالم ، ولم يجد « ابى » اسهل من ان يؤكد لها قولها :

— أجل .. إنهم يستوردون البنج فى امريكا من هنا .. لا يمكن ان تكون به خطورة أبدا .. اطمئنى .

ولم يكن قد بقى غير « أبى » الذى لم ينفس بعد عن وساوسه ، ولم يلبث حتى جذب شهيقا طويلا اخرجه فى تنهيدة اطول وقال فى شبه دعاء :

— إن شاء الله تنجح العملية ، وتقومين بالسلامة ، وتجـرين كالفرس .

وكان هذا هو ما يملأ راس « أبى » ويشغل تفكيره فى كل لحظة ؛ وكنت اعلم ان قلقه قد تضاعف بعد ذلك الصباح الذى التقينا فيه بالطبيب عندما اصر على ان يقوم بالعملية التى راى ابى انها لا ترضى امله فى الشفاء الكامل الذى يمكن ان يحقق امنيته التى عبر عنها ببساطة برغبته فى ان يرانى أجرى كالفرس .

ولم يخفف من قلقه موافقة الطبيب على ان يقوم بالعملية التى يريدها ، بل لقد حمله عبئا جديدا جعله يحس انه المسئول عن اى إخفاق او خطورة قد تتعرض لها نتيجة العملية ، على الرغم من ثقته فى أن الطبيب لم يكن يقبل إجراءها دون ان يقتنع هو نفسه بإمكان إجرائها .

ولم يبق أمام « أبى » إلا أن يدعو الله من قلبه بالا يخـذله وبان يجزى تعبنا وصبرنا خيرا ..

ورفعت « أمى » بصرها إلى السماء ، ورددت قول ابى داعية :

— يا رب أنت كريم .. تجعل تعبنا بفايدة .

وقبل أن تخفض راسها بعد هذا الدعاء ، طرق الباب واقبلت « لطيفة » بضحكتها المرحة و « الدكتور هاشم » بابتسامته الطيبة .

واستطاع الاثنان ان يبددا سحب القلق ، وجو الدعوات الذى كان يخيم علينا ، واستغرقنا فى حديث من النوادر والاقاصيص ، حتى اقبلت علينا الممرضة النحيفة التى ارقدتنى فى الفراش تصحبها ممرضة أخرى وطلبت من الجميع ان يتركوا الغرفة فترة .

واصابنى الخوف ، وسالت عما ينويان عمله بى .. فاخـبرت الممرضة « أبى » انهما سيعدان ساقى للعملية .

وطلبت من « أبى » أن يبقى معى ، فقد احسست بخوف من الممرضتين ووقف « ابى » مترددا ، وسأل الممرضة النحيفة فى ادب :

— هل استطيع ان ابقى ؟

وهزت الممرضة راسها واجابت فى لهجة جافة :

— لا .

— ربما استطعت أن أساعدكما .

واجابت الممرضة فى صرامة :

— هذا عملنا .. ونحن نعرفه جيدا .

وربت « أبى » ذراعى فى رفق ، وقال :

— لاتخشى شيئا يا حبيبتى ، لن يفعلا أكثر من ان يدهنا ساقك بمرهم ويلفانها بشاش .. لن يؤلمك اى شىء .. وسأقف خارج الباب .

وكان علىّ أن استسلم .

ونظرت إلى الممرضتان فى شىء من الدهشة وهما تجدان عينى معلقتين بأبى وهو يغادر الغرفة .

وكنت اشعر بطمأنينة عجيبة عندما أجد « أبى » بجوارى .. كنت اشعر انه يمكن ان يدرأ عنى اى الم .. ويحمينى من اى اذى ، وإذا كنت أنا هوايته المحببة فقد كان هو مبعث الأمان لى .. كان ملاذى الواقى ، وملجئى الأمين .

كنت احب « أمى » واعجب بخالتى .

ولكنى كنت احس لأبى شيئا غير الحب والإعجاب ، كنت أحس بالحاجة إليه والارتباط به .

وانتهت مهمة الممرضتين ، قامت إحداهما بتدليك ساقى وعاونتها الاخرى فى ربطها بالشاش ، ولم تلبثا حتى تركتا الغرفة ، وعاد ابى وأمى والضيفان .

وبدأت أنظر إلى الساعة فى قلق ، وسألت ابى فى ضيق :

— متى ستذهبون ؟

ودون ان ينظر إلى الساعة قال لى باسما :

— ما زال الوقت مبكرا ، لن نتركك حتى تنامى .

وسألته لاستوثق من وعده :

— حقيقة .. لن تتركنى ما دمت يقظى ؟ !

— اجل يا حبيبتى .

— حتى ولو طلبت منك المرضة الرحيل ؟ !

وقالت « لطيفة » تحاول طمأنتى :

— موعد الانصراف هنا الساعة الحادية عشرة .. وستعطيك المرضة قرصا منوما قبل العاشرة ، وستنامين قبل ان نتركك .

واضاف « ابى » مؤكدا :

— وتنامين نوما هادئا ، وسنكون عندك قبل ان تستيقظى ، كانما تد نمنا معك .. ما رايك ؟

وقلت باسمة :

— إذا كان الامر كذلك .. فلن اشكو شيئا .

وعدنا إلى الحديث لتقطعه طرقات جديدة على الباب ، واقبلت ممرضة الليلة : سيدة طيبة الملامح ، رقيقة البسمة ، وحيتنا فى ادب قائلة وهى تنظر إلى الساعة :

— افضل ان تتركوها لتستريح

وبدا الانزعاج على ملامحى ، واجابها « ابى » وهو ينظر إلىّ مطمئنا :

— سنمكث معها حتى تنام ، لن نقوم بأى إزعاج .

وردت المرضة قائلة :

— سأحضر لها قرصا منوما حتى تستريح .

وبعد برهة عادت بالقرص ، وتناولته ، وبدات احس باسترخاء يسرى فى مفاصلى ، وتثاءبت .. ولم اشعر بعد ذلك إلا بابى يقبل علىّ فى الصباح ، ليوقظنى كما تعود ان يفعل .

عمليــة هينــة

لم يستطع اى نوع من انواع الاحاديث ان يبدد القلق الشديد الذى اخذ يشد اعصابنا ونحن نجلس فى انتظار بدء العملية بين لحظة واخرى .

كان جمع من الزوار قد بدءوا يفدون تباعا واستقر بعضهم فى الحجرة معنا ، وجلس البعض الآخر الذين لم يسعهم المكان ، فى غرفة الانتظار .

وكان يسود الغرفة جو مفتعل من الفرح ، وحاولت « لطيفة » بكل ما تملك من قدرة على التهريج ان تجذب ذهن امى نحوها حتى لا تضل فى بيداء مخاوفها واوهامها .

— وبعدين معاكى يا فاطمة .. والبى سليمة بإذن الله .

وتبتسم امى ابتسامة عجز واستسلام وتتنهد قائلة :

— ربنا يسمع منك .

وكان ابى يروح ويغدو بين الحجرة وبين الزوار الجالسين فى حجرة الانتظار ، ولقد وددت لو استقر معى ، فلقد كانت ابتسامته الصافية .. التى تعلو ملامح وجهه الصارمة القوية تمنحنى إحساسا بالطمأنينة .

وبدات اضيق بقلق الانتظار وبجو المرح المفتعل .. وبكلمات التهدئة

وابتسامات التشجيع حتى اقبلت الممرضة تحمل الحقنة .. ونظرت إلى أبى قائلة فى لهجة صارمة :

— تفضلوا إلى الخارج .

وتساءل ابى وهو يغالب انفعاله :

— استنقلونها إلى غرفة العمليات ؟

ونظرت الممرضة إلى ساعة معلقة فى صدرها قائلة :

— ما زال امامنا ساعة .. سنعطيها الآن حقنة مهدئه ولا نريد ان يزعجها احد بالحديث حتى تساعدوها على النوم .

واحسست ان دقات قلبى تتلاحق .. وانا اجد الناس يتسللون من حولى وفى عيونهم نظرات اسى تطل من وراء الابتسامات الباهتة التى تعلو شفاههم .. واجد الحجرة قد خلت إلا من الممرضة ذات الوجه الاحمر والعينين الزرقاوين والوجه شبيه بالسمكة .

وامسكت ذراعى ودفعت فيه بإبرة الحقنة .. ثم سحبتها بعد لحظة ودلكتها بقطنة فى يدها ، ثم رسمت على شفتيها ابتسامة مطمئنة .. وربتت كتفى بخفة وقالت وهى تغادر الغرفة :

— استرخى .. وحاولى ان تنامى .

ولم تكد تغادر الحجرة حتى اقبل ابى يسترق الخطا ومن ورائه امى تطل براسها وقد بدا على وجهها الجزع .

ولم اتمالك نفسى من الابتسام .. وانعكست ابتسامتى على وجه ابى .. وانفرجت اساريره وقال وهو يمسك يدى فى رفق :

— كيف الحال ؟

— كما انا .

— الم تشعرى بالخمول بعد ؟ !

وهززت راسى بالنفى .. وقلت لامى وانا ارى الحزن يتجسد فى معالم وجهها :

— ماذا بك ؟

وهزت راسها وهى تهمس فى شرود :

— لا شىء .

وتملكنى إحساس بالعطف عليهـا وهى ترزح تحت عبء أوهامها ومخاوفها فقلت لها متضاحكة :

— انا بخير .

— دائما يا حبيبتى .

— لماذا لا تضحكين إذا ؟ !

ورسمت على شفتيها ابتسامة اقرب ما تكون إلى آهة الحزن او صرخة الالم .

ولم احاول ان اثقل عليها بمزيد من الحديث لا سيما وقد بدات احس بأطرافى تسترخى وبالخمول يدب فى انحاء جسدى وتركت جفنى ينسدلان على عينى وسمعت صوت ابى يهمس بأمى :

— تعالى .. دعيها تنام .

وفتحت عينى وانا اسمع وقع اقدامهما يتسللان خارج الغرفة وقلت لهما :

— لا .. لا .. انا غير نائمة .

واستبقيتهما فى الغرفة فقد كنت اكره ان اترك وحيدة .

ومع ذلك فقد غفوت .. لاستيقظ على صوت حركة فى الغرفة .. ولاجد الممرضة — التى عرفت فيما بعد ان اسمها : اسل — وقد صحبتها ممرضة اخرى ورجل بمريلة بيضاء وبجوارهم « امى » .

واحسست بأن حلقى قد جف ، وتلهفت إلى جرعة ماء ابل بها ريقى فقلت « لابى » :

— اشرب .

وفهمت « اسل » ما اريد وهى ترى لسانى الجاف يتحرك بين شفتى .. وهزت راسها قائلة فى حزم :

— ممنوع .

ثم اشارت إلى الممرضة والرجل قائلة :

— هيا .
وكان واضحا انهم سيذهبون بى إلى غرفة العمليات .

ولم يكن هناك شك ان « ابى » قد بذل جهدا خارقا .. ليبدو هادئا متمالك النفس .. ولكنى كنت اعرف جيدا ما وراء ابتسامته التى يعلقها على شفتيه كلما نظر إلىّ .. فقد كان الجزع يطل من نظراته الشاردة .

ولم ابصر وجه « أمى » بين الوجوه المحيطة بى .. وادركت انها لم تقو على منظر دفعى مسجاة إلى غرفة العمليات .. ولم اشك فى انهم اخذوها بعيدا .. بدموعها وجزعها حتى لا تؤثر علىّ بمنظرها المنهار .

واحسست وأنا ابصر وجه « أبى » بنظراته الشاردة وأتصور وجه « أمى » بنظراتها الجزعة وعينيها المغرورقتين بإشـــفاق شديد عليهما وتمنيت لو استطعت ان اخفف عنهما وابعث فى نفسيهما الطمانينة علىّ .

ومحا جزعى عليهما جزعى على نفسى ، وتبدد من نفسى الخوف والرهبة .. واستطعت ان ابتسم لأبى وهو يطل علىّ بنظراته الشاردة القلقة يرقب الممرضة وهى تحكم الغطاء حول جسدى ثم تدفع الفراش بمساعدة زميلتها خارج الغرفة .

وسار « أبى » يتبع الفراش الذى تدفعه ايدى الممرضات من طرقة إلى طرقة حتى توقف امام باب المصعد فاقترب وشد على يدى وهو يبتسم محاولا تشجيعى .

ولم اشك لحظة فى انه أشد حاجة إلى التشجيع فابتسمت له وقلت مرددة ما سبق ان قاله لى .

— لست اخاف من شىء .. سأغمض عينى وانام .. فلا أصحو إلا وقد انتهيت من كل شىء .. بلا تعب ولا الم .

وانفرج باب المصعد واطل وجه العجوز الطيبة العرجاء .. وقبل ان تدفع بى الايدى إلى داخله رفعت عينى إلى ابى واسترسلت اقول فى لهجة حانية :

— أمرى أنا هين .. انتم الذين تستحقون العطف . انتم الذين ستقاسون طوال مدة العملية .

واحسست ان جهد « ابى » قد بلغ اقصاه .. وهو يغالب انفعاله ويكبت دمعه ويضع على شفتيه الابتسامة الباهتة التى تحس منها صوت الصراخ .

وحال بيننا باب المصعد .. وظل شعاع البصر متصلا بيننا خلال زجاج الباب وقضبانه الحديدية حتى أخذ المصعد فى الارتفاع وابصرت راس « ابى » يختفى بالتدريج وعيناه معلقتان بعينى حتى اختفى عن عينى .

وفجاة احسست بالوحشة وانا لا اجد امامى سوى سقف المصعد وقضبانه الحديدية والعيون الزرق التى ترمقنى فى صمت .

وتملكنى الخوف ، وتمنيت لو استطعت الصياح « بأبى » ان خذنى من بينهم لأعود إلى دمشق .. إلى حجرتى الهادئة المطلة على الياسمينة .. وعلى قباب المدينة .

ولكن الصيحة لم تنطلق من شفتى الجافتين .. كنت أشعر بالعجز : وكان علىّ ان استسلم للمصير الذى التيت إليه .

واخذت الأمور تتوالى بسرعة .. وقف المصعد .. وفتحت العجوز الباب وودعتنى بابتسامة شفقة .

وتناولت الأيدى الفراش الذى رقدت عليه تدفعه خلال الممرات البيضاء .

وانعرج بى الفراش هنا وانعرج هناك .. ثم توقف امام باب عريض فتح على مصراعيه ليضم فراشى ثم يغلق ليجعلنى سجينة الغرفة ذات الاشباح البيض والوجوه المقنعة .

واخذت احملق فى مصباح زجاجى مستدير بدت صورتى صغيرة فى قرصه والاشباح البيض تتحرك من حولى .

واقترب منى احدهم وتناول ذراعى وبإبرة فى يده دفع بالمخدر إلى عروقى .

وكان هذا آخر ما رأيت فى الحجرة الفسيحة ذات المصباح المطل على راسى والاشباح البيض الهامسة من خلف وجوهها المقنعة .

لم اشعر بهمسة .. او بشكة .. او حتى بهواجس حلم .

فقدان تام بالوعى والإحساس .. كانما اقتطعت تلك الفترة من حياتى وقذف بها إلى العدم .

فى لحظة اغمضت عينى على الشبح الابيض يدفع بالإبرة فى ذراعى .

وفى اللحظة التالية فتحتها ، لأجد وجه « ابى » يطل علىّ فى لهفة شديدة .. وقد شد بصره بجفنى المرتجفتين .

ابصرته بوضوح .. جلى القسمات .. بلا اهتزاز ولا ازدواج .. ومرت بى لحظة شك لم اعرف خلالها ما إذا كنت لم ابارح الغرفة بعد .. ام عدت إليها بعد الانتهاء من كل شيء .

ولم اجد بدا من السؤال .. واحسست بصوتى يخرج واضحا سليم النبرات .. وانا اسائل ابى فى شك :

ـــ انتهوا .

وابصرت ابتسامة صافية تعلو شفتيه وهو يسمع اول كلماتى .. واجاب وهو يتنهد فى راحة :

ـــ اجل يا حبيبتى .. انتهى كل شيء .. والحمد لله .

ـــ حقيقة ؟ !

ـــ طبعا .. اجريت العملية .. ووضع الجبس .

ولم احاول ان اصغى إلى بقية كلامه .. فقد تحول انتباهى إلى ذلك الشيء الذى يثقل ساقى .. والذى رفع الغطاء فوقه على شيء يشبه القفص الحديدى .. حتى لا يثقل الغطاء على الساق .

ولم يعد لدى شك بعد ذلك فى أن العملية قد انتهت .. واحسست بفرحة شديدة تغمرنى وانا احس ان العبء الذى كان يثقلنا جميعا قد زال .. وان الخوف الذى كان يكمن فى صدورنا والذى كان يحاول كل منا ستره عن الآخر قد وصل إلى نهايته .

ورفعت عينى إلى « ابى » وتمنيت لو استطعت ان اضمه بذراعى واقبله .

ومرة اخرى حاولت ان اتكلم .. ولم اجد مشقة فى ان اهتف به :

ـــ أريد ان اقبلك .

وانحنى علىّ فى حذر وامسك براسى فى رفق شديد كانما يمسك بكرة هشة يخشى عليها من التفتت ومس شفتى بحنان عجيب .

واحطته بذراعى بقدر ما منحنى المخدر الذى افقت منه من قوة وقلت له باسمة .

ـــ لم اكن اصدق ان الامر سينتهى بمثل هذه السهولة .

ـــ الم اقل لك .. لن تشعرى بأى شيء .

ـــ اكل العمليات سهلة هكذا ؟ .. لماذا لا يعملون لكل المرضى عمليات ؟

وضحك ابى واجابنى :

ـــ العمليات تجرى عندما يكون هناك ما يدعو لها .

والتفت حولى ابحث عن « امى » فقد احسست بلهفة عليها .. وسالت « ابى » :

ـــ اين ماما ؟

ـــ ستاتى حالا .. لقد كانت تجلس فى غرفة الانتظار ، وذهبت لاطمئنها عندما هبطت إلىّ الممرضة تنبئنى ان العملية قد انتهت وانهم سيبدءون فى وضع ساقك فى الجبس .. وانك ستهبطين بعد نصف ساعة .. لقد بدت وانا انقل إليها النبأ كالغريق الذى القيت إليه بطوق النجاة .

ولم يكد ينتهى من كلماته حتى ابصرت الباب ينفتح بخفة وابصرت وجه « امى » يطل وقد احمرت عيناها وسمعتها تهمس « بأبى » :

ـــ هل افاقت ؟

وقبل ان يجيب « ابى » رددت عليها احاول ان اطمئنها بكل ما املك من قدرة على الحديث :

— أنا بخير يا ماما .. العملية انتهت .

ولم تستطع « امى » ان تغالب دمعها المنهمر ، واقبلت علىّ تقول فى لهفة :

— الحمد لله يا حبيبتى .. ربنا يتمم بخير .

ومضت بضع دقاق استطعت خلالها ان امنح « ابى » و « امى » إحساسا بالطمانينة والراحة .. قبل ان يعاودنى الضعف وتخبو ومضة الانتعاش التى استطاعت ان تطفو بى إلى السطح وتنتشلنى من اعماق الضياع الذى كنت اغرق فيه .

اغمضت عينى برهة مستسلمة لتلك الأثقال التى تشدنى إلى أسفل .. تطبق جفنى وتثقل لسانى وتجعل المرئيات مطموسة المعالم والاصوات مبهمة النبرات كرجع الصدى .

وفقدت رغبتى فى الحديث والإنصات .. وفقدت قدرتى على رسم شبح الابتسامة التى حاولت بها ان اطمئن « ابى » و « امى » .

وسمعت أبى يهمس بها وهو يشير لها لتجلس على المقعد الكبير .

— من الخير ان نتركها لتستريح .

وسمعت صوت قدميه يتجه إلى الخارج ، وقبل ان يفتح الباب احسست بوخز فى قدمى وخرجت من شفتى آهــة لم استطع ان اكتمها .

وقفزت أمى واقفة فى مقعدها واستدار ابى عائدا إلى متسائلا فى جزع :

— ماذا بك يا حبيبتى ؟

واشرت إلى قدمى التى حجبها الغطاء الابيض المشدود فوق القفص الحديدى المثبت أسفل الفراش .

وبدت الحيرة على وجه ابى ... وانتظر لحظة لعل الالم الذى جعلنى اتاوه يكون قد زال .

ولكنى احسست به يعاودنى بطريقة اشد كانه وخز الإبر فى مفصل القدم .

وعدت اتاوه من الالم ، وانعــكست آلامى على وجهى ابى وامى اللذين بدت فيهما الحيرة والعجز .

وضغط « أبى » جرس المرضة واضاء الجرس ضوءا اخضر ظل مضيئا حتى اقبلت الممرضة تتساءل عما نريد .

واشار لها أبى إلى ساقى قائلا :

— إنها تحس بوخز فى قدمها .

وازاحت الممرضة الغطاء .. ولاول مرة ابصرت ساقى مشدودة فى الجبس .. ورفعت راسى لألقى نظرة على قدمى حيث موضع الوخز .. فأبصرت بقعة حمراء تنتشر فى بياض الجبس .. وتنضح فوق ملاءة الفراش .

واصابتى رجفة من منظر الدم الاحمر ينشع فوق الجبس . ولم اكن اخاف شيئا كمنظر الدماء .. كنت اجزع من ان يصيب اصبعى جرح .. ولم يكن يوجعنى الالم كما تفزعنى قطرات السائل القانى .

واحسست بغثيان وانا اتصور ساقى مهشمة وراء قالب الجبس كانها ساق ذبيحة حطمها ساطور الجزار ، ولمحت ابى يغالب انفعاله ، وامى تشيح براسها جزعا .

واشار ابى إلى نشع الدم المتسلل من الجبس إلى الملاءة وسال الممرضة فى لهفة :

— اسيستمر هذا النزف ؟

وهزت الممرضة راسها واجابت فى ثقة وهى تتحسس البقعة الحمراء :

— لقد توقف .

ثم امتدت يدها لتتحسس الملاءة .. واضافت مطمئنة :

— إنها لم تزد منذ خروجها من غرفة العمليات .

ونظر ابى إلى موضع الدم فوق الملاءة كانه آثار ذبيحة .. وقال راجيا :

— الا يمكن تغيير الملاءة ؟

وهزت الممرضة راسها مؤكدة :

— طبعا سنغيرها .. لقد كنا ننتظر حتى تفيق من الخدر .

وكان خوفى من آثار الدماء قد انسانى الألم الذى احسست به فى قدمى .. ولكنى لم ألبث ان احسست به ثانية .. وزاد احساسى به ما بدأت أتوهمه من جراح تنبىء عنها الدماء الناشعة فى الجبس .. فعدت اصيح فى صبر نافد :

— قدمى .

وبدت صيحتى كأنها مطرقة على راس ابى .. ونظر إلى الممرضة مستغيثا .

وقالت الممرضة فى هدوء :

— نحن لا نريدها ان تتألم .. سأعطيها قرصـــا مهـــدئا يضيع آلامها .

وعادت بعد لحظة وفى يدها القرص .. وببضع قطرات من الماء فى الكوب استطعت ان ابتلعه .

واستمر الوخز فترة ، وانا اتأوه فى ضيق .. و « ابى » قد جلس بجوارى ممسكا بيدى .. يحاول ان يخفف عنى بكلمات حائرة عاجزة ، و « امى » مبتلة المآقى ، حارة الدعـــوات .. حتى بدأت اهــدأ ، واسترخى ، واروح فى شبه غفوة .

ويبدو انك قد حضرت فى هذه الفترة ، او فى فترة غيبوبة مماثلة .. فقد ذكر اسمك امامى .. فلم يعن لدىّ شيئا ، ولا ذكرنى بشىء ، ورأيت شبحك يقف برهة ، ثم ينصرف كسائر الأشباح التى كانت تتوافد على غرفتى ، متسللة الخطا هامسة الحديث .

وانتبت بعد ذلك لأشعر بجفاف شديد فى حلقى ، ولهفة شديدة على جرعة ماء .

وكانت « امى » قد غادرت الغرفة و « ابى » قد استرخى فى مقعده يرقبنى بنظراته الشاردة .

ونظرت إليه وهتفت راجية :

— اشرب .

ونهض « ابى » وامسك بكفى فى رفق ، وقال يحاول تهدئتى :

— الا يمكن ان تنتظرى برهة ؟ !

وعدت اقول فى إلحاح وانا احس بضيق شديد :

— انا عطشى .. اريد الماء .

وعاد « ابى » ينظر إلىّ فى عجز .. ثم مد يده إلى جرس الممرضة .. وبعد لحظة كانت تفتح الباب متسائلة :

— نعم ؟

وقال ابى ناقلا إليها رغبتى الملحة :

— تريد ماء .

وهزت الممرضة راسها فى حزم قائلة :

— ممنوع .

ونظرت إليها فى غيظ ، وبدا لى كأنها تعاندنى .. هذه المرأة الزرقاء العينين ، السمكية الوجه ، لا شك تحاول مضايقتى .. هى لا تقدر مدى عطشى .. وجرعة ماء لن تكلفها شيئا .

وعدت اصيح بكل ما املك من قوة :

— اريد ان اشرب .

وهزت راسها فى هدوء وعادت تقول :

— ممنوع .

ونظرت لابى استنجد به قائلة :

— اعطنى انت بعض الماء .

واجاب ابى برقة :

— يا حبيبتى .. إنها تعرف مصلحتك .

— إنها لا تعرف شيئا .

وعاد ابى يسأل :

— الا يمكن ان نعطيها بعض الماء ؟

ـ سيعرضها للقيء .

ولم آبه للمرضة وعدت اقول لابى متوسلة :

ـ أنا عطشى .. اريد قطرة ماء .

نظر « ابى » للممرضة يقول : ؟

ـ قطرة واحدة .

ولاح على شفتى الممرضة الصارمة شبح ابتسامة ، وقالت وهى تهدد باصبعها :

ـ قطرة واحدة تبللين بها شفتيك !!

ومدت يدها إلى دورق المياه تسب قطرات منه فى كوب ثم ناولته إلىّ ..

وفى لهفة اتيت على القطرات التى تلمع فى قاع الكوب فزادتنى عطشا .

وعدت اقول لابى متوسلة وانا اناوله الكوب :

ـ املأ لى الكوب .

وفهمت الممرضة ما اريد فتناولت الكوب فى صرامة قائلة :

ـ هذا يكفى .

واستمررت اعانى شر ما فى العملية من متاعب وآلام .

لمتكن العملية فى حد ذاتها موجعة .. كانت كما قال ابى « شكة إبرة » اغرق بعضها فى سبات عميق اصحو منه لاجد كل شىء قد انتهى .

كل شىء بالنسبة لهم قد انتهى .

بالنسبة للأطباء .. شقوا جلدى ، وقطعوا اوتارى ، وحطموا عظامى ، وفعلوا اقصى ما يستطيع ان يفعل جزار بذبيحته ، ثم عادوا ليلموا كل هذا ويشدوه بخيط ويصبوه بدمائه النازفة فى قالب الجبس الاملس الابيض .

و .. ينتهى كل شىء .

اما بالنسبة لى فقد صحوت .. لاستقبل كل أنواع المتاعب .. العطش ، والالم ، والوخز ،والضيق ، والقلق ، والرقدة العاجزة المملة .

واقسى من كل هذا ، وحشة الليل ووحدته ، فقد كان كل شىء يمكن احتماله وانا اجد ابى وامى بجوارى .

ولكن عندما اقبلت ممرضة الليل تحوم حول الفراش ، تملأ دورق المياه وتضع مصباح الليل فى موضعه ثم تنظر إلى « ابى » و « امى » و « هاشم » و « لطيفة » وجمهرة من رجال السفارة ، ومن الأصدقاء الذين استمروا يحيطون بنا ، حتى أوشك موعد الزيارة على الانتهاء .

عندما اقبلت الممـرضة تحوم حولنا وتنظـر إلى السـاعة ، بدا يداخلنى إحساس بالجزع وانا احس بانها توشك ان تطردهم لتبقينى وحيدة فى هذا الليل الموحش .

وقبل ان تصل إلى باب الغرفة ، قالت فى ادب :

ـ الافضل ان تتركوها لتنام .

وقلت فى حدة :

ـ لا اريد ان انام .

وابتسمت الممرضة وقالت :

ـ الساعة الآن العاشرة .

وتساءل ابى :

ـ ومتى تنتهى الزيارات ؟ !

ـ حتى الحادية عشرة .

ونظر إلىّ « ابى » وقال وهو يحاول ان يطمئننى :

ـ ما زالت امامنا ساعة .

وردت الممرضة وهى تترك الغرفة :

ـ كنت افضل ان تتركوها لتستريح .

وقلت لها فى غيظ :

ـــ انا مستريحة هكذا .

وكنت اعتقد ان المرضات قد اتفقن على مضايقتى .. وكانت محاولة إخراج « ابى » و « امى » مبكرا ضمن خطة المضايقة .

ونظرت إلى ابى استنجد به .. فاجابنى بنظرة تأكيد بانه لن يترك الحجرة إلا « على اسنة الرماح » .

وكنت فى حالة من الإعياء ، تجعلنى لا اكاد افيق حتى اغفو ، ولا اكاد اغفو حتى اصحو فى ضيق وخوف .

ومضت برهة .. رحت خلالها فى غفوة ، وصحوت على صوت « الدكتور هاشم » يقول :

ـــ اظن من الخير ان تنهضا لتستريحا .. إنكما لم تذوقا طعم الراحة طوال اليوم ، حتى الطعام لم تتناولاه .

ونظر ابى إلى ساعته واجاب :

ـــ سأنتظر حتى آخر موعد للزيارة .

واضاف وهو ينظر إليهما فى قلق :

ـــ ولكن لا داعى لانتظاركما حتى هذه الساعة .

واجابت السيدة « لطيفة » فى إصرار :

ـــ ليس وراءنا شيء .. سننتظر معكما .

واحس « ابى »انه سيرغمهما على البقاء حتى هذه الساعة المتاخرة ، ونظر إلى « امى » وقد بدا عليها اقصى مظاهر الإرهاق ثم قال :

ـــ افضل ان تذهبا بفاطمة لتستريح ، وسانتظر انا وحدى .

واحسست انا ان وجود الضيفين سيكون مبعث قلق لابى ، وخشيت ان ينصرف معهما حتى يجنبهما طول الانتظار ، ولم البث ان شعرت بالراحة وانا استمع لقوله .

ونهض الضيفان بامى .

وبقى ابى معى فى الغرفة .

واحسست بالطمانينة ، وتمنيت ان تاتى المرضة وان يظل « ابى » جالسا معى طول الليل .

وحاولت جهدى الا اغفو ، حتى لا افاجا بالوحدة ، ولكنى غفوت . لاصحو فجاة على صوت المرضة تقول لابى :

ـــ الساعة الحادية عشرة .

واحسست بخوف شديد .

خوف من كل شيء .. من المرضة الجامدة الوجه .. ومن منظر الغرفة .

من الدولاب الاسود القائم فى ركنها وعليه قبعة « ابى » ومن ستائر النافذة ، ومن تلك الظلمات المكدسه وراءها لا تفلح فى صدها الاشعة الباهتة المتسللة من نافذة هنا ونافذة هناك .

كل شيء كان يخيفنى .

ويذهب « ابى » ويتركنى وحيدة مع كل هذه الاشباح !

ونظر « ابى » بدوره إلى المرضة راجيا .

واجابت المرضة وهى تهز راسها فى اسف :

ـــ لا يمكن البقاء بعد الحادية عشرة .

وغادرت الحجرة .. واقبل « ابى » علىّ يمسك يدى برفق قائلا :

ـــ لن اتركك حتى تنامى ، واعود إليك قبل ان تستيقظى .. فقط حاولى ان تنامى .

واغمضت عينى .. واخذ « ابى » يرتدى المعطف والقبعة .

وكان على ان استسلم لرحيله .. وان احتمل كل ما يحيط بى من مخاوف .. حتى لا اعرضه مرة ثانية لرجاء المرضة ، ووقف « ابى » يرمقنى برهة ، ثم بدا يتسلل على اطراف قدميه ، وقد خيل إليه انى استغرقت فى النوم ، وكرهت ان اتركه ينصرف دون ان اودعه فهمست به :

ــ مع السلامة .

وتوقف ابى وقد بدت عليه الحيرة والعجز وانحنى علىّ يقبلنى وهو يهتفَ بى :

ــ تصبحين على خير يا حبيبتى .. لا تخافى شيئا .. إذا اردت المرضة دقى الجرس لها .

وعدت اقول له :

ــ مع السلامة .

وانصرف ابى .

وفتحت عينى ، وعدت احملق فى الأشـــباح التى تتراءى لى من النافذة ، منخلال جدران المبانى القائمة ومن جوف المداخن المطلة من فوق الأسقف .

وعدت ببصرى من النافذة ، لإحس بالوخز فى قدمى .. ثم ابصر بعين الوهم بقعة من الدم تغرق الجبس فتنتشر وتغمر الفراش وتصبغ الحجرة كلها بلون احمر قان .

وكدت أصرخ ، ولكنى ابتلعت صرختى .

وفتح باب الحجرة .. وخلتها المرضة .. ولكنى وجدت ابى يقف امامى ثانية ، وعلى راسه القبعة والمعطف يتهدل على كتفيه .. وقد بدا كأنه تمثال للعجز ، والخوف ، والياس .

وهتف بى :

ــ الم تنامى بعد ؟ !

وقلت محاولة الابتسام :

ــ سأنام .. لا تخش علىّ .

وفتح الباب مرة أخرى ودخلت المرضة .. ولأول مرة ارى اساريرها تلين وقسماتها ترق ، وهتفت بأبى :

ــ تبدوقلقا ؟ !

واجابها « ابى » ببسـاطة :

ــ اجل .

ثم اضـاف وهو يطلق زفرة قصيرة :

ــ إنها المرة الاولى ان نتركها وحدها .

ورفعت المرضـة اصبعها واشـارت إلى عينيها واجابت فى لهجة ذائبة :

ــ ستتركها فى عينى .. لا تقلق عليها ابدا .

ونظرت إلىّ فى رقة ثم عادت تنظر إلى ابى واسترسـلت قائلة :

ــ المفروض ان امر عليها بحكم عملى كل ربع سـاعة .. ولكنى اعدك انى سأمر عليها كل خمس دقائق .

ثم وجهت الحديث إلىّ قائلة وهى تشير إلى الجرس :

ــ عندما تضـعين اصبعك على هذا الجرس .. سـأكون امامك .. لا تملى من وضـع اصبعك على الجرس ابدا .. لقد طلبنى مريض ليلة امس مائة مرة .. كل مرة طلب شيئا وعندما لم يجد ما يطلبه .. قال لى اجلسى لاتحدث معك فإياك أن تخجلى من طلبى .

واحسـست ببعض الطمأنينة .. وكان علىّ ان اريح ابى وابدو امامه شـجاعة ، فابتسمت قائلة له :

ــ اذهب انت .. وسـأنتظرك فى الصباح .. إياك ان تتاخر .

وقالت المرضـة ضـاحكة :

ــ موعد الحضـور فى التاسـعة .. ولكنك تستطيع ان تتسلل من باب الخدم قبل ذلك .. هناك دائماً استثناءات .

ونظرت إلى سـاعتها قائلة :

ــ موعد الانصراف هنا الحادية عشرة .. والسـاعة الآن الثانية عشرة .. لو رآك احد هنا ...

ثم رفعت اصبعها واجرته على عنقها علامة الذبح .. واضـافت تقول :

— لفقدت عنقى .. ارجو انتسرع بالخروج ، وامشى على اطراف قدميك .

ونظر « ابى » إلىّ نظرة وداع اخيرة .. ملؤها الإشفاق والأسى .. ثم اخذ يتسلل خارج الغرفة كما نصحته المرضة على اطراف اصابعه .

وحاولت ان اغمض عينى عن الاشباح الموحشة التى احاطت بى ، واخذت تطل براسها من زجاج النافذة .. من الضباب المعتم تارة .. ومن الاضواء المرتجفة تارة اخرى .

أيام ثقيلة

اصبح الصبح بعد ليل طويل ، تقاذفتنى فيه وحشة الارق ووطاة الاحلام . وكان وجه المرضة يطل علىّ بين آونة واخرى متسائلة عما إذا كنت اريد شيئا .

وكدت اهتف بها فى كل مرة :

— اريد النهار .. احضرى لى الصباح من وراء هذه الستر الثقيلة المسدلة من الليل الحالك . اطلبى لى ابى وامى ، فقد ضقت ذرعا بهذه الاشباح المتواثبة من حولى .

وكان نعاس الصباح قد غلبنى عندما اقبل ابى يسترق الخطا متسللا إلى الحجرة .

وفتحت عينى لأجده يضع القبعة فوق الدولاب ويعلق المعطف داخله ، وهو ينفض عنه بقايا ثلج ابيض حط على كتفيه .

وتملكنى إحساس بالارتياح والطمانينة .. وانا ارقب ابى يتحرك على اطراف اصابعه خشية إيقاظى .. واطبقت جفنى فى استرخاء بعد ان رايته يضع كيس الفاكهة ولفافات البسكويت والشيكولاتة والغيارات فى درج الدولاب المجاور للفراش ، ويرص الكتب والصحف على حرف النافذة .

واحسست به يقف بجوارى يرقبنى ويتامل وجهى .

وفتحت عينى وابتسمت .

ومد يده يتحسس راسى فى رفق ، وهمس فى حنان :

— صباح الخير .

وزادت الابتسامة اتساعا على شفتى ، وتساءلت بكل ما املك من قدرة على الحديث :

— كيف دخلت ؟

وضحك « ابى » واشار باصبعه تجاه الباب وقال بصوت خفيض :

— دخلت من الباب الخلفى .. رايت الخدم يدخلون فرفعت ياقة المعطف وجذبت القبعة على عينى .. وحثثت الخطا .. وعبرت الباب فى ثقة .. وكأنى أعبره كل صباح منذ عشرات السنين .

وضحكت وانا اتصور منظره .. وكأنه يقوم بمغامرة كبرى .. وسألته فرحة :

— ولم يضبطك احد ؟

واجاب ابى فى سعادة :

— ابدا .. مررت كأى خادم من خدم المستشفى .. لم يسألنى احد ماذا اريد .. فقد كنت اسير بمنتهى الثقة .

وعدت اسأله فى ارتياح :

— تستطيع إذن ان تأتى كل يوم فى مثل هذا الوقت ؟

— طبعا .

— وتبقى معى ؟

واكمل « ابى » ضاحكا :

— حتى تطردنى ممرضة الليلة .

— وددت لو ضربتها ليلة امس وهى تصر على ذهابك .

— إنها سيدة طيبة .. لقد سمحت لى بالبقاء حتى الثانية عشرة . وهى التى دلتنى على باب الخدم .. وإلا لما استطعت الدخول قبل التاسعة .

— ومتى ستأتى ماما ؟

— بعد ان تغسل بعض الثياب .. وتعد بعض الطعام .

— انا لا احب طعامهم هنا .

— ستصنع لك هى ما تحبينه .

ولم استطع المضى فى الحديث رغم رغبتى فيه .. فقد كنت احس بعجز عن القيام بأى جهد .

واغمضت عينى قليلا .. وما لبثت ان فتحتهما على صوت الباب يفتح ورايت ممرضة الصباح تقبل ومعها زميلة لها .

واوجست منهما خيفة وهما تطلبان من ابى ان يغادر الغرفة .. وسألته بإصرار ان يبقى بجوارى .

ولم يفلح إصرارى ولا رجاء ابى فى إقناعهما بضرورة بقائه بجوارى . .فاضطر إلى الخروج .. وبدات المرضتان عملية التنظيف الصباحى .. وترتيب الفراش .

ومررت بعملية تعذيب كان اقسى ما فيها هو خوفى من ان تمس ساقى الموضوعة فى الجبس .. وصرخت بضع صرخات وهما تحركان ساقى لإبدال الملاءة .

واخيرا انتهت العملية الشاقة ، واقبل ابى بادى القلق والضيق .. ولكن شبح ابتسامة بدا على شفتى بدد كل ما به من قلق وخوف .

ولست اذكر تفاصيل الساعات والأيام التى مرت بى بعد ذلك ..

فقد كانت ساعات استسلام وانتظار .. استسلام لرقدة عاجزة .. وانتظار لأمل مرتجى .

وتميزت أيامى الأولى بعد العملية برغبة فى النعاس .. كنت استسلم له خلال ساعات النهار الطويلة .. وقد جلس « ابى » على مقعد ممسكا بكتاب او صحيفة .. وجلست « امى » أمامه ممسكة بالإبرتين الطويلتين .. يقطعان ساعات نعاسى الطويلة فى استسلام وترقب .

وبين آونة واخرى يفتح الباب زائرة او زائر .. يحمل علبة الشيكولاتة التقليدية .. او باقة الزهور .. ويجلس برهة يتبادل مع

ابوى حديث مجاملة ثم لا يلبث ان ينصرف وتعود السكينة لتسود الحجرة الصغيرة .. واستسلم انا للنعاس ويستسلم ابى للكتاب .. وامى للإبرتين بين اصابعها .

ويظل السكون سائدا حتى تقبل « لطيفة » لا إقبال زائر .. بهدية تقليدية .. بل قريب بحاجة مطلوبة .. عمود ملئت صحافه بالأطعمة الشهية .. او صينية حلوى متقنة الصنع .. ومعها زوجها الطيب الكريم .. ليجلسا معنا الساعات الطويلة .. ويبددا بحديثهما صمتا يغلف ضجيج القلق والخوف الذى يصطخب فى صدر ابوى .. دون ان يجرؤ على ان يجد لنفسه منفذا بآهة او تنهيدة .

ومرت ايام النعاس الاولى .. وتلتها شهية مفتوحة للطعام .. ثم عزوف عنه .. ونوبات متعاقبة من القلق والسكينة .. والضيق والرضا .. والملل والصبر .

وايا كان هذا الذى حملته لنا الايام .. وايا كانت مشقته .. واعباؤه .. فقد كان خير ما فى هذه الأيام .. انها تمر .. وكل يوم يمر .. كان يحمل عنا عبئه .. ويخفف عنا بعض ما تبقى من اعباء الايام الباقية .

وفى الأيام الثقيلة .. لايجد المرء فى دنياه من عزاء .. سوى انها تطوى .. وانه ليس عليه سوى ان يقبع صابرا .. ليرى الزمن يقذف بها .. بأحمالها .. ومرارتها .. من وراء ظهره يوما بعد يوم .. وكأنه يقرضها بناب دءوب ملح .. قطعة قطعة .. وملء نفسه الثقة بانها ذات يوم .. ستصل إلى نهاية .

وبدانا نعتاد حياتنا الجديدة .. واضحت بكل ما فيها من ضيق وقلق .. وإرهاق .. وملل .. نوعا من المقر المزعج الذى روضنا انفسنا على الاستقرار فيه .

ولم يكن احتماله .. على ما فيه من قلق .. بالأمر الشاق .. لانه قبل كل شىء .. كان امرا لا مفر منه .. ولان ايامه كما قلت ـــ كانت تمر ـــ ولان مرها .. وهذا اهم ما فى الامر .. كان يقرب إلينا املا كبيرا .. وهو شفاء ساقى وقيامى سليمة قوية اقف واعدو .. واندفع

فى الحياة كسائر الناس .. بلا حاجة إلى هذا المشد الحديدى الذى يثقل روحى قبل ان يثقل جسدى .

وبدا ابى يحسب مر الأيام فى مفكرته .. بدا يقذف بها يوما وراء يوم .. فى صفحة وراء صفحة .. ليرى اليوم المنشود تقربه الصفحات المتعاقبة .. ويطمئن على اقترابه كل يوم بأن يزيح عن المفكرة صفحة جديدة انزاح يومها عن كتفه .

واستطاع ان يستوثق من موعد رفع الجبس عن ساقى بالتحديد من الطبيب عندما مر بنا ذات عصر وساله مستفسرا :

ـــ يبدو ان المدة المحددة للجبس قد قاربت الانتهاء ؟

وصمت الطبيب برهة وبدا عليه التفكير ثم اجاب :

ـــ يوم الاربعاء القادم سنقوم بإزلة الجبس .. وعمل اشعة .. وارجو ان يكون كل شىء على ما يرام .

وكنا فى يوم خميس .. ويعـــنى ذلك اننى ســـاخلص من قفصى الجبسى بعد ستة ايام .. وإنى .. إذا شفيت .. ساعود .. حرة .. طليقة ككل هذه الكائنات الحرة الطليقة .. القادرة على السير .

إذا شفيت .. سيحدث كل هذا ..

وإذا لم اشف ؟

واحسست بشىء يجثم على صدرى ويكتم أنفاسى .

إذا لم اشف ؟

ولكن لماذا لا اشفى ؟ !!

لقد قاموا .. بكل ما يمكن ان يؤدى إلى شفائى . لقد قطعوا ومزقوا .. ووصلوا .. كل ما يمكن ان يقطع ويمزق ويوصل .. استسلمت لكل ما طلبوه .

فلماذا لا اشفى ؟

ومع ذلك .. هب انى لم اشف ؟

ساعود إلى ما كنت عليه .

ساترك هذا الفراش .. واغادر هذه المستشفى .. وانجو من هذا

الجو القاتم المقبض .. والليل الموحش البغـيض .. والبيـوت ذات الجدران السوداء .. والمداخن المطلة من اسقفها كاصابع الجن .

ساعود إلى بلدى .. إلى دمشق الحلوة .. وشوارعها المؤنسة الطيبة تدفئها البيوت الحانية عليها فى قلب الشتاء .

ساعود إلى حجرتى .. بازهار الياسمين تتسـلق النـافذة .. والنسمة تسرى فى فروع الشجرة الكبـيرة .. فتهمس بوشـوشة حبيبة .. ساعود إلى الغوطة .. مرتعى المزدهر ، ومراحى الأخضر .. ذى الفروع الدائنة والأوراق المشرقة والأزهار الباسمة .

ساعود إلى شعاع الشمس .. الذى لم يغن عنه ضوء مصباح ولانار موقد .. الشعاع الذ ى يطل من السماء ليشرق فى الحنايا .. شعاع فى دفئه حنان .. وفى نوره .. انس وبهجة وابتسام ..

ساعود بساقى فى المشد الحديدى لافعل كل ما يفعله الناس .. بلاخوف ولا خجل .

وابى .. وامى ؟

وخيبتهما المريرة .. واملهما الضائع .. فى ابنة حلوة سليمة .. تسير فى رشاقة كغيرها من البنات الجميلات .

ومرة اخرى عاد ذلك الشى يطبق على صدرى .

ومن جديد عدت اتساءل :

ـــ ولكن لماذا لا اشفى ؟

وبين مرارة الياس .. وفرحة الامل .. قضيت ايام الباقية .. حتى حل اليوم المرتقب .

واستيقظت فرحة مستبشرة .. وزاد إحساسى بالأمل شعاع شمس رقيق وجد طريقه بين اكوام السحب السود المكدسة على وجه السماء متسلل من النافذة منسابا على الارض متسلقا الفراش ، ومددت يدى اقبض عليه وانا احس له وحشة ولهفة .

واقبلت « اسل » الممرضة النحيفة ذات السنتين البارزتين والوجه الشبيه بالسمكة ، وقد انبسطت اساريرها ورفعت عن وجهها ذلك القناع الصارم الذى تعودت ان تلقانا به فى ايامنا الاولى فى المستشفى .

ومدت يدها تعبث بشعرى مازحة وهى تقول مشيرة إلى شعاع الشمس :

ـــ يوم جميل .

واجبتها ضاحكة :

ـــ اول مرة ارى الشمس فى بلادكم المعتمة .

ـــ اترونها كثيرا فى بلادكم ؟

ـــ ليس اكثر لدينا من اشعة الشمس .

ـــ لماذا لا تصدرونها إلينا ؟

ـــ سنفعل عندما اعود .. ساضع علبة فارغة فى الشمس بضعة ساعات ثم اغلقها وارسلها إليك .

وضحكت « اسل » وهى تجر الملاءة من فوقى لكى تساوى الفراش وتغير الاغطية .. وقالت :

ـــ وساعيدها إليك ملأى بالجليد .

ـــ شمس بجليد ؟

ـــ اى لا شىء بلا شىء .

ـــ دعينا نتبادل شيئا اثمن .. سارسل لك حلوى من بلادنا .

ـــ لا اظنك ستذكريننى بعد أن تعودى .

ـــ لماذا تقولين هذا ؟ ..

ـــ كثيرون غيرك وعدونى بان يكتبوا إلىّ عندما يعودون إلى بلادهم .. ثم ذهبوا .. ولم يذكرونى .

ـــ لست منهم .. ساظل اذكرك دائما .

ـــ رغم سوء الذكرى والمتاعب التى لقيتها عندنا ؟ ..

ـــ اجل .. فقد كنتم جميعا طيبين معى .

— انت ايضا كنت مريضة مطيعة .
وبدات عملية الاغتسال بالمياه الدافئة فى الطبق الابيض الكبير والمنشفة الصغيرة تمر بها الممرضة على جسدى بعد ان اغرقتها بالصابون .. ولم يكن هناك ما يضايقنى كتلك العملية الصباحية ، ولكنى لم اشعر بضيق فى هذا اليوم .. كان كل شىء يبدو لى خطوة إلى باب الحرية .. ودفعة فى سبيل الانطلاق .

ونظرت إلى ساقى الممدودة فى قالب الجبس .. وطرقت عليهــا باصابعى فى شىء من التحدى .. وقلت ضاحكة :

— سأتخلص منه اليوم .

واخذت « اسل » تجفف جسدى وهى تجيب متسائلة :

— نتوقين إلى الانطلاق ؟

— جدا .. بمجرد ان يرفعوا هذا الجبس عن ساقى .. سأعود هاربة إلى بلادى .

— ولكن لابد ان تبقى فترة للتمرين على السير .

— ولماذا لا اتمرن هناك ؟

— حتى يطمئن الطبيب على سلامة ساقك .

وبدو ان الضيق قد علا محياى فقد تساءلت « اسل » ضاحكة :

— إلى هذاالحد مشتاقة إلى العودة ؟

— وددت لو افتح عينى واغمضهما فاجد نفسى فى دمشق .

واقبل « ابى » . دفع الباب ببطء واطل براسه .. ليسمع كلماتى هذه ، وعلت وجهه ابتسامة مشرقة وهو يقول :

— هانت يا سهير .. لم يبق إلا بضع ساعات وينتهى كل شىء .

والتفت إلى الممرضة يحييها بقوله :

— صباح الخير .

ثم تساءل قائلا :

— متى تنوون فك الجبس ؟

— عندما يحضر الطبيب .

— ومتى يحضر ؟ .. اعنى متى تعوّد ان يحضر ؟

— لست اظنه يغيب عن الثانية عشرة .

وانتهت « اسل » من عمليتها الصباحية وتركت الغرفة .

واقبلت « امى » وقد بدت الفرحة على وجهها .. واخذت تخرج من الحقيبة الثياب التى احضرتها لى استعدادا للخروج ، ومدت يدها بحذاء جديد وتساءلت فى جذل :

— ايعجبك هذا ؟

وامسكت بالحذاء وتحسسته فى رفق .. وانطلقت من صدرى — بغير إرادة — تنهيدة راحة .

آن لى اخيرا .. ان اتباهى بحذائى !

آن لى ان امد قدمى فى غير خجل .. لاستعرض بهما حذاء جميلا .

لم يعد لى من خشية من القدم المدلاة فى عجز .. ولا من المشد الحديدى الذى يوهمنى بأنى بت فى حركتى اقرب إلى الدمى .

واحسست انى اوشك ان استمتع باشياء جميلة كنت ابعدها عن مدار تفكيرى ورغباتى ومجال احلامى وامنياتى حتى لا اضيق بالحرمان منها .

وحلا لى ان احلم بغير خوف .. وان اتمنى بلا وجل ، ورايت نفسى فى اجمل ثيابى والحذاء الانيق فى قدمى ، وانا اخطــر فى رشاقة ، او اتواثب فى خفة .

ومددت يدى بالحذاء اعيده إلى امى قائلة :

— ضعيه قريبا منى حتى استطيع رؤيته عندما اريد .

ووضعـت « امى » الحذاء واخذت تتشاغل بترتيب ادراج الدولاب ، واخذ ابى يروح ويجىء كانه يعمل شيئا .

وكان بنا إحساس المقبل على نهاية الشوط .. تعلو نفوسنا فرحة بالخلاص منه .. ونشعر بالقلق من نتيجته .

فرحة مشدودة بالشك الذى يحاول كل منا ان يكبته فى اعماقه حتى لا يضايق به الآخرين .

وانتصف النهار دون ان يقبل علينا الطبيب او مساعده لنبدأ عملية إزالة الجبس ، واخذ قلق الانتظار يطمس معالم الفرحة ، وتركزت احاسيسنا فى الإنصــات إلى وقع كل قدم تقترب من باب الغرفة ، وإلى استراق النظر إلى عقرب الساعة نرقب مدى سيره .

وطرق الباب وانتفضت فى رقدتى ، واسرع « ابى » يفتحه ، واصابتنا الخيبة ونحن نرى الخادمة السوداء تحمل صينية الطعام وتقبل باسمة لتضعها على الكومودينو الصغير بجوار الفراش .

وازال « ابى » الغطاء عن صحاف الطعام .. وهــو يبدى به إعجابا مصطنعا محاولا ان يفتح شهيتى له قائلا :

— الله .. لحمة لذيذة .. وسلطة تفتح النفس .

ونظرت إلى ابى فى غيظ . فقد كان يعلم فى قرارة نفسه ان طعام الإنجليز هو آخر شىء يفتح النفس إلى الطعام .

والقيت نظرة على القرنبيط المسلوق وعلى طبق الشوربة الشبيهة بالماء العكر ، واحسست ان قلق الانتظار قد اضاع ما يمكن ان يكون قد تبقى فى نفسى من شهية للأكل .

وقلت لابى وانا اشيح بوجهى عن صينية الطعام :

— إذا كان يعجبك .. كله انت .

واتخذ ابى مظهر الجد واجاب فى صرامة مصطنعة :

— يجب ان تأكليه يا سهير .. انت تعلمين انك فى حاجة إلى الطعام .. لانه علاج لك .

واجبته فى إصرار :

— ليست لى رغبة فى الأكل .

وتدخلت امى قائلة :

— دعها الآن .. لقد اوصيت « لطيفة » ان تحضر لها فرخة بدرية ، ومكرونة .. و ..

واحسست ان مشكلة الطعام قد حلت .. وعدت انصت من جديد إلى وقع الاقدام المقتربة من الباب .

وطال انتظارنا يومذاك .

حضرت « لطيفة » ومعها الطعام ، وشــكرتها « امى » عن كل ما تكلفته من مشقة من اجلنا .

وحضر الدكتور هاشم .

واكلت .. وحضر زوار وانصرفوا ، ودخلت ممرضة تسأل هل اتى الطبيب ثم انصرفت .

ومر الوقت بطيئا مملا ، وقتل قلق الانتظار كل ما دفعه الأمل فى نفوسنا من فرحة وابتهاج ، ولميعد احدمنا يحاول ان يخفى ما بنفسه من ضيق .

ساد الصمت .. إلا من ثرثرة مفتعلة تحاول « لطيفة » ان تذهب بها الضيق عن نفوسنا .

واسلمنى الضيق لغفوة صحوت منها على صــخب فى الحجرة وابصرت رجلا يرتدى مريلة بيضاء يمسك بمقص كبير .. وتملكنى إحساس بالرهبة ونظرت إلى ابى فى وجل .

ورسم ابى ابتسامته المطمئنة على شفتيه وقال لى :

— سينزع الجبس الآن .

— الن يؤلمنى ؟

— ابدا .. سيقص الجبس دون ان يمسك .

وخرج كل من بالحجرة عدا ابى .. وملأنى بالطمأنينة وجوده إلى جوارى .. فقد كنت احس ان احدا لا يجسر على إيلامى وهو موجود .. وانه يستطيع ان يدفع عنى كل اذى .

وتحسس « ابى » شعرى فى حنان ، وامسك كفى مطمئنا وبدأ الرجل عمله فى قص الجبس .

وسار المقص يشق الجبس فى الجانب الخارجى من اعلى وكانه يقضمه قطعة قطعة .. وظل سيره سهلا .. لا اكاد اشعر إلا بحافته الباردة تلامس جلدى .. حتى وصل إلى المفصل وشعرت به يضغط على عظمة العرقوب فصرخت الما .. ونظر إلىّ الرجل ذو الوجه معتذرا ،

واخذ يتمهل فى ضغطه على المقص .. حتى وصل إلى حافة الجبس السفلى .. ثم انتقل إلى الجانب الداخلى .. واخذ فى القص حتى شق القالب نصفين نصف سفلى تستقر فيه الساق ، وآخر علوى اشبه بالغطاء .

ورفع النصف العلوى ، وبدا يزيل القطن والشاش من فوق ساقى ، وبدت الساق رفيعة .. خشنة الجلد .. وتملكنى من منظرها إحساس بالخوف .. وما لبث الرجل ان اعاد الغطاء الجبسى فوقها قائلا لابى :

ــ ستبقى هكذا حتى يقوموا بإجراء الاشعة عليها .

ولم يكد ينتهى من قوله حتى اقبلت الممرضة ومعها احد الحراس لجر الفراش إلى حجرة الاشعة .

وعاد الخوف يساورنى مما يوشك ان يحل بى .. ونظرت إلى « ابَى » استنجد به وقلت له فى توسل :

ــ لا تتركنى .

وشد على يدى مؤكدا :

ــ ابدا يا حبيبتى .

ــ ستذهب معى إلى حجرة الاشعة ؟

ــ طبعا .

ــ وإذا لم يسمحوا لك بالدخول ؟

ــ سادخل رغم انوفهم .

وعاودنى الإحساس بالطمانينة وانا ارى « ابى » يسير بجوار فراشى المتحرك الذى تدفعه الايدى فى الممرات الطويلة البيضاء حتى يقف امام المصعد الكبير .

ورايت حارسة المصعد العرجاء العجوز ، ذات الوجه البشوش والنظرات الحانية تقول فى عطف وهى تدوس على زر المصعد :

ــ سيصبح كل شىء على ما يرام .. لى ابن اخت كان مثلك فى يوم من الايام .. واليوم اصبح بطلا فى الكرة ..

ولم اكن فى حالة تسمح لى بان افكر فى ابن اختها الذى اصبح

بطلا فى الكرة .. وان اجعل منه املا يدفع الطمانينة إلى نفسى .

كنت اطبق على كف « ابى » .. مصدر الأمن الوحيد الذى كان لى وقتذاك ، وكنت اهمس له برجائى المعاد .. « لن تتركنى » .

ولم يمل هو من تكرارها بل كان يشد على يدى ويؤكد بنظراته « ابدا يا حبيبتى » .

وتوقف المصعد .. ودفع الفراش إلى الحجرة المقابلة لبابه .. وابصرت القوائم الطويلة والأجهزة المدلاة من السقف والمنزلقة على الأرض .. وعدت اشد على يد « ابى » لادفع عن نفسى اشباح المخاوف التى تتكاثر علىّ .

وحملتنى الممرضات إلى فراش الاشعة بعد ان اخرجت ساقى من قالب الجبس المفتوح وطلبت منى إحداهن ان اكتم نفسى ، وسمعت ازيز الآلة بضع ثوان .. ثم سئلت ان اطلق النفس طبيعيا .

ومرة ثانية ..وثالثة .. وانا اقلب البصر بين سقف الحجرة ، ووجه ابى ، ووجوه الممرضات الصارمة .

وبدا لى « ابى » كانه يسير على حافة هاوية .. لم يستطع بكل ما يملك من قدرة على كتمان المشاعر ، والسيطرة على الاعصاب .. ان يغلق فمه الفاغر ، او ينشر على شفتيه الابتسامة المطمئنة ، او يستعيد نظراته الشاردة بعيدة .. بعيدا ..

وانتهت عملية التصوير ، وقالت إحدى الممرضات وهى تختفى داخل احد الابواب :

ــ لحظة واحدة حتى نتاكد من سلامة الصور .

ومرت برهة انتظار اخرى .. قبل ان تظهر الممرضة على عتبة الباب قائلة :

ــ حسن .. كل شىء على ما يرام .

واقترب منها « ابى » متسائلا فى لهفة :

ــ هل استطيع ان اعرف نتيجة الاشعة ؟

وهزت راسها قائلة :

— سيعرفها الطبيب .

والتفت « ابى » حوله وهو لا يجد للطبيب اثرا .. تساءل :

— الم يحضر الطبيب بعد ؟ !

وعادت الممرضة تهز راسها قائلة :

— لا اعرف .

— وماذا سنفعل الآن ؟ !

— ستعودون بها إلى الفراش ، وتبقى ساقها موضوعة بين شطرى الجبس حتى يحضر الطبيب .

وبدا الضيق على وجه « ابى » وهو لا يجد احدا يطمئنه على نتيجة طال ترقبها .. ويجد الجبس قد فك ، واشعة قد اجريت دون ان يبدو للطبيب اثر .

وعدنا إلى الحجرة ، واقبلت « امى » فى لهفة لتسأل :

— ماذا فعلتم ؟

واجابها « ابى » محاولا الا يجعل ضيقه يبدو على وجهه :

— اجرينا الاشعة .. وستبقى فى الجبس حتى يحضر الطبيب .

ومضت ساعة ثقيلة اخرى لم يحاول احد منا ان يصطنع الطمأنينة او الهدوء .. ولا استطاع اقدرنا على الثرثرة ان يبدد ذلك الصمت الذى خيم علينا فى انتظار الطبيب .

واخيرا اقبل الرجل .. بقامته الطويلة .. وحاجبيه الكثيفين .. وحيا الجمع الواجم بابتسامة مرحة .. وخرج الزوار عدا ابى وامى .. وربت الرجل يدى ثم رفع الغطاء الجبسى عن ساقى .. واخذ فى فحصها برفق .. وتحسس العرقوب والكعب والاصابع .. والانظار كلها معلقة بعينيه علها تستشف من نظراته ما ينبىء عن شىء .

ولكن نظراته ظلت جامدة .. ومعالم وجهه لا تحمل تعبيرا ما .. لا بسمة امل ، ولا ضيق يأس .

واعتدل فى وقفته واطلق تنهيدة قصيرة .

ثم عاد يفحص الساق مرة اخرى .

واعاد الغطاء الجبسى فوق الساق ، ونظر إلىّ نظرته الفارغة التى لا تحمل معنى .. وزم شفتيه ، ولم يقل شيئا .

ولم يحاول احد ان يقطع صمته حتى نظر هو إلى « ابى » قائلا :

— اريد ان احدثك فى الخارج .

ونظرت إلى « ابى » .. فاحسست من عينيه كان قواه تخور .. كان يدا قوية تجذبه إلى اسفل .. وبدا لى وهو يرفع كتفيه ويبرز صدره للأمام كأنه يقاوم ذلك الشىء الذى يهبط به إلى اسفل .

وازدردت « امى » ريقها بصعوبة كأن يدا تطبق عنقها .

وغادر الطبيب الحجرة وهو يربت كفى برفق .. وتبعه « ابى » ووراء الاثنين سارت « امى كالمأخوذة .

واحسست ان الثلاثة قد استقروا وراء باب الغرفة .. ولم اعرف ماذا قال الطبيب « لابى » .. ولكنى لم اتوقع قط شيئا سارا .. واخذت انتظر عودتهما بإحساس متبلد .. لا امل .. ولا ياس .. مجرد انتظار مستسلم .. مذعن .. لكل ما ياتى به القدر .

مجـرد دعوة

مضت برهة قبل ان ينهى الطبيب حديثه مع أبى خارج الغرفة .. ولم استطع بالطبع ان اعرف تفاصيل ما دار بينهما .. ولكن من الطريقة التى خرج بها الطبيب وسؤاله أبى أن يتبعه .. ومن ملامح « أبى » عندما انهى الحــديث واقبل علىّ .. لم أتوقع كثــيرا من الانبـــاء الطيبة .

ولم يكن وجهه متجهما .. ولا عابسا .. بل كان يضحك فى جذل واغتباط .

ولم تخدعنى ضحكته بالطبع .. ولم يصعب علىّ ان ادرك انه يستر بها أشياء لا تمت إلى الضحك بصلة .

وادهشنى انى لم ابصر امى تدخل وراءه فسألته قائلة :

ــ اين ماما ؟

وبدا عليه الارتباك وهو يجيب :

ــ اظنها فى الخارج مع لطيفة .

واقترب منى وهو لا يزال يشد الابتسامة العريضة على شفتيه ، وانحنى يتحسس شعرى ويربت خدى برفق وبدأ يلقى بأول دفعة من انبائه التى يسترها بابتسامته قائلا :

ــ يبدو اننا سنمكث مدة أخرى .

ورغم كل ما كنت أحس به من شعور بالاستسلام .. رغم انه لم

يكن هناك إيحاء بأنباء طيبة .. إلا اننى احسست بثقل يطبق على صدرى وانا اجد املى فى الهروب من سجنى الموحش والعودة إلى الوطن يتبدد .

وهمست متسائلة وانا احاول ان ابتلع الدموع التى توشك ان تحبس الكلمات فى فمى :

ــ نمكث مدة اخرى ؟ .. لماذا ؟

ــ الطبيب يرى انك فى حاجة إلى البقاء بعض الوقت للرعاية تحت مراقبته .

ولم اكن قد حاولت ان أختبر قدرتى على تحريك قدمى فقد كنت أخشى ان تسبب لى التجربة اى نوع من الآلام . ودفعنى قول « أبى » إلى ان اجرب حركتها داخل شطرى الجبس المطبقتين عليها .

ولم اشعر وانا احاول التجربة ان جديدا قد طرأ على ساقى قبل العملية .. كانت كما هى .

احسست بالشىء الذى يطبق على صدرى يزداد ثقلا ، وبالدموع التى احاول ابتلاعها .. تندفع لتملأ عينى وتخنق صوتى وانا اقول متسائلة فى خوف :

ــ سامكث مدة اخرى ؟ !

وأطرق ابى وهو ما زال يبذل كل ما يملك من جهد حتى لا يدع الابتسـامة تفلت من فوق شفتيه :

ــ اجل .. ستمر بسرعة كما مرت المدة الأولى .

ونظرت إلى صندوق الجبس المشطور الذى وضـــعت فيه ساقى وعدت اسأل :

ــ اسيرفعون الجبس ؟

وبدا التردد على وجه ابى .. وابصرت الابتسـامة التى جاهد منذ ان دخل الغرفة فى شدها إلى شفتيه تفر هاربة ورأيته يزدرد ريقه وخرجت من صـــدره زفرة حارة حملها الكثير مما كان يصطخب فى

صدره .. ونظر إلىّ فى عطف شديد وقال بلهجة حاول جهده ان يحملها كل ما تبقى فيه من ثقة وإيمان :

ــ الحقيقة اننا سنحتاج إلى عملية اخرى .

لم يستطع ابى ان يخفى عنى الحقيقة .. كان يثق بى دائما .

كان يثق بشجاعتى .. بقدرتى على الفهم .. ومواجهة الواقع .. والتسليم به .. والصبر عليه .

ولم اكن اجهل مدى ما يرزح تحته من عبء الهزيمة والخذلان ، ولا استطاع مظهره الصابر المتجلد ان يخدعنى ، عما يستره من آلام الصدمة وانهيار اليأس .

وكان خليقا بى .. وقد منحنى الثقة وواجهنى بصراحة وشجاعة .. ان اكون اهلا لثقته .. وان الم حطام نفسى واواجهه بنفس الشجاعة والصبر .

ويشهد الله .. انى ــ من اجله ــ قد حاولت .

ولكن دموعى كانت اسبق من قدرتى على اى تظاهر بالصبر وادعاء للشجاعة .

انهمرت العبرات من عينى فى صمت ثم استبدت بى فشدت عضلات وجهى وحلقى وصدرى فى نشيج عنيف عاصف .. تركنى اهتز اهتزاز الوتر تحت ضربة يد فظة قاسية .

ومن خلال غشاوة الدمع المعلق فى مقلتى .. ابصرت « ابى » .. وكأن شيئا يشده إلى اسفل .. فيحنى هامته المنصوبة .. ويهدل كتفيه العريضتين .. ويطأطىء رأسه المرفوع .

وبدا لى فى دمعى الرجراج كأنه عودذابل او جدار منهار .

ودون ان ينبس بكلمة .. او يمد إلىّ يدا .. تهاوى على المقعد بجوار الفراش .. واسند مرفق يسراه على حافة الحشية ومال برأسه على كفه .. فأخفى بها عينيه .

واحسست بأنه يبكى .

ولا شىء يمزقنى كبكائه .

ومددت يدى اتحسس بها كفه التى اخفى بها عينيه .

ومضت فترة صمت قبل ان يزدرد الدمع الذى سقط فى حلقه ويرفع جبينه عن عينين محمرتين ويزفر زفرة قصيرة حارة ثم يهتف بى راجيا :

ــ لا اريدك ان تبكى .. سأفعل كل ما تريدين .

وبلهجة متوسلة سألته :

ــ اريد ان اعود .

وصمت برهة يفكر ثم تساءل قائلا وهو يضم يدى فى كفه برفق :

ــ الا نحاول مرة اخرى ؟ !

ودفع إلىّ سؤاله .. بكل مالاقيته من آلام ومتاعب ، خلال رقدتى فى سجنى الموحش الكئيب .

منظر غرفة العمليات المفزع .. وآلام ساقى بعد العمليــة .. وعطشى .. والدم الذى ينضح من الجبس ليغرق الملاءة .. والليل الموحش الطويل بكل ما فيه من مخاوف واشباح .. والأيام البطيئة تثقلها الوحدة والملل .. والسماء القاتمة بسحبها المكدسة السود .. ومطرها المنهمر كدموع الثكالى .

كل شىء موحش .. بغيض .. أليم .

وبغير وعى .. اندفع الدمع إلى عينى مرة أخرى .. يشد وجهى ويخنق حلقى .

وضغط ابى كفى التى لم يزل يضمها فى يده وقال فى حزم :

ــ كفى .. سنعود .. ما دمت تريدين ذلك .. وليفعل الله بنا ما يشاء .

واحسست بالعبء الثقيل ينزاح عن كاهلى .. وخيل إلىّ انى لاول مرة استطيع ان اتنفس بحرية .. فأخذت شهيقا طويلا تقطعه دموعى الغائضة .. واطلقته زفيرا مريحا .

وسألت « أبى » فى لهفة :

ــ سنعود إلى دمشق ؟ !

وهز « ابى » راسه قائلا فى شرود :

ــ اجل .

ولم يقل بالطبع .. إننا سنعود .. مكسورى الخاطر .. خائبى الرجاء .. نجر وراءنا ذيلا طويلا من خيبة الأمل ومرارة اليأس .

لم يقل هذا .. فقد كان اكرم من ان يضايقنى به .

وإن كنت احسست به فى شرود نظراته .. واستسلام سيمائه .

وكان علىّ ان اخفف عنه بدورى وابرر له إصرارى على العودة .. ورفض البقاء لتجربة اخرى .

وقلت فى رفق وحنو :

ــ انا سعيدة هكذا .. لم اشك ابدا من ساقى .. إنها لا تضايقنى .. هل تضايقكم انتم ؟

وهز « ابى » راسه وقال مؤكدا :

ــ ابدا يا حبيبتى .. إنك على خير ما يرام .. انت ست البنات .. كل ما قصدناه .. الا نقصر فى جهد يمكن ان يجعلك افضل .

ــ ولقد فعلنا كل ما نملك من جهد .. فما الذى يضايقنا ؟ !

وتضاحك « ابى » قائلا :

ــ لا شىء .. لقد حاولنا ان نكون اكثر صبرا .. ونجرب مرة اخرى فقد ننجح فيما اخفقنا فيه اول مرة .

وبدات احس بالضيق من مجرد ذكر التجربة الاخرى . ولحظ ابى الضيق على وجهى فقال مهدئا :

ــ لا تتضايقى .. لقد وعدتك بالعودة .. ما دمت تريدين ذلك .

ونظرت فى وجه ابى محدقة .. وتساءلت فجاة :

ــ ماذا قال لك الطبيب ؟ .. قل بصراحة .

ــ بل ساقول بالدقة ، لانى احب ان تعرفى كل شىء . كما سبق عودتك .. لقد قال إن تزريع وتر العضلة المشلولة لم تنجح .

ــ لم يستطع ان يحدد بالضبط .. ذكر عدة اسباب . قال إن

بعضها او كلها قد يكون سببا لعدم نجاح العملية .

ــ وهل طلب القيام بعملية اخرى ؟

ــ قال إنه يستطيع ان يحاول مرة اخرى .. فقد تنجح .

ــ أو تخفق .

ــ نرجو الله ان تنجح .

ــ لقد رجوناه فى المرة السابقة .

واحسست كأنى ازج بنفسى فى شرك التجربة الاخرى . ولم يكن قد بقى لى من رجاء فى شىء .. بسوى العودة إلى دمشق .. فهززت راسى فى عنف وقلت فى إصرار وفى صوتى اختناق بكاء :

ــ لن ابقى .. اريد ان اعود . لو بقيت سيقضى علىّ .

وعاد ابى يقول مطمئنا :

ــ سنعود يا سهير .

ثم اطرق وقال كأنما يحدث نفسه :

ــ ليتنى رضيت بالعملية الأولى .. التى اقترح بها ان نثبت مفصل القدم .. وشىء خير من لا شىء .

ومددت يدى اشبك اصابعى باصابعه قائلة :

ــ انا سعيدة هكذا .. لا داعى للندم على اى شىء .. المهم ان نعود .

وفى غمرة لهفتى على العودة سألته :

ــ اين ماما ؟ ! اريد ان اراها .

ــ عادت إلى البيت .

ــ قلت إنها تجلس مع لطيفة ؟ !

ــ لقد عادت بها لطيفة إلى البيت لانها كادت تسقط عندما انبأها الطبيب بإخفاق العملية .. وطلب منى الطبيب الا ادعها تدخل عليك وهى بحالتها تلك .. فذهبت بها لطيفة إلى الفندق .

وتملكنى الحزن على امى الحبيبة المسكينة .. وكرهت نفسى ان اسبب لها ولابى كل ما سببت لهما من متاعب .. وتمنيت ان اضمها

إلى صدرى واؤكد لها انى فى حالة طيبة وانى لم اتضايق قط لإخفاق العملية .. وقلت لأبى :

ــ وددت لو اراها لاطمئنها على نفسى واؤكد لها انى بخير .

ــ سابلغها ذلك .

ــ لن تقتنع .

ــ وماذا تقترحين ؟ !

ــ نطلبها بالتليفون .

ورفع « ابى » السماعة وطلب رقم الفندق .. وبعد برهة سمعت انا صوت « لطيفة » المرتفع يتساءل :

ــ آلو .

ــ انا عبد الهادى .. اين فاطمة ؟ !

ــ راقدة .

ــ كانت سهير تريد الحديث معها .

ــ لقد اعطاها الطبيب قرصـــا منوما .. وافضل ان ادعهـــا مستريحة .

ــ كما تشائين .. كنت فقط اريد ان اطمئن عليها واطمئنها .

ــ كيف حال سهير ؟

ــ تريد العودة .

ــ وانا ايضا افضل ذلك .. عندما تستريح من العملية الأولى يمكنكم ان تعودوا بها مرة اخرى .. تكون قد تمالكت قواها .. وتكونون انتم فى حالة اهدا .. ويكون الطقس افضل .

ــ ليس امامنا غير هذا .

وهززت راسى فى عناد قائلة :

ــ لن اعود إلى هذا البلد ثانية .. مهما حدث .

ووضع « ابى » السماعة .. وتنهد قائلا :

ــ يحلها ربنا .. من يدرى .. فقد تطلبين انت العودة ؟ !

ــ لن افعل ابدا .

وهكذا استقر الراى على العودة .

ولم يساورنى وقتذاك اى إحساس بالخيبة او الخذلان .

كان كل ما ابغيه هو النجاة بجلدى .. من الليالى الموحشة التى يمكن ان اخوض غمارها مرة اخرى وحيدة عزلاء فى هذا البلد ذى الوجه القاتم والمعالم الكئيبة العابسة .

لقد بات الخلاص من رقدتى العاجزة حبيسة القفص الجبس امنية فى حد ذاتها .. طمست ما عاداها من امنيات سمح لها الأمل الحلو ان تطل براسها خلسة فى لحظة تفاؤل قبل مجىء الطبيب وإعلان الإخفاق .

لم تعد تساورنى رغبة العدو او الوثب ، ولا عدت اتخيل نفسى اخطو فى رشاقة واعتزاز .. كل ما كنت آمله .. هو العودة .. مجرد العودة .

ولست اظن ابوى قد شاركانى مشاعرى .

حاول ابى ان يبدو قانعا راضيا بقضاء الله .. وشاركنى ابتسامتى .. ومشروعاتى المتواضعه عند العودة .. ولكنى كنت اضبطه من آونة واخرى متلبسا بشرود فى نظراته او بعبوس فى سيماه .. يفضحان مدى إحساسه بالمرارة وخيبة الأمل .

ولم اكن املك مقاومة إحساس الحزن الذى يتسرب إلى نفسى من نفسه المحزونة اليائسة واساله فى إشفاق :

ــ مالك ؟

ويهز راسه وكأنه ينفض عنه يدا خفية تتسلل لتمسك بعنقه وتضيق عليه الخناق :

ــ لا شىء .

واهتف به من اعماقى لعلى ادفع إليه بما احس به من رضا :

ــ انا سعيدة .. حقيقة ليس هناك ما يضايقنى .

ولست اظن ان هناك ما كان يمكن أن يدفع عنه الحزن . مثل قولى هذا .

كنت ارى وجهه يشرق وهو يضمنى قائلا :

ـ الحمد لله .. الحمد لله على كل شىء .. انا لا اريد اكثر من ان اراك راضية سعيدة .

كذلك كان « ابى » .

اما « امى » .. فلا اظننى استطعت ان انتزع منها شبح ابتسامة .

كانت صدمة الخيبة اقوى من ان تقاومها .. ونهضت من رقدتها فى اليوم التالى .. وهى تتحرك كالشبح ، وتحدق فينا كالمأخوذة .

لقد خدعها القدر .. ما فى ذلك شك .

جعل شفائى .. يبدو لها كالحقيقة المؤكدة .. واطلق لها العنان فى مرتع احلامها . فرأت ان تجسد لنفسها الامانى .. وتحقق الآمال .

وكنت اعلم جيدا .. امنية عمرها .

انا .. كعروس .. بكل ما اعدته لى من جهاز .. ورسمته من ترتيبات .

انا .. عروسها الحلوة .. الرشيقة الانيقة .. اخطو فى طريق فرشته بكل ما تملك من حب وجهد وتجارب وآمال .. اخطو فيه .. مرحة الخطا .. لا اجر فيه .. ساقا عاجزة .. ولا اطرقه بمشد حديدى ..

ساورتها ولا شك كل هذه الاحلام .. واستقرت فى ذهنها .. استقرار الواقع الحق الذى لا لبس فى وجوده ولا شك فى تحقيقه .

وفى غمضة عين مسحته كف قاسية كما تمسح الريم .. لتلقى به من سطح الوعاء .

وكنت وابى نعرف ما يمكن ان يصيب امى فحاولنا ان نتعاون على التخفيف عنها .

وقلت له وانا ارى الحذاء الانيق الذى اعدته لى لكى اخطو به اول خطواتى بعد الشفاء . ما زال يطل من موضعه الذى وضعته به « امى » لكى أراه دائما .. وكأنه يخرج لسانه فى سخرية :

ـ اخف الحذاء حتى لا تراه امى فيثير احزانها .

وامسك به الاب ضاحكا .. محاولا الا يكون اقل منى شجاعة ومرحا .

وقال وهو يخاطب الحذاء فى مرح :

ـ سنمنحك إجازة مؤقتة .. لا تظن نفسك قد نجوت منا .. سنعود إليك مرة اخرى .. لنترع بك ارض العالم كله .. اصبر علينا قليلا .

وتلفت « ابى » حوله باحثا عن مكان يخفى فيه الحذاء عن عينى امى .

واخذ يحوم حول الفراش قائلا فى حيرة وهو يهز الحذاء فى يده :

ـ اين نخفيك .. اين نخفيك ؟

وفجاة رايته يدسه فى جيبى المعطف .. ويتنهد فى ارتياح :

ـ هنا لن تقع عليك عين ... ساحملك حتى اضعك فى حقيبتى .

وسالت « ابى » فى حيرة :

ـ وإذا سالت عنه ؟ !

ـ لا اظنها ستكون فى حال تسمح لها بالتتميم على الاحذية .

ـ ابدا .. انا اعرفها جيدا .. اول ماتفعله عند حضورها .. سيكون السؤال عنه .

ورفع « ابى » كفيه مستسلما وهو يخرج الحذاء من جيب المعطف ويعيده إلى موضعه .

ـ تذرف لها دمعتين .

وصمت قليلا ثم اردف ضاحكا :

ـ على الحذاء .

وبهذا الاسلوب بدات وابى .. ننتزع الضحكات من جوف الالام .. نستر بها مرارة الهزيمة واوجاع الإخفاق .

ومرت بضعة أيام فى العلاج الطبيعى والتدليك على ثنى الركبة والسير .. حتى استطعت ان اغادر الفراش واسير متكئة على عصا .

وغادرنا المستشفى ، وبدأنا نعد العدة للرحيل .

ولم نحمل إلينا الأيام القلائل التى سبقت الرحيل اى نوع من المتع .

كان الجو معتما مقبضا .. وبضع الجولات التى قمنا بها فى عربة « الدكتور هاشم » .. حول هايدبارك .. وريجنت بارك .. ابدت لنا كل شىء مقفرا اجرد .. تصفعه الريح الباردة ، فى ضيق وحنق .. والناس يتدافعون فى الطرقات كأنهم يفرون من شىء ، او يلاحقون شيئا .. ولا يكاد يجد الإنسان دلالة على ان هناك من يستمتع بشىء .. بل كل شىء .. يفر من كل شىء .

واخيرا حانت ساعة العودة .

ولست اذكر بها شيئا طيبا .. إلا إحساسا فى باطنى بانها تؤذن لى بالهروب من سجن موحش معتم ، وتعيدنى إلى بقعة مؤنسة مشرقة .

وحملتنا عربة « الدكتور هاشم » و « الدكتور جمال » إلى المطار ، وجلست وامى ولطيفة وبقية الأصدقاء المودعين ننتظر ان تنتهى إجراءات السفر من وزن وفحص وتاشيرات .

ولم يستطع أحد منا ان يقاوم إحساس المرارة والخيبة الذى صاحب عودتنا .

ثرثرت « لطيفة » .. وضحك « الدكتور هاشم » وبادله « ابى » ضحكه بضحك .. وانطلقت مزحة من هنا ، ونكتة من هناك .. كل هذا كرنين العملة الزائفة .

ولا يلبث الإحساس الحقيقى بخيبة الرجاء ان يغلب كل هــذه المحاولات المفتعلة للمرح .. وفجاة يسود الصمت ويبدو الشرود فى الأعين ، وتسترق النظرات إلى نقطة اسفل المقعد الذى استقررت عليه ، وسرعان ما تنزع النظرات بعيدا .. خشية التلبس بالعطف والرثاء .

واخيرا .. وقفنا للوداع .

وقبل ان تمد « لطيفة » ذراعيها لتحتضننى رايتها تحملق فى دهشة وتهتف متسائلة :

— حمدى ابن أختى .. ماذا اتى به إلى هنا ؟

ثم صاحت :

— حمدى .

والتفتنا حيث تشير .

واقبلت انت علينا ، وقد ارتسمت الدهشة على محياك الخجول ، وعادت خالتك « لطيفة » تسالك :

— ماذا تفعل هنا ؟ ولماذا لم تمر علينا ؟

— لقد حضرت من « وولتش » راسا لأستقبل زميلا قادما من القاهرة .

ورايتك تسترق النظر إلى ساقى .. ولم تستطع ان تخفى الدهشة وانت تراها لم تزل حبيسة المشد الحديدى .. وبدت عليك الحيرة ولم تعرف ماذا تقول .. ونظرت إلىّ مبتسما فى رفق ثم قلت لأبى :

— كيف الحال ؟

واجابك ابى الإجابة التقليدية :

— الحمد لله .

ولم تقل اكثر من هذا .. فما كان هناك شىء يقال .. وما كان الوقت يسمح بأكثر من تحية وداع .

ولم تستطع أن تمنع نظرة إشفاق شيعتنى بها .

وددت لو قلت لك إنى فى غـــير حاجة إليها ، ولكنى لم املك إلا ان اتقبلها منك كما كنت اقبل من الناس كل مظاهر الإشفاق .

وسرنا وراء المضيفة وصعدنا السلم إلى قاعة الانتظار والتفتنا إليكم نلوح لكم بأيدينا .

وكان هذا آخر ما رايناه فى رحلتنا الضائعة .

واستقر بنا المقام على مقاعد الطائرة .

وشددت الحزام .. ووضعت قطعة الحـــلوى فى فمى .. ثم تنفست الصعداء .

اخيرا .. انتهى الكابوس .

وعدت كما اتيت .. وكلمات حنيفة تسرى فى اذنى :

— لم يكن هناك داع لكل هذا التعب .. سيمنحك الله الشفاء عندما يشاء فى اى مكان .

وأردفت لنفسى فى شىء من التهكم :

ـــ أو لا يمنحه .. فى أى مكان .

ونظرت من نافذة الطائرة .. لأرى ملامح المدينة القاتمة تبهت رويدا رويدا .. بأسقفها الحمر المائلة .. ومنازلها المرصوصة فى خطوط منتظمة كأنها دمى الأطفال .

واختفت معالم المدينة وسط أكداس السحب السود الكئيبة .

واعتلت الطائرة طبقـات الســحب .. وجاوزتها إلى الشمس المشرقة ، والسماء الصافية .

وانطلق ذهنى مع انطلاقها .. إلى بلدى الحبيب .. إلى دمشق الطيبة المؤنسـة .. حتى غلبنى النعاس .

ولم أضق كثيرا برحلة العودة .. قضيتها بين طعام .. وقراءة ، ونوم .

حتى سمعت المضيفة تهتف فى النهاية .. طالبة أن نشد الأحزمة ونمتنع عن التدخين راجية أن يكون قد استمتعنا برحلة طيبة .. مع الكابتن .. الخ .. معلنة أننا نوشك أن نهبط فى مطار دمشق .

واحسست بفرحة غامرة ، وأنا أرى دمشق قد لاحت من عل .

وبدا لى الجبل يحتضن المدينة ، واستطعت أن أميز خضرة الغوطة من بعيد ، فسيحة منبسطة .. وبدت لعينى الطرقات والقباب ، وأسطح الدور ، وأشجار السرو الطويلة الجرد .. وتمنيت لو أمد ذراعى من النافذة لأضم كل هذا وحاولت أن أرى بيتنا ، لكن الطائرة استدارت تهبط فى المطار .

واحسست بطرقات عجلات الطائرة تمس الأرض ، ثم استقرت بنا الطائرة أخيرا .

وفككت الحزام ، ونهضت استند إلى ذراع « أبى » .

وبدأت أتطلع من خلال النوافذ علّى أرى الأعزاء من مستقبلينا ، وفجأة تملكنى إحساس بالضيق .

ماذا سيكون وقع منظرى عليهم وهم يروننى أجر ساقى بالمشـــد الحديدى .

أى إحساس بالخيبة سيبدو على وجوههم .. وأى نظرات رثاء وإشفاق تلك التى سيغرقنى طوفانها .

ونظرت إلى أبى كأنى أستنجد به وهمست قائلة :

ـــ سأخيب أملهم .

وهز أبى رأسه وهو يحاول أن يتجلد ويبتلع آلامه :

ـــ لقد أعطيتهم فكرة .

ـــ متى ؟

ـــ كتبت إلى خالتك « حفيظة » فى اليوم التالى .

واحسست بالعبء ينزاح من فوق كاهلى .. لن أفاجئهم بخيبة الرجاء .

لقد انتهوا من حزنهم ورثائهم وشفقتهم ، وسيجد كل منهم الوقت الكافى ليرسم الابتسامة على شفتيه ويعد كلمات الحمد والرضا .

وهبطت من سلم الطائرة ، وكان أول من وقع عليه بصرى .. الخالة « حفيظة » وابنها حسان وزوجها ، ووراءهم استطعت أن ألمح « سلمى » تحاول أن تجد لرأسها الصغير منفذا بين الأجساد المحتشدة .

وكما توقعت .. اســتطاع كل منهم أن يرســم الابتسامة على شفتيه .

ولكن لم تكد « حفيظة » تمد يدها إلى « أمى » حتى اندفعت كلتاهما فى نوبة بكاء .

والتفت أنا إلى « سلمى » وضممتها إلىّ .. واستطاعت الصديقة الطيبة أن تتمالك .

كتمت دمعها جيدا ، ونظرت إلىّ نظرات ملؤها الحب والمودة وهتفت بى :

ـــ الحمد لله على السلامة .

وقلت لها فى تأثر :

ـــ أنا سعيدة بعودتى .. سعيدة بكل شىء .

وعادت سلمى تضمنى بشوق .

ولم نلبث طويلا حتى حملتنا العربة إلى البيت .

وهبطت من العربة ولاحت لى الياسمينة التى تعلو نافذتى والشجرة التى تظلل البيت ، ورايت المدينة كلها اسفل الطريق الممتد امام البيت فى سفح الجبل .

ومرة أخرى تمنيت ان امد ذراعى لضمها .. بكل ما فيها .. اناسها .. اشجارها .. مآذنها .. مبانيها .

تمنيت ان اضم الجميع بين ذراعى ..

ولكنى لم استطع ان اضم إلا « حنيفة » التى اقبلت تتعثر فى خطاها .. وفى دموعها وهى تهتف بى باكية :

— حمدا لله على السلامة يا حبيبتى .. حمدا لله على السلامة .

النـاس فى الطـريـق

استقر بى المقام من جديد فى حجرتى المريحة ، ودارى المؤنسة ، وبلدتى الحنون المشرقة .

وغلبت فرحة العودة كل احساسى بمرارة الخيبة. . وبدات الايام تمر بنا مريحة هادئة .. واخذت حياتنا مجراها الطبيعى الذى تعودت ان تجرى فيه قبل أن نسافر إلى لندن . وانقشعت آثار الرحلة عن نفوسنا ، وتبددت سحب القلق والتوتر والانتظار ، التى شدت اعصابنا وارهقت نفوسنا ، وبدانا نسترخى وبنا إحساس المرء براحة اليأس .

وتملكتنا لفترة ما .. غبطة الفائز من الغنيمة بالإياب ، ولم اعد احس ان ابى يفتعل الانشراح .. او يرسم الابتسامة .. فقد بدا لى انه سعيد حقا .. بمجرد إحساسه انى موجودة .. وانه يرانى ويحدثنى ويضمنى إلى صدره وقتما يشاء .. كانما انذرته التجربة المريرة فى لندن .. بأنه قد يفتقدنى .. او يعود بى وانا اسوا حالا .. قعيدة ، او طريحة الفراش .

كنت أرى فى إقباله علىّ .. فرحة دائمة بانى ما زلت كائنة .. وكنت احس فى صمته ما يشبه صلاة حمد صامتة .

ولم يكن هناك شك فى ان فرحتى بالعودة ورضاى عن كل ما صاحبها قد عاونت فى تخفيف آلام الخيبة من نفس « ابى » ومن نفوسهم جميعا ..

إلا « امى » التى كانت اكثر ارتباطا باحزانها الراسبة فى اعماقها منها بافراحنا الطافية على سطح نفوسنا .

لم تستطع امى قط الخلاص من تنهيداتها المرة الموجعة ، ولا من نظرتها الشاردة بين حين وحين .

كانت تشارك الأهل والأصدقاء ضحكاتهم ، وكانت تبتسم فى وجهى .. ولكن لم تستقر قط على راحة اليأس .

لم تكن تحتمل ان تتصور .. كيف يمكن ان اكون عروسا عرجاء .. كانت تنظر إلىّ دائما بعين الأيام المقبلة . كانت تدفعنى أمام امنياتها .. لتضع على راسى تاج العروس وتحيط وجهى بالطرحة البيضاء .. وكانت تأبى ان تدع الساق العاجزة والمشد الحديدى .. يفسدان جمال الأمنية وروعة الحلم .

استمد ابى رضاه من رضاى .. ومن قناعته بالواقع الذى اعتبره خيرا مما كان يحتمل ان يحدث لى من مضاعفات .

واستعصى على امى الرضاء .. بواقع يقف حجر عثرة فى سبيل اعز امنياتها .

والباقون ؟ !!

حاولوا ان يخفوا احزانهم بابتسامات عريضة وضحكات مرحة .. ولقاء هاش باش .. ثم هدات احزانهم فلم تعد فى حاجة إلى الإخفاء .. ولم يعودوا يتكلفون شيئا فى لقائى .

اصبحت بحالتى تلك .. بساقى العاجزة .. ومشدى الحديدى شيئا طبيعيا .. لا يثير شعورا يحتاج إلى إخفاء .. وسلموا بى كما يسلم المرء .. بزجاج مشروخ أو رخامة مكسورة .. اعتاد رؤيتها كما هى .. ولم يعد يذكر الشرخ أو الكسر الذى بها .

وواصلت خالتى « حفيظة » تدابيرها فى مشروع زواجى بابنها « حسان » بلا اعتبار لراى اى من طرفى المشروع ، او حالته .

لم تعتبر الشرخ الذى بى يمكن ان يؤثر فى قيمتى كجوهرة كريمة .. ولم يلح لى من جدية الموضوع ما يجعلنى انكر فى محاولة إظهار

رايى فيه كعبث امهات ووهم من اوهامهن ، ولا وجدت فى معاملة « حسان » ما يوحى باحتمال اخذه لتدبيرات الأسرة ماخذ الجد الذى يجب ان يقاوم .

وهكذا سار كل شىء إلى ما كان عليه بكل ما فيه من تفاصيل لا اظن ان هناك ما يدعو إلى إعادة سردها .

واقصد بكل شىء .. كل شىء فى حياتى الخاصة التى لا تتجاوز حدودها محيط الأسرة .. بالاقرباء والأصدقاء .

اما ابعد من ذلك — فى محيط البلدة كلها — فاعتقد ان ثمة تغييرا قد حدث يستحق ان يذكر .

لقد عدنا لنجد انقلابا قد وقع بالبلد .

انقلابا اطاح بحاكمها القديم .. « الشيشكلى » صاحب ثالث انقلاب عاصر عمرى القصير .

ولن احاول ان ادعى علما بما لم يكن لى به علم فى تلك الامور التى كانت تحدث وقتذاك .. فما كانت تعنى لى اكثر من حالة ذعر .. يصاب بها البيت كله .. لا سيما امى .. وامتناع عن الذهاب إلى المدرسة .. وتحذير من ان اغادر البيت .

ولست اظن الإحساس بالطمانينة التامة قد ملأ نفوسنا منذ ان وعيت فى هذه الحياة .. فقد كنت احس دائما بقلق امى علينا حتى نعود .

ولم يكد ينقشع خوفنا من الجنود الفرنسيين حتى حل محله خوف من إحداث الانقلابات .

وبدات اسمع انباء الانقلاب الاخير من الزوار المحتشدين فى دارنا .. وانصت إلى الاحاديث والمناقشات واتتبعها عن غير قصد .. ثم اخذ الاستماع إليها يستهوينى ، وبدات اقرا الصحف لاعرف ماذا يجرى حولنا حتى استطيع المشاركة فى الأحاديث والمناقشات .

ولم تطل حالة الطوارىء التى فرضتها امى على البيت نتيجة للأحداث

التى وقعت .. إذ لم يكن هناك ما يدعو إليها فقد استتب الأمن وسار كل شىء فى مجراه الطبيعى بعد أن قدم « الشيشكلى » استقالته — كما سمعت من الأحاديث الدائرة حولى — إلى رئيس مجلس الوزراء وغادر « سوريا » بعد ان انقسمت قيادة حلب — التى كانت تعارض حكمه — على قيادة دمشق .

وكان اول مظاهر استمتاعى بحرية الانتقال خارج الدار ، هو زيارتى لبيت « سلمى » .. فقد اقبلت « سلمى » عصر يوم تسألنى أن اتناول عندها الغداء غدا واقضى طيلة اليوم فى بيتها .

وقالت لها ضاحكة :

— امى لم تاذن لى بعد بالخروج .. لانها لم تنه حالة الطوارى .

— ومتى ستنتهى ؟ !

— عندما تنتهى المعارك الدائرة فى الطرقات .

— ولكن الطرقات هادئة .. والحوانيت مفتوحة ، والناس يروحون ويغدون إلى اعمالهم .. بلا وجل ولا خوف .

— الناس مجانين مغامرون .. فقد يحدث انقلاب آخر .. وينطلق الرصاص على رءوسهم فى اى وقت .. هكذا ترى أمى .

— انا إذا فى نظرها مغامرة مجنونة ؟

— طبعا .. وهى تدهش كيف تتركك امك تمضين فى الطرقات معرضة لاخطار الطريق .. ولقد همت اول امس باستبقائك للمبيت هنا ، لولا ان سخر منها ابى وقال لها إن البلد هادىء والطـــرقات آمنة .

— على اية حال ساحاول إقناعها .. فمن غير المعقول أن تظلى حبيسة الدار .. خوف حدوث انقلاب جديد .. قد لا يحدث ابدا .

وقلت لها مستسلمة :

— حاولى كما تشائين .

واقبلت امى فى تلك اللحظة .. ونهضت « سلمى » لتحييها قائلة فى شبه توسل :

— الا تاذنين لسهير بالغداء عندنا غدا ؟ !

وابتسمت أمى واجابت فى رفق :

— عندما تهدا الحالة .

— الحالة قد هدات تماما .. وسنقضى يوما لطيفا .. فالشمس تسطع فى شرفتنا القبلية .. و ..

ولم تدعها أمى تواصل سرد حسنات بيتهم فقد ربتت ذراعها قائلة فى تسليم غير منتظر :

— حسن .. ستجىء إليك غدا .

واحسست بالسعادة تغمر « سلمى » وهى تشكر امى قائلة :

— « مرسى يا تنت » .. سنقضى يوما جميلا .

واقبل « حسان من الغرفة المجاورة حيث كان يجلس مع خالتى وابى يقول مازحا :

— اين ستقضون هذا اليوم الجميل ؟ !

واجابت « سلمى » فى حماسة :

— فى بيتنا .

وضحك « حسان » قائلا فى سخرية :

— واى جمال فى هذا ؟ !

واجابت « سلمى » فى حماسة :

— سنقضى اليوم فى الشرفة المشمسة التى تطل على بردى .. وسنجلس فى الأرجوحة .. ونقزقز الفستق .. ونتغدى .. لماذا لا تاتى للغداء معنا ؟ !

ولم يبد فى كل ما قالته « سلمى » اى شىء من الإغراء لحسان . فقال متسائلا :

— اسيكون اخوك رياض حاضرا ؟ !

— طبعا .. فغدا يوم الجمعة .. اليوم الوحيد الذى يغادر فيه الثكنات ويقضيه بيننا .

— سأتى إذا .. لقد اوحشنى كثيرا .. لم اره منذ اكثر من ثلاثة اشهر !

— لقد عين فى السويداء منذ ان تخرج فى الكلية ولم ينقل إلى دمشق إلا منذ اسبوع .

— لم اره إلا مرة واحدة بعد ان تخرج مباشرة .. لقد بدا وجيها فى حلته العسكرية .

وصمت « حسان » هنيهة ثم اردف ضاحكا :

— كان المفروض ان اكون انا فى الحلة العسكرية .. ويكون هو اديبا .. ولكن القدر خلط امانينا . لقد كنا نجلس متجاورين فى المدرسة الابتدائية .. وكنت لا افتأ ارسم نفسى جنديا يمسك المدفع ويحصد به الرءوس ، وكان هو يجيد الإنشاء .. ويحفظ المحفوظات جيدا .. حتى كان المدرس يساله دائما ان يلقيها بيننا .. ورغم كل ذلك .. اصبح ضابطا .. واصبحت انا اديبا .

ثم التفت إلى فى حذر واستطرد يقول :

— او على الاقل مشروع اديب .

وسالته فى حماسة :

— اين كتابك الذى قلت إنك سترسله إلىّ فى لندن ، عندما تطبعه ؟!

— اوشك طبعه ان يتم .. وساحضر لك اول نسخة من المطبعة .. وارجو ان يكون لديك الصبر على قراءته .

— لقد اصبحت احب القراءة .. لم يكن امامى سواها وانا راقدة فى فراشى طول هذه المدة .

— ماذا قرات ؟ !

— قرات كل ما اعطيته لى .. قرات كتاب ميخائيل نعيمة « كرم على درب » وقرات : الأيام ، وعودة الروح ، وقرات قصة إحسان ، وعبد الحليم ، وقرات ديوان نازك الملائكة .

وقاطعنى « حسان » متسائلا فى دهشة :

— قرات شعرا !

— اجل .

— وفهمته .. ؟

— طبعا .

ثم اردفت متسائلة فى سخرية :

— اتظننى اقرا بلا فهم ؟

— ظننتك لا تسيغين الشعر .. فقد كنت تأبين الإنصات إلى ما اقرؤه عليك من شعرى .

— كنت صغيرة .

— ام لعل الشعر كان سخيفا ؟

— استطيع ان اجيبك إن قراته علىّ ثانية .

ولم اكد انتهى من قولى حتى بدا « حسان » يلقى قصيدة وطنية ، ولم يكد يلقى البيت الأول حتى اقبلت امه تصيح ضاحكة :

— يا حسان يا حبيبى .. هذا غير معقول ابدا .

وتوقف « حسان » عن الإلقاء متسائلا :

— ما هو هذا الغير معقول ؟ !

— ان تؤذى اسماع البنية بمثل هذا الصخر الذى تلقيه . لم تعد هذه هى الطريقة المثلى للتقرب إلى النساء فى عصرنا هذا ..

واجاب « حسان » ضاحكا :

— الظاهر انك لا تعرفين شيئا عن نساء هذا العصر . إنها هى التى طلبت .

وقاطعته امه متسائلة فى دهشة :

— طلبت ان تنشدها قصيدة ؟ !

— اجل .

— وطنية حماسية ؟ !

— لم تحدد نوعها .. طلبت شعرا وكفى .

— إذن انشدها شعرا فى الغزل .. اليس عندك شىء سوى هذا الشعر المتشنج .

— ليس هذا وقت الغزل ، إننا نخوض معركة كبرى من اجل المصير العربى .. من اجل الحرية والوحدة والبناء .

ومدت « خالتى » يدها وجذبت « حسان » من ذراعه وهى تضحك قائلة :

— دع البنت فى حالها ، لا تضايقها بمعاركك الموهومة يكفيها ما مرت به من متاعب .. إذا كانت لديك كلمة حلوة فقلها .. وإلا فاتركها لشأنها .

واجابها « حسان » متضاحكا فى اسف :

— لا فائدة يا اماه .. لا تريدين أن تفهمينى .. ولكنى سأفهمها هى .. لانها تحب ان تفهم .. ولأنها يجب ان تفهم .. إن جيلها شىء آخر غير جيلكم .

وضحكت « خالتى » وقالت وهى تربت كتفه :

— غدا تكبر وتعقل .. وتفكر فى بيتك وأسرتك واولادك .. وحاجتك إلى تأمين الحياة لهم .. كما أمن لك ابوك حياتك .

— يجب أن نؤمّن الحياة لوطننا كله .. وطننا العربى الكبير ..

— امنها لنفسك اولا .

— والباقون ؟ !

— يؤمنونها لأنفسهم .

— لا يؤمن الناس حياتهم فرادى .. وإنما يؤمنونها متضامنين متعاونين .

وكانت « خالتى » قد وصلت إلى باب الغرفة المجاورة .. وخرجت دون أن ترد على « حسان » .. إما لأنها لا تعرف الرد .. او لأنها لم تكلف نفسها مشقة الرد عليه او حتى الاستماع إليه .

واستهوتنى طريقة « حسان » فى المناقشة .. ووجدتنى فى تفكيرى اقرب إليه منى إلى « خالتى » .

ولم يحاول « حسان » أن يتم قصيدته .

واشار بيده مودعا قائلا لسلمى :

— سأحضر إليكم غدا .. لا تنسى أن تقولى لرياض .

— لن انسى .. لأنى اعرف كم يسرّه لقاؤك .

واستيقظت فى اليوم التالى وإحساس بالرضا يملأ جوانحى .. وكان يوم شتاء دافئا .. حجب دفء نهاره رواسب البرد عن ليله .. ونفضت شمسه الساطعة بقايا السحب المتلاحقة فى سمائه .. وبدا كل شىء مشرقا نابضا بالحياة .

ووقفت فى الشرفة انتظر مجىء السائق بالعربة كى يذهب بى إلى دار سلمى .. وبدا لى طريق المهاجرين الذى قام بيتنا فى آخره على سفح الجبل وقد غص بالحركة .. ووصلت إلى مسامعى أصوات عربات الترام وأبواق السيارات .

واحسست بنشوة وانا اتنسم روائح الحياة الدافئة .. واستمع إلى اصدائها الحلوة ، وارقب المدينة تتمطى امامى كأنها الهرة تتمرغ فى اشعة الشمس ، ولاحت القباب والمآذن ، واشجار السرو العارية كأنها الألسنة تمتد لترتشف الأشعة الدافئة المتساقطة من السماء .

وهبطت إلى العربة بعد أن زودتنى « أمى » بقائمة النصائح التى تؤمن بها حياتى من سلسلة الأخطار التى تتوهم تربصها بى .

وانحدرت بى العربة إلى طريق المهاجرين ولمحت حشدا من العربات يقف امام رئاسة الجمهورية ، وانحرفت العربة يمنة ويسرة منحدرة إلى الميدان المفضى إلى الطريق العريض ثم اتجهت يمينا إلى الطريق المجاور لبردى ، والمناظر تتواتر امام عينى أليفة مؤنسة تملأ نفسى إحساسا بالأمن والطمأنينة ، كأنى اسير فى دار اعرف كل شبر فيها ويعرفنى كل مخلوق يقطن بين جدرانها .. لا يتملكنى فيها إحساس بضياع او بخوف .

ووصلنا إلى الساحة فى آخر الطريق .. وسرنا بجوار بردى فى الطريق الضيق الممتد بعد الكوبرى العريض امام فندق سميراميس ، ووقفت العربة امام احد المنازل المطلة على النهر .

ولم اكد انزل من العربة حتى وجدت « سلمى » تقف امامى متهللة

الوجه ، وقد وقف وراءها أخوها « رياض » يرتدى قميصا وصديريا من الصوف .

ومدت سلمى يدها تشد على يدى فى مودة خالصة وهى تقول :

ــ اخى رياض مصر على حملك إلى شقتنا .

واجبتها وانا اتكىء على يدها متجهة إلى باب البيت :

ــ انا التى ساحمله .. ماذا يظن نفسه .. قبضاى !

وضحك رياض قائلا :

ــ ابدا .. الطابق عال .. والسلم طويل ، واخشى ان يرهقك الصعود .

وقلت فى تحد :

ــ ساريكما انكما ستتعبان قبلى .

وبدات اصعد السلم متكئة على الدرابزين ، واحسست وانا اصعد كان « رياض » يحملنى بعينيه .. فقد كانت عيناه تتبعاننى فى حرص واهتمام فى كل نقلة من نقلات قدمى .

كان كاخته « سلمى » .. رقيقا طيبا خجولا .. وكانا كلاهما يختلفان تماما عن اختهما الكبرى « عزة » التى كانت تدرس لنا العلوم فى المدرسة ، والتى كانت تتميز عنهما بالطموح الذى يصمها فى كثير من الأحيان بالأنانية .

ولم يكن هناك شك فى أنها شديدة الذكاء ، صافية الذهن ، مرتبته ولكنها ــ كما استنتجت من حديث « سلمى » عنها مجرد حديث عابر لم تقصد به النقد او الشكوى ــ كانت دائمة التخطيط لنفسها .. لمطامحها .. لمستقبلها .. باعتبارها هى الكائن الأول .. الذى يجب ان يدبر من اجله كل شىء .. بصرف النظر عمن يعيشون معها ، ويرتبطون بها .

وكانت « عزة » ناجحة دائما فى كل ما تقوم به ، ناجحة كمدرسة ، ناجحة كعاملة فى المجال العام .. سواء السياسى والاجتماعى ، ناجحة فى كل صلاتها مع الناس .. فقد كانت تعرف كيف تكسب ثقتهم ، بذكائها وجهدها .

ومع ذلك ــ ورغم إعجابى بهـا فقد كنت اكثر حبا لاختها واكثر تقديرا لاخيها .. بما فيهما من بساطة قد تكون اقل قدرة على اجتذاب الناس ، ولكنها اعمق تاثيرا فى البعض الذى قد تفلح فى اجتذابه .

ودخلت شقة « سلمى » .. واستقبلت بترحيب حار من كل اهلها .. من ابيها الطيب الموظف بالداخلية ، وامها الهادئة الحنون التى تشبه « امى » فى كثير من صفاتها .. ومن اختها « عزة » التى كانت قد ارتدت ملابسها استعدادا للخروج .

وضمتنى ام سلمى إلى صدرها قائلة :

ــ حمدا لله على السلامة يا حبيبتى .. كنت ادعو لك بالسلامة فى كل صلاة .. كان قلبى مع امك دائما .. كان الله فى عونها .

وسالتنى عزة وهى تحيطنى بذراعها :

ــ ماذا فعلت فى دروسك .. لعلك قد تكونين استذكرت ما حددت لك فى الكتب .

وطاطات راسى فى شىء من الخجل واجبتها :

ــ الحقيقة انى لم اجد فى نفسى القدرة على ان اقرا شيئا من دروسى .. كنت فى حال من الضيق .

وقاطعنى ابوها قائلا :

ــ كان الله فى عونك يا بنتى .. لقد رقدت اسبوعين كدت اجن بعدهما .. كيف تستذكرين وانت فى حالتك تلك !

ــ وحجرة المستشفى موحشة يا عمى ، والجو مقبض ، وكل شىء يبعث على الخوف .

وقال رياض فى لهجة مشفقة :

ــ غير معقول ان تقدرى على المذاكرة وانت فى رقدتك تلك .. لو كنت مكانك لقذفت بالكتب من النافذة .

وضحكت عزة قائلة فى سخرية :

ــ لقد كنت دائما تقذف بكتبك من النافذة .. دون أن تكون فى

مكانها .. لا اذكر ابدا انك استذكرت دروسك إلا قبل الامتحان بأسبوع .

واجابها رياض مستخفا :

— وماذا فعلت انت باستذكارك .. مدرّسة لا اقل ولا اكثر !

واجابت « عزة » فى تحد وكبرياء :

— سترى قريبا هذه المدرّسة .

— لعلك ستصبحين زعيمة سياسية بانضمامك إلى حزب البعث !

— ولِمَ لا .

— يا ستى .. بزائد زعيم سياسى .. ليس اكثر من الزعماء السياسيين فى هذا البلد .

— لا تتحدث عن الزعماء لانك لا تفهم فى السياسة .

— تركتها لك .

واحس الاب ان المهاترة الصبيانية بين ابنه وابنته لن تنتهى إلا إذا وضع حد لنهايتها .. فتطوع بأن يقوم هو بهذه المهمة مستعملا سلطان الابوة وهو يقول لهما ناهرا :

— انتهينا .. ليصبح كل منكما ما يريد .. ولكن لا تقلبوا رءوسنا بمناقشاتكما .

وتبينت الام انى ما زلت واقفة فقالت معتذرة :

— اجلسى يا حبيبتى .. ما ذنبك انت فى هذه المناقشة التى لا تنتهى .

ومدت « عزة » ذراعيها فضمتنى إليها قائلة قبل ان تغادر البيت :

— على اية حال ساراجع معك الدروس التى فاتتك .. فى جلسة او جلستين .. لا اظن انه قد فاتك الكثير .

وقالت سلمى :

— لا . .لا .. وساحاول انا ان اذاكر معها ما فاتها .. وإذا استعصى علينا شىء .. فسنلجأ إليك .

ومدت سلمى يدها إلىّ تجرنى إلى الشرفة العريضة التى تطل على

النهر والتى فرشت الشمس الساطعة ارضها وحجبت جدرانها النسمة الباردة فملأ الدفء جوانبها .

وجلست على اريكة فى ركنها ومدت « سلمى » يدها تساعدنى فى فك المشد الحديدى قائلة :

— اجلسى على راحتك ، ومدى ساقيك .. لن ادع احدا يزعجنا حتى وقت الغداء .. ما رايك فى هذا المنظر وهذه الشمس ؟

وبدا بردى يمتد امامنا ينساب من بطن الجبل فى اليمين وقد علت فيه مياه الأمطار المتساقطة من الجبال والتى صبغته بلون احمر ، وهو يسير متمهلا وسط المدينة .. وقد بدا الطريق العريض على يساره والأبنية العتيقة على يمينه ، وبدا فى آخرها مبنى وزارة المعارف بلونه الاحمر ، والقباب البيض المجاورة له .. والأرض الفضاء التى تكدست فيها عربات قديمة .

والساحة بعرباتها المتلاحقة ، وحوانيتها التى لا تهدا حركتها ، وعربات « ابو فروة » تقف بجوار الكوبرى .. والفندق الذى تزاحمت العربات الفاخرة ببابه الزجاجى العريض ، والسينما التى علتها لافتة كبيرة كتب عليها اسم فيلم مصرى ورسم عليها صورة بطله يضم بطلته .

والناس ..

الناس .. شىء آخر .

الناس المتزاحمون على باب السينما ، وعلى ارصفة الطريق ، وامام الحوانيت ، وحول عربات اليد .

الناس .. تحس من حركاتهم ونظراتهم .. ان كلا منهم يرى الآخر ويحس به ويتحدث إليه .

الناس تحس هنا ان بينهم تعارفا وتفاهما وتآلفا ، وان لديهم وقتا للحديث والنظر والإعجاب والمزاح .

ليسوا ابدا كالناس هناك .. ينطلقون فى الطرقات متلاحقين .. يطاردهم البرد ويطارد بعضهم البعض .. ولا يبصر البعض من البعض سوى الظهور والاقفية .. لا تمهل ولا التفات .

البرد هناك يجعل طرقاتهم معبرا للانتقال .. مجرد طريق لسباق المشاة ، لا تقع العين فيها ، على وقفة حياة .. لا ضحكة ، ولا لفتة ، ولا تحية .

لا اثر لتلك الحياة التى وجدتها تشيع بين الناس ، وانا ارقب الساحة والطريق من جلستى فى الشرفة .

ودخلت علينا السيدة الطيبة ، تحمل كل مظاهر المحبة والكرم مرصوصة فى أطباق .. حلوى وفاكهة وفستق وبندق ولوز ، وكل ما لديهم فى البيت من وسائل التسلية .

وتركتنا لتباشر إعداد الغداء .

وجلست اتضاحك وسلمى كعادتنا .. وقصصت عليها كل ما لقيت فى لندن ، منذ ان ذهبت حتى عدت ، ولم انس ان اذكر لها ضمن ما ذكرت الضابط المصرى الذى يدرس المدفعية فى وولتش .. والمسمى .. « حمدى ابن اختى » .

قصصت عليها كيف لف بنا لندن فى عربته .. وكيف ذهب بنا إلى قصر بكنجهام وميدان ترافلجار ، وكيف هبطت الحمامة على راسه .

حكيت لها كل شىء عنك كجزء من رحلنا ، وانتهيت من كلامى عنك بانى اكتشفت انك لطيف خفيف الدم .. بعد ان رفع بيننا حجاب الكلفة .. ولم تعد تتكلف تسليتنا وتقديم الدعابات واداء واجب الضيافة بالنيابة عن خالتك « لطيفة » ..

وافصحت لها عن الإحساس المتوارى بالفرحة الذى لم افصح عنه حتى لنفسى ، وانا اراك فى المطار تنتظر صاحبك وتقبل على وداعنا ، وتسترق إلى ساقى نظرة عطف .

واقبل رياض يشاركنا جلستنا ، وقص علينا بعض المغامرات التى صادفها فى المدة التى خدمها على الحدود الجنوبية .. كيف اطلق اليهود المدافع عليهم ، وكيف ردوا الطلقات باشد منها .

وبعد برهة ، اقبل علينا شكيب « ابن خالة سلمى » .. فتى

نحيف اصفر الشعر ، اصفر الوجه ، اصفر الملامح والقسمات ، وكنت قد لقيته فى بيت سلمى بضع مرات من قبل .. وفى كل مرة رايته يبدو كانه ضائق بشىء .. ساخط على شىء ، وبقدر ما كانت تملؤنى نظرات رياض بالإحساس بقيمتى ، وبقيمة الدنيا من حولى ، بقدر ما كانت تملؤنى نظرات شكيب إحساسا بضياع قيمتى وتفاهة كل شىء من حولى .

وجذب شكيب مقعدا واستقر فى الشرفة بجوارنا .. بعد ان سلم علىّ ..

وبدل ان يوجه إلىّ الجمل التقليدية التى كنت اسمعها من الناس « حمد الله على السلامة » او يخبرنى بانه « كان دائما يدعو لى » او اى شىء من هذا القبيل .

رايته ينظر إلى ساقى ويهز راسه وينفخ فى ضيق خليط بالسخرية قائلا :

ـــ لم تنجح عمليتك .. مشوار على الفاضى .

وبدا الضيق على وجهى « سلمى » و « رياض » ونظرت إليه « سلمى » فى غيظ قائلة :

ـــ لقد عادت إلينا بالسلامة .. وهى فى خير حال والحمد لله .

واردف رياض قائلا :

ـــ المفروض ان يبذل الإنسان جهده .. والشفاء من عند الله .

وحك شكيب ذقنه بسبابته ، وهو يهز راسه قائلا كأنه يحدث نفسه :

ـــ ما دامت النقود موجودة .. على قفا من يشيل .. فلماذا لا نصرف ؟

ووجدت رياض يعض على نواجذه .. ولم يستطع ان يكتم غيظه فقال لشكيب فى لهجة منذرة :

ـــ يبدو انك فى حاجة إلى طريقة التاديب التى عودتها لك فى

المدرسة .. كان حسان يجيد مناقشتك .. ولكنى كنت اعرف ان طريقة واحدة هى التى تردعك .

وضحك شكيب واجاب مازحا :

— لا داعى .. يجب ان تكون لدينا حرية المناقشة .

— هذه وقاحة وقلة ادب .

وعاد شكيب يجيب ضاحكا :

— اشكرك .

والتفت إلى رياض قائلا :

— لا تتضايقى يا سهير .. إنه حمار لا يعرف كيف يتحدث كرجل مهذب .

ونظر إلى شكيب قائلا :

— متأسف إن كنت ضايقتك .

وابتسمت قائلة :

— ابدا .. انا شخصيا لم اكن اود الذهاب .. وانا راضية تماما بحالتى تلك .

وقبل ان يجيب ، دق جرس الباب ثانية واقبلت « عزة » ووراءها « حسان » تتبعهما الأم قائلة :

— هيا إلى الطعام قبل ان يبرد .

قــوة مجـهولة

انتهينا من الطعام وعدنا إلى الشرفة ثانية .

كانت الشمس قد بدات تميل إلى الأفق الغربى ووهنت اشعتها وطالت ظلالها ، واخذت نسمة باردة تسرى هبة وراء هبة كان الهواء تحركه مرحة فى يد كسول لم تقو على طرد ما اختزنته الشرفة من حرارة الظهيرة .

واتخذت مجلسى فى ركن الاريكة حيث كنت اقبع قبل الطعام .. وبدات أعد نفسى لمعاودة الخلوة الضاحكة مع « سلمى » .. لا سيما وقد منحتنا جلسة الغداء رصيدا طيبا من التندر على جلسائنا من مختلف الأقارب الذين كنا ندعوهم بالتحف لما نجد فيهم .. فى شخصياتهم .. واحاديثهم وتصرفاتهم وآرائهم .. مادة لا تنفد لفكاهتنا المشتركة .

ولقد كنت و « سلمى » قادرتين على الضحك من اى شىء ، ومن لا شىء .. لم يكن هناك اسهل من ان نلتقط شخصا ما ونحلله .. وننقده .. ونتصور ما يمكن ان يفعله .. لو وجد فى موقف معين .. ونقول ما يمكن ان يقول ونفعل ما يمكن أن يفعل .. ثم ننطلق فى الضحك عليه من اعماق قلوبنا .

ولست اشك فى ان القدرة على الإضحاك ، او ما يسمونها بخفة الدم .. مسالة نسبية .. فما يضحكنا من شخص .. قد لا يضحكنا من غيره .. وما يضحكنا فى ظرف .. قد لا يقوى على انتزاع مجرد بسمة فى

ظرف آخر .. وما يضحكنا فى سن .. قد يثقل علينا عندما نتجاوزها إلى سن اكبر .

وعندما اتذكر الآن ماذا كان يطلق من شفاهنا كل تلك الضحكات ، وماذا كان يثير فينا كل هذا المرح والابتهاج ، لا استطيع أن اجد فيه سوى تفاهات وسخافات .

ولم اكد اعد نفسى و « سلمى » لاستعراض التحف التى تناولت معنا الطعام من اقاربها واقاربى .. حتى بدأت التحف ذاتها تتسلل إلى الشرفة لتشاركنا الجلسة وتقطع علينا السبيل إلى السخرية منها والضحك عليها .

واتخذوا مقاعدهم مسترخين فى اشعة الشمس الهابطة ، يرتشفون القهوة فى استمتاع .تعلنه الرشفة الطويلة والعيون المسبلة والتنهيدة الطويلة عقب ازدراد الرشفة وانزلاقها من الحلق إلى البلعوم واستقرارها بين حنايا المعدة مع الوجبة الشهية فى هدوء واسترخاء .

وانفرد « ابو سلمى » بمتعة إضافية .. لم يجسر بقية الأولاد .. « رياض » وابن خالته « شكيب » .. وابن خالتى « حسان » .. على مشاركته فيها .. وهى جذب نفس طويل من مبسم الخرطوم الممتد إلى الآناء الزجاجى الملون المليء بالمياه والذى تعلو فوهته جمرات مرصوصة فوق اوراق الطباق .

واطلق « ابو سلمى » ما جذبه من نفس طويل من المبسم فى حلقات تعالت حتى سقف الشرفة وانتشرت ذراتها البيض بين خطوط الأشعة .

وبدا الجميع من حولى كأنهم يستريحون من عناء معركة ، وقد فك البعض ازرار ياقاتهم والبعض احزمتهم حتى يمنحوا اعناقهم وبطونهم حرية الاسترخاء بلا ضيق ولا شد .

وبدا النوم اقرب الاشياء إليهم وهم فى جلستهم تلك المسترخية .. وخيل إلىّ أن بعضهم يقاوم هجماته .. حتى طرق احدهم — واظنه شكيب — باب السياسة قائلا وهو يضع فنجان القهوة جانبه :

— خلصنا من دكتاتورية الشيشكلى .

واجابه حسان :

— خلصنا من فساد حكمه .. لو انه كان مصلحا لاحتملناه على العين والراس .

واجاب « ابو سلمى » وهو ينفخ دخان الشيشة ويهز راسه فى اسف :

— بدا بداية طيبة .. كان انقلابه ثالث انقلاب فى بضعة اشهر فى الانقلابات عام ١٩٤٩ الذى بدا بانقلاب حسنى الزعيم فى مارس ، ولم يستمر سوى بضعة اشهر عندما اطاح به الحناوى فى اغسطس .

وقاطعته « عزة » قائلة :

— فى سبتمبر على ما اظن .

ورد ابوها متحديا فى ثقة :

— فى ١٤ اغسطس بالتحديد لم يكن قد مضى سوى بضعة ايام على انتقالى من المالية إلى الداخلية .. كان عمر امك وقتذاك ..

وقاطعته « ام سلمى » ضاحكة :

— مالك ولعمرى .. نستشهد به وتفضحنى فى كل وقت .

وضحكنا جميعا ورد « حسان » مازحا :

— من فرط معزّتك عنده .

واشاحت السيدة الطيبة براسها قائلة :

— لا اريد هذه المعزّة .

واستطرد الأب قائلا :

— فى ١٤ اغسطس — كما اذكر جيدا — قام الحناوى بالانقلاب الثانى .

وقال « رياض » مقاطعا :

— لم يكن الحناوى اكثر من اداة فى يد بعض الضباط .

— على اية حال .. هو او غيره سواء .. لقد قضى على حسنى الزعيم ، واجريت انتخابات عامة اعادت حزب الاغلبية إلى الحكم الذى

دعا إلى اوثق العلاقات مع العراق وطالب بتنفيذ مشروع الاتحاد القومى السورى .

وقال « حسان » فى حماس :

ــ وكان الشيشكلى هو الذى حال دون تنفيذ مشروع الاتحاد .

ولم يدع الأب لحسان فرصة حرمانه من استعراض قوة ذاكرته التاريخية فاستمر يقول دون ان يأبه لمقاطعة حسان :

ــ وفى ١٩ ديسمبر قام الشيشكلى بالانقلاب الثالث فأطاح بالحناوى وقضى على مشروع الاتحاد وانتهت الجمعية التأسيسية بعد ذلك من وضع دستور ١٩٥٠ وتحولت إلى مجلس نيابى انتخب هاشم الاتاسى رئيسا للجمهورية وعين ناظم القدسى رئيسا للوزارة .

وبدأت اشعر بالملل من سلسلة المعلومات والتواريخ التى يصر الأب على سردها علينا .. وتبادلت و « سلمى » نظرات القلق عندما سمعت « شكيب » يقول فى لهجته الضائقة بكل شىء :

ــ لم يعمل الشيشكلى ابدا على استقرار الحكم الدستورى .. فقد كانت القيادة العسكرية تفرض رأيها على سياسة البلد .. وتدخل الشيشكلى فى تشكيل الوزارة ، واطاح بالوزارة تلو الوزارة ، وعندما يئس من المدنيين قام بانقلابه الرابع .

ولم يدع الأب الفرصة تفلت منه فتدخل بسرعة قائلا :

ــ وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٥١ استولى على الحكم واطار هاشم الاتاسى .

وسأله « شكيب » ضاحكا :

ــ كم كان عمر خالتى وقتذاك ؟

وضحك الأب قائلا :

ــ ربنا أمر بالستر .

واستطرد « شكيب » قائلا :

ــ وادعى الشيشكلى انه يمهد للحكم النيابى فأصدر قرارا عسكريا بأن يتولى فوزى سلو مهام السلطة التشريعية والتنفيذية ويمارس سلطات

رئيس مجلس الوزارة حتى تعود الحياة النيابية إلى البلاد .. ثم ألغى الأحزاب وانهى الفترة الانتقالية بإعلان دستور ١٩٥٣ ، الذى ينص على قيام الجمهورية الرياسية .

وهز الأب رأسه قائلا فى سخرية ، وهو يضع المبسم جانبا :

ــ ولم يمر العام حتى طار .. هو وجمهوريته الرياسية .

وقالت« عزة » فى شىء من الدهشة :

ــ كان يمكن أن يبقى أكثر من هذا .. كان يمكن أن يقاوم ، ولكنه كان يختبىء فى قصره .. ليسمع من اعوانه ما يرعد فرائصه .. كنت اظنه اكثر من هذا شجاعة .. لقد قضى عليه الخوف .

ورد « حسان » قائلا :

ــ قضى عليه الفساد ، والاستبداد ، وشهوة الحكم ، والمصالح الذاتية .. مصالح الاسرة والمعارف والاصدقاء .. كانت سوريا تحكم بمجموعة من الضباط الاصاغر ..

وقال الأب فى لهجة إشفاق :

ــ لقد قام ببعض الإصلاحات .. شق الشوارع .

وقاطعه « شكيب » فى حنق حاقد :

ــ اعمال تافهة .. إن البلد فى حاجة إلى إصلاح جذرى .

ورد الأب فيما يشبه الدعاء :

ــ عسى أن يقوم به الحكم الجديد .. ربنا يهديهم إلى ما فيه الخير .

ونفخ « شكيب » من انفه نفخة ساخرة .. واجاب متسائلا :

ــ إصلاح جذرى يقوم به هؤلاء الحكام الأكابر المرفهــون .. الإصلاح الجذرى لا يقوم به إلا انقلاب جذرى يقلب اسفل البلد أعلاها ، وأعلاها اسفلها .

وصمت برهة ثم قال كأنه يحدث نفسه :

ــ لن يصلح هذا البلد سوى الشيوعية .. وهى آتية لا ريب فيها .

واجاب الاب فى شىء من الجزع :

— فال الله ولا فالك .

واجابت « عزة » وهى تتساءل فى ابتسامة ساخرة :

— اهذه آخر تعليمات موسكو ؟

ورد عليها « شكيب » فى استهتار :

— ومن اين تتلقين تعليماتك انت ؟

واجابت « عزة » فى حماسة :

— من دمشق .. من هناك ..

— دعى دمشق تنفعك .. ماذا تظنين حزب البعث بقادر ان يفعل ؟

— عندما نضع ايدينا على مقاليد الحكم .. سترى ماذا نفعل .

— لن تروا هذه الفرصة .

— إنها آتية لا ريب فيها .

وضحك الاب .. وضحكنا جميعا ..

وقال الاب ساخرا :

— مباراة على الحكم بين الصغار .

ورد شكيب :

— الصغار سيكبرون .

واجابت « عزة » فى اعتداد :

— الصغار قد كبروا فعلا .

وهز « حسان » راسه فى اسى قائلا :

— شىء محير .. إن المسالة ليست مشكلة بلدنا وحدها إنها مشكلة الوطن العربى كله .. الذى يحتاج إلى انتفاضة كبرى ، تنفض عنه قيود الاستعمار والاستغلال والاحتكار وتطلقه متضامنا فى وحدة كبرى يقيم بناءه للشامخ وسط عالم تتعالى فيه القمم .

ورد شكيب فى شىء من التحدى :

— يحتاج إلى انتفاضة شيوعية .

ورد عليه « حسان » فى حماسة :

— يحتاج إلى انتفاضة من داخله .. انتفاضة لا تستبدل نفوذا خارجيا بنفوذ خارجى .. بل تمنحه قوة ذاتية .. نابعة من نفسه .. من قدرته ، وممكناته ، وطاقاته التى تراكم فوقها الغبار .

وتساءل رياض فى شىء من الحيرة :

— كيف ؟

واجابت « عزة » فى ثقة :

— بوساطتنا نحن .. نحن الذين سنمنحه انتفاضة البعث .

ورد عليها رياض فى شىء من الاستخفاف :

— انت ! ؟ اشك كثيرا .

وقالت « عزة » ضاحكة :

— شاعر الحى لا يسليه .

واجاب رياض فى سخرية :

— شاعر الحى .. فيما يبدو . .لا يهتم إلا بنفسه .. ماذا يصبح هو ، وماذا سيفيد هو .. شاعر الحى كما اعرفه عن يقين ، لا يخطط إلا لذاته ؛ شاعر الحى انانى كبير .

وضحكنا جميعا وبدا كان رياض قد عبر عنا جميعا فيما يراه فى « عزة » ولا نجرؤ على التصريح لها به .

واحمر وجهها قليلا ، ولكنها سرعان ما تمالكت وقالت فى تحد :

— قل ما تشاء ، وسأريك ما نفعل فى الغد القريب .

وقال حسان فى تشكك :

— لست ارى ما ينبىء بشىء فى الغد القريب .. إننا نحتاج إلى قوة من نوع آخر .. قوة نؤمن بها .. وتؤمن بنا .. قوة لا تخدع ولا تضلل .. قوة تلم قوانا المبعثرة .. وفكرنا المشتت ، وتضغط على الزناد ، لتطلقنا كالقذيفة ، لنلحق بركب العالم المتحضر ، ونتخذ مكاننا اللائق بين سوانا من البشر ، نحمل إليهم الخير لا الدمار .

ولم افهم ماذا يقصد « حسان » ، فقد بدا كلامه احلاما بأشياء غير كائنة ، لا يبدو هناك احتمال لوجودها .

ولم يبد ان هناك احدا من الموجودين قد اخذ كلامه مأخذ الجد .

وعبر رياض عن احاسيسنا بقوله :

ــ منى إن تكن حقا .. تكن احسن المنى .

وهز شكيب بقوله فى شىء من المرارة :

ــ لا نريد ان نعيش بها زمنا رغدا ، نريد واقعا .. لا امانى ، ولا احلام .. نريد فأسا نضرب ، لا كفا تدعو .

وانتهت المناقشة .. فقاقيع نفّس بها كل منهم عما فى باطنه ، وعبر بها عما يكبت من امانى ورغبات .

ولا شىء اكثر من هذا .

واحسست بالنسمة الباردة التى تحـــركها مروحة فى الســـماء العريضة فتدفع بها إلى الشرفة هبة وراء هبة .. قد اشتدت قوتها ، وازدادت برودتها .

واحست « ام سلمى » بانتفاضتى فنهضت قائلة :

ــ برد الجو يا اولاد .. هيا بنا إلى الداخل .

ووقف حسان قائلا وهو ينظر إلى الساعة :

ــ جرى الوقت بنا .. الساعة جاوزت الرابعة .

وردت السيدة مؤكدة :

ــ بدرى .

واجاب حسان ضاحكا :

ــ بدرى من عمرك يا خالتى .

وضحكت و « سلمى » على رد « حسان » النسائى .

وأجابته « ام سلمى » فى حبور وجذل كأنما تدافع عنه من سخريتنا بقوله :

ــ امير ، ولسانه كالسكرة .

واستطردت تقول وهى تنظر إلىّ من طرف خفى :

ــ حلال عليها .. العروس التى سينعم الله عليها به .

وكدت ارد عليهـــا قائلة « لتشـــبع به » .. او اى شىء آخر ادفع به عن نفسى تهمة زواجه ، ولكنى لم اجد ما يبرر ردى إلا ان اكون انا عروسته المزمعة ، واكون كالمريب يقول خذونى .

وكانت السيدة الطيبة اكيس من ان تفصح فى مزاحها بأكثر مما قالته ، فتركت المسالة تمر ، وقلت وانا انهض عن الاريكة مستندة إلى ذراع « سلمى » :

ــ اظن انا ايضا اعود ، قبل ان تقلق امى .

ــ لن تقلق امك وهى تعلم انك هنا .

ــ قد تظننى اصبت فى الطريق .

ــ بعد الشر ، سنطلبها فى التليفون لنطمئنها عليك ..

وقالت « سلمى » ضاحكة :

ــ اتظنين انها كانت تسكت علينا حتى الآن لو اصابها القلق ؟ !

ولم تكد « سلمى » تنتهى من قولها حتى دق جرس التليفـــون .. فقفزت « سلمى » من مكانها واندفعت لترد على السائل .. قائلة وهى تضحك :

ــ لابد انها هى .

وقال حسان :

ــ غير معقول ان تنتظر اكثر من هذا .. بغير قلق .

ولم يصعب علىّ ان اميز من كلمات « سلمى » التى كانت ترد بها على التليفون ان السائل هو « امى » .

واسترسلت « سلمى » تقول فى التليفون راجية :

ــ ستبقى للعشاء معنا .

واستنتجت من استمرار توسلها ان « امى » غير موافقة وان العربة فى طريقها إلىّ لتعيدنى إلى البيت .

وعدت إلى البيت والشمس على وشكّ المغيب .. وفى ذهنى آثار

باهتة لمناقشات الشرفة .. لم اكن اشك فى ان الأيام كفيلة بطمس ما تبقى من معالمها .

ولكن الايام والاشهر والسنين التى مرت بعد ذلك .. رسمت فى نفسى المزيد من المعالم .. فقد بدا ذهنى يتفتح للمناقشات السياسية ، وبدات اقبل على قراءة الصحف والكتب .

واخذ إقبالى على القراءة يزداد يوما بعد يوم واحسست فى السنوات التالية وانا امر من عمرى بمرحلة القلق ، ان ساقى العاجزة حبيسة المشد الحديدى تمثل مظهرا من مظاهر النقص الذى يحول بينى وبين الانطلاق فى ميدان الانوثة .. فاحجمت عن خوضه ، واخذت احول ما كان يمكن ان ابذله من اهتمامى بمظهرى .. بشعرى ، ووجهى ، وتغييرات جسدى ، وما يلائمنى من ثياب ، إلى اهتمام بأشياء اخرى .. كان اهم ما فيها القراءة وحب المعرفة .

ولا اظننى استطيع ان انكر .. شعور المرارة الذى كان ينتابنى احيانا .. عندما احس بما فىّ من نقص يمنعنى من التباهى بأحب ما يمكن ان تتباهى به فتاة .. بجمالها وقدرتها على جذب اهتمام الغير .. بالإعجاب ، لا بالعطف او الرثاء .

وبدات ادرك سبب جزع « ابى » علىّ وارتياع « امى » ، عندما لم تنجح العملية ، ولهفتها على القيام بعملية اخرى .

ولم احاول بالطبع انِ ابدى ما ينم عن مشاعرى الجديدة ، ولا ان اسمح لنفسى بالندم على عدم القيام بتجربة اخرى .

على النقيض .. لقد عزمت على ان اروض نفسى على ما اصابنى .. ترويض العالم به ، الراضخ له ، الصابر عليه .. ولم يكن هناك بد والامر كذلك .. ان لحول نفسى القلقة المتلهفة المتطلعة ، إلى ميدان .. لا احس فيه بالنقص ، او بالتخلف .

واستطعت بذلك ان اقرا وافهم اشياء ما كنت لاعرفها لو لم اجد فى القراءة والمعرفة مجالا احول إليه اهتمامى وابذل فيه ما املك من طاقة وجهد .

ولم ترض امى عن هذا .. فما اظنها يئست قط من تحقيق حلمها ، فى عروسها الرشيقة الجميلة ، ولم يضق ابى بإقبالى على القراءة والمعرفة ، فقد كان يرضى بكل ما يريحنى ويسبب لى اى نوع من السعادة ، ولم يحاول كامى ان يحصر امله فى صورة واحدة ، هى صورة العروس .. بل كان يسعد بكل صورة يرانى عليها ، وما دمت انا سعيدة بها .

ولم تكف « خالتى » عن الاستمرار فى تدبير مشروع زواجى بـ « حسان » .. إذ لم تجد فى قط ما يخدش قيمتى كعروس مثالية لابنها ، واستمر إعجابها بى كما هو .. شكلا وموضوعا .

ولم اعد انا اسيغ كثيرا حديثها عن هذا الزواج .. فقد بات نسجى لا يحتمل مثل هذا الحديث الذى لم يزد فى اعتبارى ابدا ، فى اى مرحلة من مراحل العمر .. على انه مزاح .

ومع ذلك لم احاول انااظهر شيئا ما يعبر عن شعورى بالضيق حتى لا اجرح مشاعر « خالتى » ، ولا سيما اننى كنت اثق ان كل ما تفعله وما تقوله لا يصدر — اولا وآخرا — إلا عن حب لى وإعجاب بى .

ولم اكن استطيع ابدا ان ارد حب إنسان وتقديره ، باستخفاف او عدم تقدير .

ومن اجل ذلك .. كان علىّ ان اقبل كل ما يقال فى صمت واستسلام .

وبدات من خلال قراءتى اتتبع الأمور فى بلدى بمزيد من الاهتمام ، وبدات مناقشة الشرفة تتبلور فى ذهنى مع الايام .

بدات اعرف شيئا عن القوة التى تنتسب إليها « عزة » . والقوة التى يتحمس لها « شكيب » ، والقوة التقليدية التى تتنازع الحكم فى البلد ، والتى لا يرى ابى وابو سلمى من قوى شرعية حاكمة للبلد سواها ، والتى تحمى ارضهم ، وتنعش تجارتهم وتعبر عن افكارهم ، وقوة اخرى اكتشفتها لم يعبر عنها احدهم ، وهى القوة التى تريد ان تحكم بالدين او تتدين للحكم .

بدات اعرف بعض ما لتلك القوى وما عليها .. ووجدتنى أتخبط بينها حائرة ، يجذبنى إليها بعض ما لها .. وينفرنى منها كل ما عليها .. ثمة قوة كان بها بريق اخاذ فى ذهنى ، دون ان أعرف عنها اكثر مما قاله « حسان » ، كانت أشبه بالسحر ، تؤخذ به دون ان تفهمه ، القوة التى تؤمن بنا .. بطاقاتنا ، بمقدراتنا ، بأصالتنا كشعب عربى عريق ، قوة لا تخدع ولا تضلل ، تلم قوانا المبعثرة ، وافكارنا المشتتة وتطلقنا كقذيفة ، تحمل الخير لا الدمار .

قوة اخاذة ساحرة .. لم اعــرف من اين تاتى ولا كيف ، ولكننى احسست بها تساور النفوس الحائرة .. الضائعة ، التى تريد ان تنطلق ، ولا تعرف .. من يدق الناقوس ومتى يدقه .. ولا من يفك الإسار ومتى يفكه .

وكنت انا ضمن الحيارى .. صغيرة عرجاء .. لا املك شيئا ولكننى اعرف الكثير واحس بالكثير .

اعجب بعزة بعض الوقت .. وبشكيب بعض الوقت .. ولكنى لم احس بشىء من الاستقرار الفكرى مع اى منهما ، وانا اجد القوة المجهولة الاخاذة التى تحدث عنها حسان تبهر بصرى .. وتسيطر على تفكيرى .

لم استطع ان اعجب إعجابا كاملا باحد .. وانا احاول ان اطابق بينه وبين نموذج فى ذهنى .. رسمه فى خيالى حديث حسان منذ مناقشة الشرفة .

حتى قرات ذات يوم نبا ما سميتموه عنــدكم فى مصر « بصفقة الاسلحة » .

اتعرف كيف تلم الخطوط المشوشة .. لتبرز معالم صورة ؟

اتعرف كيف تتجمع كتل الصلصال .. لتظهر معالم تمثال ؟

اتعرف الدخان الذى يتصاعد من القمقم منبئا بخروج مارد ؟ !

لقد كانت الصفقة التى فكت قيد التبعية واعلنت عن امتلاكنا

الحقيقى لحرية الحركة .. وخلاصنا من الإحساس باننا ذيل يجر .. او تابع يخضع .. وقاصر يتبع .

كانت تلك الصفقة هى الدخان الذى تصاعد من القمقم لينبىء عن خروج المارد .

وانطلق المارد من ارضكم فى صيف ١٩٥٦ .. ليبهرنا بقوته .. بحقيقة وجوده .. ويجسد لنا وهما .. ويحقق لنا حلما .. وليجزم لنا ان القوة التى نتحدث عنها .. كامنية ساحرة .. تبهرنا دون ان نعرف كيف تتحقق او متى .. قد اصبحت حقيقة واقعة .. مفهومة واضحة .

ومن العبث ان اصف لك .. كيف كنا بعد تاميم قنابكم .. ولا كيف اصبح « جمال » فى نفوسنا .

كنا شعلة تتاجج من اجلكم .

وإذا كنتم تحبون « جمال » .. فقد كنا نعبده .

وإذا كان بالنسبة لكم قائدا .. فقد اضحى بالنسبة لنا اسطورة .

ما من جدار .. او باب .. فى ساحة او طريق او دار لم يحمل صورته ..

كانت صورته الملونة التى يميل فيها براسه باسما .. تملأ حوائط الميادين والشوارع والحوارى .

وانعقد مؤتمر الادباء فى دمشق فى ذلك الوقت .

ولست من غواة حفظ التواريخ كأبى « سلمى » حتى اذكر لك تاريخ انعقاده بالضبط .. ولكنى اذكر ان « حسان » اقبل على دارنا ذات يوم خلال ذلك الصيف بعد بضعة اسابيع من إعلان التأميم وقال لى فى حماسة وفرحة :

ـــ مار ايك فيمن يجعلك ترين كل هؤلاء الكتاب الذين تقرئين لهم ؟

وكنت اعرف ان موهبة « حسان » الادبية التى لم اشك فى وجوده عندما قرات ما نشر له من قصص وقصائد خلال إقبالى على القراءة .

كنت اعرف ان تلك الموهبة .. لم تطمس بعد معالم العبط والطيبة والميل إلى النشر المتأصلة فى نفسه منذ الصغر . فقلت فى سخرية :

ــ لقد رأيت صورهم .

ــ يا غبية .. اسألك هل تريدين ان تريهم شخصيا ، وتسلمى عليهم وتتعرفى بهم .

ــ كيف .. ؟

ــ الليلة فى افتتاح مؤتمر الأدباء .

ــ ومن يذهب بى إلى هناك ؟ !

ــ أنا .

ــ ومن يذهب بك انت ؟ !

ونظر إلىّ فى غيظ واجاب :

ــ انا مدرس فى الجامعة . .والا فتتاح فى مدرج الجامعة .

ــ هل يبيح لك هذا .. التسلل إلى حفل الافتتاح ؟ !

ــ اتسلل ؟ ! .. انا مدعو .. كاذيب .

ــ وانا ؟

ــ ضيفتى .

وكدت اقول له « إلهى » ولكنى خشيت أن أجرح حماسته وكبرياءه فقلت له وانا اهز راسى :

ــ لا استطيع ان اذهب متطفلة .

ــ قلت لك ستذهبين معى .

ــ انا لم اعد بعد طفلة تجرنى معك من يدى .. انا الآن فى السادسة عشرة .

ــ من قال إنى سأجرك من يدك .. إن معى لك بطاقة دعوة .

ــ اين هى ؟ !

ومد يده فى جيبه فأخرج بطاقة دعوة سلمها إلىّ قائلا :

ــ ها هى .

ــ هذه بطاقتك ؟ !

ــ ساحصل على غيرها لنفسى .

وامسكت بالبطاقة فى اغتباط وانا اتصور نفسى جالسة وسط كل هؤلاء الذين قرات لهم ، وسألته :

ــ من سيكون هناك ؟ !

ــ كلهم .

وهتفت فى فرحة :

ــ كل الكتاب والشعراء ؟

ــ طبعا .

ــ مثل من ؟ !

ــ ميخائيل نعيمه ، وسهيل إدريس ، ونازك الملائكة ، وامينة السعيد ، ورامى ، وإحسان عبد القدوس ، وعبد الحليم عبد الله ، ويوسف إدريس ، وانيس منصور .

وصمت « حسان » وقد بدا على وجهه الفخر .. كانه صاحب كل هؤلاء .

وعدت انا اتساءل فى فرحة :

ــ سارى كل هؤلاء ؟ !

ــ طبعا .

ــ وطه حسين ؟ !

ــ المفروض ان يأتى .. ولكنه لم يصل بعد .. على اية حال إذا لم يحضر الليلة .. سآخذك إلى بلودان لتريه .. فالمفروض ان يلقى هناك محاضرة .

وملأت السعادة نفسى وانا احس انى اوشك ان اقضى اياما لطيفة .. سأرى هؤلاء الكتاب الذين قرات لهم .. وسأتحدث معهم ، واحصل على توقيعاتهم فى الاوتوجراف واستهديهم صورهم .. وسأذهب إلى بلودان .

وقبل أن يستدير « حسان » للانصراف قال مؤكدا :

ـــ ستحضرين ؟
ـــ طبعا .
ـــ سأنتظرك هناك .
وقبل ان يصل إلى باب الغرفة صحت به فجاة فى لهجة خذلان :
ـــ حسان .
واستدار إلىّ متسائلا :
ـــ ماذا حدث ؟
ـــ لقد تذكرت انى على موعد الليلة للذهاب إلى المعرض مع سلمى :
ـــ اعتذرى لها .
ـــ لا استطيع .. لقد رجوتها انا .. وجعلتها تعتذر عن الذهاب إلى السينما مع اسرتها .
ـــ إذن هاتيها معك .
ـــ وكيف ندخل .. وليس معنا سوى تذكرة واحدة ؟ !
ـــ ساكون واقفا على الباب لادخلكما ، لا تحملى هما .
وخرج « حسان » .. وامسكت بالتليفون اهتف بسلمى :
ـــ سلمى . ساجعلك اليوم ترين كل الكتاب المشاهير .
ولم تبد عليها اية حماسة لقولى وتساءلت ببساطة :
ـــ فى المعرض ؟ !
ـــ لا .. فى مؤتمر الكتاب .
ولم تملك « سلمى » إلا ان تسلم بما اقترحت عليها ، رغم انها كانت تفضل المعرض على الاستماع إلى محاضرات مملة فى مؤتمر .

البقاء للأصلح

لم اشا ان اخذل « سلمى » فيما سبق ان اتفقنا عليه من زيارة المعرض قبل أن يدعونى « حسان » لحضور افتتاح مؤتمر الكتاب ، لا سيما وانا اراها قد سلمت بذهابنا إلى المؤتمر فى شىء من الاسف ، فطلبتها فى الهاتف صباح اليوم التالى وقلت لها :
ـــ ما رايك فى ان نذهب إلى المعرض قبل الذهاب إلى المؤتمر ؟
واجابت « سلمى » فى رنة فرح :
ـــ فكرة مدهشة .. إذا لم تكلفك مشقة او تسبب لك تعبا .
ـــ بالمرة .
ـــ كيف سنلتقى ؟
ـــ سامر عليك فى الساعة الرابعة .. ونمكث فى المعرض حتى يحين موعد افتتاح المؤتمر بعد ذلك .
وصمتت « سلمى » تفكر برهة ثم تساءلت :
ـــ متى يبدأ افتتاح المؤتمر ؟
ـــ فى السادسة .. ولكن المفروض أن نكون هناك قبل الموعد بنصف ساعة .
ـــ ومتى سينتهى ؟

ــ لا اظنه سيستغرق اكثر من ساعتين .

ــ لماذا لا نذهب إلى المعرض بعد انتهائه ؟

وفكرت قليلا .. لم اكن ادرى إلى متى يمكن ان يستمر المؤتمر بالضبط ، ولا كنت أعرف إلى متى يمكن ان يسمح لى بالسهر .. حقيقة أنى لم اعد صغيرة ، وانى كنت استطيع ان اذهب إلى بعض الزيارات وحدى ، ولكن الذهاب إلى المعرض ليلا .. فى موعد لا استطيع تحديده ، متوقف على ساعة انتهاء المؤتمر .. مسألة كانت تحتاج إلى تفكير واستئذان .

ولمحت « ابى » يمر بالحجرة باحثا عن شىء .. وقد سبق أن استأذنت منه ومن والدتى فى الذهاب إلى المؤتمر ، فانتهزت فرصة وجوده وأنا أعرف انه دائما يحاول تشجيعى على الخروج والسير ، وعلى عدم الإحساس بما بى من نقص فسألته قائلة :

ــ هل استطيع ان اذهب إلى المعرض مع سلمى بعد انتهاء المؤتمر ؟

واجاب « ابى » ببساطة :

ــ ولِمَ لا .. !

ــ اخشى ان يتأخر المؤتمر .

وضحك « ابى » وقال بنفس البساطة :

ــ إذا تأخر .. لا تذهبى .

قلت أستوضحه وما زالت « سلمى » معلقة على الجانب الآخر من الهاتف :

ــ إذا تأخرت إلى متى ؟ ..

ــ كم من الوقت تنوين ان تمكثى فى المعرض ؟ !

ــ يتوقف على وقت انتهاء المؤتمر .

ــ اسمعى لا تحيرينى .. لا تتأخرى عن العاشرة .. فى المعرض او المؤتمر .. ايكفيك هذا .. ؟

ــ اجل .

ثم وضعت شفتى فى السماعة وقلت لسلمى :

ــ كما تشائين .. سنذهب إلى المؤتمر ثم المعرض . أمامنا حتى العاشرة .. الا يكفى ذلك ؟ !

ــ كفاية جدا .

وفى الخامسة والنصف كنت اقف بالعربة بباب « سلمى » وضغط السائق « الكلاكس » ، ولم تلبث « سلمى » أن اطلت من الشرفة صائحة :

ــ حالا .

واتخذت « سلمى » مقعدها بجوارى ، وادار السائق العربة ، ثم عبر الكوبرى العريض القائم فى الساحة فوق النهر .. وسار يشق طريقه بين العربات المتزاحمة امام فندق « سميراميس » وحشود المتفرجين أمام باب السينما والمتجهين إلى المعرض ، وبدت النافورات متناثرة فى مجرى « بردى » تندفع منها المياه فى اشكال هندسية مختلفة ، واصطفت عربات اللوز الاخضر والذرة المسلوق .. على سور النهر بالقرب من الساحة .

واتجهت العربة يسارا بعد الفندق متخذة طريقها إلى مبنى الجامعة .

وبدا المبنى نظيفا انيقا فوق الربوة تحيط به الحدائق الخضر .. وهبطنا من العربة ، وصعدنا درجات السلم العريض المفضى إلى الباب الرئيسى وبدا رجال الشرطة يصطفون بالباب ، وكانت « سلمى » تأبى إلا ان تمنحنى ذراعها لأتكىء عليها رغم انى كنت استطيع ان ارفع ساقى بالمشد الحديدى دون حاجة إلى معونة .

ووجدنا بالبهو المفضى إلى المدرج خليطا من كبار المستقبلين الذين وقفوا فى انتظار « رئيس الجمهورية » .. والجمهور الذى اخذ يتدفق إلى المدرج الرئيسى ، وكنت احتفظ بالبطاقة فى يدى .. ولكن لم اجد المرور من الباب يحتاج إليها .. فقد كان الكل يدخلون دون ان يبرز احد بطاقته .. ولمحت « حسان » يقف على مقربة من الباب وهو يتلفت

حوله كائما يبحث عن شيء ، ولم يكد يراني حتى هرع إليّ وقادني و « سلمى » إلى داخل المدرج ووجدته قد شغل ثلاثة مقاعد في الصفوف الجانبية بحقيبته وببضعة كتب اخرجها من داخل الحقيبة ورصها على المقعدين الآخرين .

وكنت اشعر بشيء من الرهبة وانا اتخذ طريقي وسط المقاعد اجر ساقي ، وخيل إليّ أن الانظار كلها تحدق بي فلم احاول ان انظر إلى احد ، وثبت نظري في قفا « حسان » الذي سار امامي يفسح لي الطريق ويقودنا إلى المقاعد التي حجزها .

وجلست .. واحسست بشيء من الطمأنينة عندما اخذت استرق النظر حولي فلم اجد احدا يحفل بي .. أو يلتفت إليّ .

كانت الابصار تتطلع إلى المنصة وإلى الصفوف الاولى حيث جلس الكتاب الضيوف ، وسمعت الألسنة تتهامس بالاسماء التي اعرفها والتي كانت رؤيتها اكثر ما استهواني للحضور .

وبدات انقل البصر بينهم محاولة ان اميز من استطيع معرفته منهم .

وبدا « حسان » يقوم بدور المرشد .. ويستعرض قدرته على معرفتهم .. ويؤكد معرفته الوثيقة بالكثيرين منهم عندما زار القاهرة للتجهيز للدكتوراه .

ومرّ على الوجوه يدلني عليها واحدا بعد واحد .. هذا تعرّف به في الإذاعة المصرية ، وهذه لقيها في المصور ، وذلك دعاه إلى نادي القصة .

وبدات انقل البصر بينهم في فرحة .. وتمنيت لو استطعت ان اذهب إليهم واصافحهم .. فلم يكن احد منهم غريبا عليّ .. وبدا لي أنهم لابد ان يعرفوني من فرط ما عرفت عنهم من كتاباتهم .

ولاح لي بين الوجوه المصطفة للكتاب وجه لم يبد غريبا عني ، ولكني لم اعرف من يكون .. ولا حاول « حسان » ان يعرفني به .

وعدت انظر إلى الوجه .. وجه فتاة يقارب عمرها عمر « عزة »

اخت « سلمى » .. وبدا الوجه سمحا لطيفا .. غير غريب عني .

ولم اشك في اني قد رايت صورتها منشورة من قبل .. ودفعت « حسان » بمرفقي التفت نظره الذي بدا يشد إلى الباب مترقبا حضور رئيس الجمهورية .. وقال لي دون ان يلتفت إليّ :

— ها ..

— من تكون هذه ؟

وكان لابد ان يلتفت إليّ حتى يعرف من اعني .. واشرت باصبعي .. فهتف بي زاجرا :

— لا تشيري هكذا باصبعك .. قولي من تعنين ؟ !

وبدات اعد المقاعد .. وقلت ببطء :

— الرابعة على اليمين في الصف الاول .

واخذ « حسان » يمر ببصره من جديد على مقاعد الصف الاول حتى استقر على المقعد الرابع وبدا يفحص الوجه الذي اعنيه .. واخيرا هز راسه في حيرة .. وعاد يرقب الباب قائلا :

— لا اعرف .. قد تكون زوجة احد الكتاب المصريين .. وقد تكون كاتبة جديدة لا اعرفها .. الست تعنين تلك التي تجلس بين رامي وامينة السعيد ؟ !

— اجل .

— ولماذا تسألين عنها ؟

— لأن وجهها غير غريب عن عيني .

— سأسأل لك عنها .. بعد افتتاح المؤتمر .

وبدانا نسمع جلبة في الخارج ، وبعد برهة دخل الرئيس « شكري القوتلي » . وسمعت « حسان » يهمس إليّ :

— الذي على يمينه عبد الوهاب حومد وزير المعارف ، والذي على يساره .....

ولم اسمع همساته بين ضجيج التصفيق الذى دوى بدخول رئيس الجمهورية .

ومضت برهة قبل ان يهدأ الجمهور .. ثم اعلن افتتاح المؤتمر ، واتجه الرئيس إلى المنصة العريضة المرصعة بالصدف وقد سلطت عليها الاضواء وتوسطتها عدة مكبرات للصوت ووضع عليها كوب ودورق ملىء بالماء وانبسط وراءها العلم السورى ، امسك خطابه بيسراه ووضع يمناه وراء ظهره ثم اخذ فى إلقاء كلمته .

واهتزت القاعة بالتصفيق عندما اكد « رئيس الجمهورية » اننا فى طريقنا إلى وحدة عربية شاملة لا تقف امامها عقبة ولن تثنينا عن عزمنا شدة .. ثم تحدث عن المؤتمر الشعبى لتوحيد النضال القومى فى هذه الظروف الحساسة التى تحيط بالعالم العربى .

وتوالت بعد ذلك كلمات الوفود فتحدث اصحابها عن الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية والأحداث المنيفة التى مرت بها ، وموجات الظلم والتعسف والكره التى تنقض على مصر والجزائر ، وعن المرحلة الحاسمة التى يجتازها العالم فى تاريخه الحديث حيث بدأ عهد مساواة بين الشعوب بعد ان اختلت موازينها وسادت السيطرة والاستعمار والاستغلال ، وطالت رفاهية بعض الشعوب على حساب حرمان البعض الآخر من ادنى درجات القوت .

واكدت الاحاديث ثقة الشعب العربى بنفسه .. بطاقاته الذهنية وقواه المادية ، وإيمانه بأهدافه ، وبقدرته على الحصول على حقه الكامل فى حياة كريمة وسط عالم يسوده الرخاء والسلام .

كلام طيب كثير سمعته فى الحفل ملأنى بالثقة والحماسة ، واعاد إلى ذهنى مناقشة الشرفة وحديث « حســان » الذى بدا لى مبهما غامضا كأضغاث احلام .. عن مشكلة الوطن العربى الذى يحتاج إلى انتفاضة كبرى تنفض عنه قيود الاستعمار والاحتكار ، وتطلقه متضامنا فى وحدة كبرى يقيم بناءه الشامخ وسط عالم تتعالى فيه القمم ، انتفاضة نابعة من نفسه ، من قدرته .. ومن طاقاته التى تراكم فوقها الغبار .

وفى جلستى تلك أشرئب بعنقى واتطلع بعينى إلى المنصة المضيئة ، تتوالى عليها الشفاه الناطقة بأمانينا المؤمنة بوحدتنا وقدرتنا وحقنا .. بدت لى احلام « حسان » وكأنها قد تجسدت واصبحت حقيقة واقعة .. وكأنى بالقاعة الصغيرة قد لمت عالمنا العربى الكبير لتبعثه قويا متماسكا .

وانتهى الحفل واخذت الجماهير فى الانصراف ، وهـرول بى « حسان » محاولا اللحاق بالادباء حتى يمنحنى متعة رؤيتهم عن قـرب والتحدث معهم .

وفى البهو الخارجى استطعنا اللحـاق برامى وامينـة السعيد وصاحبتها التى لم اعرف من تكون رغم ان وجهها لم يكن غريبا عن عينى .

واقتحم « حسان » الطريق إليهم .. وببسـاطة وطيبة قلبه مد يده يشد على ايديهم محييا فى حماسة وفرحة قائلا :

ـــ شرفتم استاذ رامى .. البلد نورت يا دكتورة امينة .

ونظر إلى ثالثتهما فى حيرة ثم استرسل يقول :

ـــ اهلا وسهلا استاذة .

ورد عليه الثلاثة بحماسة لا تقل عن حماسته . ثم استرســل « حسان » يذكرهم بنفسه وبزيارته للقاهرة ، موجها الحديث إلى رامى :

ـــ لقد التقينا فى مسرح الأزبكية ليلة حفل ام كلثوم ، عندما غنت « هجرتك يمكن انسى هواك » .

وانبسطت اسارير « رامى » واكد له انه يذكر لقاءهما تماما .. وإن كنت واثقة انه لا يذكر عن اللقاء شيئا .. وان استماعه إلى « ام كلثوم » وهى تغنى « هجرتك » فى حفلها الشهرى فى مسرح الأزبكية لا يمكن ان يكون حدثا مميزا .. بل لابد ان يكون عملا مستمرا فى حياته .

وانبأ امينة السعيد التى أصر على منحها لقب دكتورة ، كيف التقى

بها فى المصور ، واكدت له بما لا يقبل الشك تذكرها إياه .

ونسينى « حسان » فى غمرة حماسته بأصدقائه الأدباء .. وكان علىّ ان افعل شيئا اقدم به نفسى .. ولم يكن امامى سوى «الأوتوجراف» اتقدم به للتوقيع كوسيلة للتعارف .

وقبل ان امد يدى به .. قدم « رامى » زميلته إلينا بعد ان احس ان « حسان » لا يعرف عنها ما يمكنه من منحها الترحيب اللائق .

قال « رامى » مشيرا إليها :

ــ الأستاذة نادية عبد الفتاح .. الأديبة والناقدة المعروفة .

واندفع إليها « حسان » مهللا فى حماسة :

ــ استاذة نادية .. أهلا وسهلا .. لقد قرات لك كتابك عن الرومانسية فى الأدب الحديث ، وقرات لك ....

واخذ « حسان » يجهد ذهنه محاولا ان يتذكر ما قراه لها ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة شاكرة .

وفى لمح البصر ، استطعت ان اميز من تكون
لقد استطعت ان لري ابتسامتك على شفتيها .

كانت اختك « نادية » ، الأديبة التى حدثتنا عنها خلال جولتك العابرة بنا فى لندن قبل العملية .

والتى تاهت من راسى فى زوايا سحيقة من النسيان ، فلم يدفع بها إلى الذاكرة غير بسمتها التى استطعت ان اميز فيها بسمتك ، والتى جعلتنى ادرك سبب ما توهمته من سابق معرفتى بها .

ولم اجد هناك ما يبرر استعمالى للأتوجراف .. فقد كنت انت .. وسيلة كافية للعبور إليها ، وإلى اصحابها المشهورين ، فطويته فى يدى ، واندفعت إليها متسائلة فى حماسة :

ــ استاذة نادية .. اخت حمدى ؟

وبدا عليها شيء من الدهشة ، سرعان ما بددتها ابتسامة عريضة اقبلت علىّ بها وهى تبسط كفها مرحبة بعد ان لمحت ساقى ، وبدا عليها انها قد عرفت شيئا عنى .. وقالت فى لهجة رقيقة :

ــ اهلا وسهلا .. لقد كتبت إلىّ خالتى عنك . وكنت احاول ان اعرف منذ وصلت كيف اتصل بكم ؟

وتساءل « حسان » فى فرحة :

ــ حقيقة إذن لن ندعك حتى تشرفونا بالزيارة .

ثم التفت إلى الباقين مؤكدا دعوته :

ــ تزوروننا الليلة للعشاء ؟ !

واعتذر « رامى » مؤكدا ارتباطه بموعد سابق ، وكانت « امينة السعيد » قد تشاغلت عنا بآخرين .

وقبل ان تفتح « نادية » شفتيها بالاعتذار ، اقبلت عليها اقول راجية :

ــ ستسر ماما كثيرا عندما تراك .. هذه فرصة طيبة تزوريننا فيها ، فلا اظننا سنستطيع العثور عليك بعد ذاك .

وضحكت نادية قائلة :

ــ كان المفروض ان نزور المعرض بعد حفل الافتتاح .

وهتف حسان فى حماسة :

ــ نحن ايضا سنقوم بجولة فى المعرض .

واردفت اتمم حديثه قائلة :

ــ نذهب سويا إلى المعرض ، ثم نعود إلى البيت للعشاء معا .

واجابت نادية مستسلمة :

ــ امركما .

واستأذنت من صاحبيها ثم سارت معا .

وكانت « سلمى » طوال الوقت قد وقفت جانبا ترقبنا فى هدوء ، فقدمتها إلى « نادية » قائلة :

ــ سلمى .. صديقتى .

وحيتها نادية فى رقة ، واتجهنا جميعا إلى الباب ، وهبطنا الدرج العريض متجهين إلى المعرض ، نافذين إليه من الباب الخلفى القريب من باب الجامعة ، بعد أن سألت السائق ان ينتظرنا عند الباب الرئيسى .

وكان الزحام على أشده ، زرافات .. يدخل الناس ويخرجون ، وعربات الأطعمة تقف على الطريق المجاور للنهر ، والأقدام المتزاحمة تثير غبار الطريق ، وتطأ الأوراق الممزقة المختلطة بقشور الفاكهة التى ملأت الأرض .

ودلفنا من الباب وسط الأجساد المتلاصقة المحشورة بالمدخل ، وعبرنا الممر إلى أرض المعرض الفسيحة .. وبدت لنا النافورة الكبرى التى تتوسط الفناء وقد انعكست الأنوار الملونة على مياهها الهادرة .

وبدا المعرض متدفقا بالحياة .. بضائع مصفوفة ، وآلات مرصوصة ، والناس تتفرج على الناس .. عيون تحدق فى عيون ، وأقدام تطوى الأرض بلا ملل ، تروح وتغدو ، يلاحق بعضها البعض ، كأنها طوابير تستعرض طوابير ، ومقاه ومطاعم تملأ رحاب المعرض . وأفواه تمضغ وأزوار تبتلع ، والحياة تمارس فى حماسة .. وكأن أصحابها يلحقون بآخر زادهم .

وأخذنا ننتقل من مبنى إلى مبنى ، نمر بالآلات والبضائع ، ونحدق فى الناس ويحدق فينا الناس .. يثرثر « حسان » بما قرأ وما كتب وما ينوى أن يقرأ ويكتب ، وأثرثر بما عرفت عن أخيها وما فعلته لنا خالتها ، وتثرثر هى بما حدث فى مصر ، عقب التأميم ، وتنصت لنا « سلمى » باسمة راضية .

ولاح مبنى الاتحاد السوفييتى فى أرض المعرض ضخما فسيحا ، وبجواره مبنى تشيكوسلوفاكيا ، والصين ، وبعض الدول الشيوعية .. وقال « حسان » معلقا وهو يضحك :

— الكتلة الشيوعية تستعرض عضلاتها ..

وأجابته نادية :

— دعها تستعرض ، ما دامت تعاوننا فى الخلاص من قبضة الغرب .

— من أجل الوقوع فى قبضتها !؟

— أحدث هذا ؟ !

— نحن متهمون به .

— أهو حقيقة ؟

— ليس بعد .

— أيمكن أن يصبح حقيقة ؟

— لو تهاوننا عنه .

— إذن علينا أن نتقبل العون فى حذر .

— دون أن ندفع الثمن ؟

— دون أن ندفع ثمنا عينيا من حريتنا ، علينا أن نصافح اليد الممدودة إلينا ، دون أن نسترخى فى قبضتها .. لقد حررتنا صفقة السلاح من قبضة الغرب ، دون أن نجعل منها قبضة على أعناقنا .. لقد أيقظتنا معركة « الصابحة » على ما يمكن أن تفعله بنا إسرائيل ، إذا استمر بنا الحال عزلا من السلاح الذى يتدفق علينا من الغرب .. فكان علينا أن نؤمّن أنفسنا .

وأجاب حسان فى ثقة :

— لقد أمنتم الوطن العربى كله .. لم يعد بيننا أحد ينظر لمصر على أنها جزء مستقل عن الوطن العربى .. كلنا بتنا نحس أن الوطن العربى جسد واحد .. لم نكن فى أى وقت أكثر إحساسا بالوحدة الشاملة ورغبة فيها منا الآن .. إن هذا إحساس الشعب كله .

— بكل ما فيه من اتجاهات وميول ؟

وتردد حسان قبل أن يجيبها على سؤالها ، وكنا قد وصلنا إلى مقهى قريب من الباب فقال حسان :

— نجلس لنشرب شيئا ، أم نعود إلى البيت ؟

وضحكت نادية وأجابت فى خفة دم مصرية :

— هذه عزومة دمياطية .

وسألتها ضاحكة :

— ما هى العزومة الدمياطية ؟

— يدعوك الدمياطى إلى بيته ، وقبل العشاء يسألك .. أتتعشين

ام تنامين خنيفة افضل ، ولا تجدين امامك سوى ان تختارى العرض الأفضل ، وتوفرى له العشاء .

ثم نظرت إلى « حسان » قائلة :

ـــ نذهب إلى البيت افضل لجيبك .

وقهقه « حسان » قائلا :

ـــ لا والله لم اقصد .. لقد خشيت ان اصدكم عن العشاء .

وتذكرت انى سأفاجىء امى بدعوة « نادية » على العشاء ، وتصورت مدى ما يمكن ان اسببه لها من إزعاج بهذه الدعوة المفاجئة .. وحاولت ان اتذكر ماذا تغديت ، وهل يمكن ان يكون قد تبقى لدينا ما يصلح لتدبير مائدة عشاء مناسبة .

ثم خطر ببالى ان اذهب لاحدث « امى » فى اقرب تليفون وانذرها بالدعوة ، ولكنى لم اجد من الوقت ما يمكن ان يمنحها فرصة تدبير شىء ، وخشيت ان تامرنى بان الغى دعوتى واؤجلها إلى الغد .

ولم اجد مفرا من ان اطرد المشكلة من ذهنى .. واتركها لله . يعاون امى على حلها .

واتجهنا إلى الباب ، وعبرنا النهر ، ولاحت النوافير فى مجراه .. تتدفق مياهها تحت الاضواء الملونة بطريقة اخاذة ، وبدت فى الجانب الآخر من الطريق ساحة الملاهى اغرقتها الاضواء وعـــلا منها صخب وضجيج ودخان وتراب ولاحت بعض اجهزتها متحركة فى الهواء ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة .

وتساءل حسان ، ونحن نعبر الطريق إلى العربة :

ـــ اتحبون ان نذهب إلى الملاهى ؟

وهزت سلمى راسها بالنفى ، فقد كانت ترفض الذهـــاب إلى الملاهى لمجرد إحساسها بانها تشعرنى ببعض العجز فى الاستمتاع بلعباتها .

وقلت وانا انظر إلى الساعة :

ـــ إن الوقت قد حان للعودة .

وجلسنا فى العربة .. « حسان » بجوار السائق .. وانا ونادية وسلمى فى المقعد الخلفى ، وقبل ان تتحرك العربة قالت سلمى :

ـــ ايمكن ان توصلونى إلى البيت ؟

واجبتها راجية :

ـــ بعد ان تتناولى العشاء معنا .

ـــ الوقت متاخر .. وماما ستنشغل علىّ .

ـــ ساحدثها فى التليفون .

ـــ ولكن ...

وقاطعتها نادية قائلة فى رقة :

ـــ من اجل ضيفتك الجديدة .

واحمر وجه « سلمى » واجابت ضاحكة :

ـــ حاضر .

وانطلقنا إلى البيت .. ودارت بنا العربة صاعدة الطريق إلى سفح الجبل .. وتوقفت امام باب البيت .. وهبطنا للدخول .

وقبل ان تدخل « نادية » البيت وقفت تقلب البصر فى انوار المدينة المتناثرة اسفل الجبل .. وانوار الجبل التى رصعت سفحه .. وقالت فى إعجاب :

ـــ مدهش .. اتمنى لو عشت هنا .

وقال حسان فى حرارة :

ـــ ولِمَ لا .. هنا بلدكِ .. والقاهرة بلدى .

وهزت نادية راسها قائلة فى إخلاص :

ـــ حقيقة لم احس فى بلد انى لم اغادر القاهرة .. كما احسست هنا .. كل شىء عندكم يملأ نفسى إحساسا بوطنى .. الشوارع ولافتات الحوانيت .. والناس فى الطرقات .. واحاسيس المحبة التى تغمرنى كلما جلست معكم .

ونظر إليها حسان ماخوذا .. نظر إليها بطريقة شعرت منها ان شيئا ما قد نبت فى نفسه .

وكان معذورا .. فقد كانت « نادية » مخلوقا يحب . ولست اعرف حتى الآن سر جاذبيتها .

لقد قلت لنفسى فى بعض الاحيان إن جاذبيتها كانت — بالنسبة لى — فى شبهها الشديد بك .. ولكن بالنسبة لغيرى .. ما سرها ؟ !

اهى بسمتها الحلوة .. ام قسماتها الرقيقة .. ام ذكاؤها المفرط ، وقدرتها الفائقة فى الحديث ؟ !

ام كل هذا معا ؟ !

على اى حال .. لقد كان اثرها واضحا فى تصرفات « حسان » .. فى انبهاره .. وإقباله .. وفرحته .

وكان واضحا فى « سلمى » .. عندما عرفنـــا منها انهـــا تعمل بالتدريس ، فهتفت سلمى :

— ليتك تدرسين لنا .

واجابت نادية ضاحكة :

— انا مدرسة قاسية ..

ورددت عليها :

— غير معقول .. لابد انك تدللين تلميذاتك .

— إنى احبهن .

— ولابد انهن يحببنك ؟ !

— جائز .

ودخلنا البيت .

ودهشت « امى » عندما وجدت مصرية معى .. وبدت عليهـــا مظاهر الضيق بمفاجأتى .. ولكنها لم تكد تعلم انها ابنة اخت « لطيفة » حتى غلبت فرحتها بها ضيقها بالمفاجأة .

واقبل « ابى » مهللا .

رحب بها .. كقريبة « للطيفة » .. صاحبة الفضل الذى لا ينساه فى محنته .

بمرة .. كانثى حلوة .

وانا اعرف ابى جيدا .

عاقل .. عاقل .. متزن .. متزن .. ولكن عقله واتزانه لم يحولا ابدا .. بينه وبين الانشراح بوجـــود الضيفة الحلوة ، والابتهـــاج بضيافتها .

وسالت امى « نادية » عن خالتها .

وابدت نادية فى الاحاديث النسائية نفس القدرة التى ابدتهـــا فى المناقشة السياسية .

وتبارى « حسان » و « ابى » فى إكرام « نادية » .. وفى الحديث معها .

واستطاع « حسان » فى النهاية ان يجتذب « نادية » مرة اخرى إلى مناقشته الاولى .. عندما سالها قائلا :

— كنت تسالين .. هل يحس جميع الشعب برغبة فى الوحدة العربية بكافة ميوله واتجاهاته ؟

والتفتت إليه « نادية » فى شىء من الاهتمام :

— اجل .. سالتك ولم تجب .

وبدا التفكير على وجه « حسان » ثم اجاب فى بطء :

— الواقع ان الإجابة .. هى نعم .. بكل ميوله واتجاهاته .. ولكن لماذا ! ؟ وإلى اى مدى ؟ ! تلك هى المشكلة .

وهزت نادية راسها متسائلة :

— ماذا تعنى ؟

— اعنى ان الشيوعيين يؤيدون القومية العربية والوحدة العربية .. والوحدة العربية .. والبعثيون يؤيدونها ، والرجعيون ايضا يؤيدونها .. ولكن .. لماذا يؤيدها كل هؤلاء .. وإلى اى مدى يمكن ان يسيروا

واضعين ايديهم فى ايدى الجماهير التى تطلب الوحدة من اعماقها .. تلك هى المشكلة ؟ !

وابتسمت نادية وقالت :

— مطلوب تفسير .. لقد فسرت الماء .

واكمل ابى ضاحكا :

— بعد الجهد بالماء .. تلك هى عادته .

ورد حسان وقد بدت عليه معالم التفكير :

— اعتقد ان الكل يحس انه فى حاجة إلى التعاون مع القومية العربية .. من اجل المحافظة على كيانه .. والقضاء على خصم مشترك .. هو الاستعمار .. وعندما يقضى على الاستعمار .. يثبت كل منهم قدمه ويستدير ليقضى على الآخرين .

ونظر إليه ابى ضاحكا وقال :

— هكذا ؟ !

— اجل .

وقالت نادية :

— الا تبالغ فى سوء الظن ؟

— انا اعرفهم جيدا .

— على اية حال .. كل من يعاون فى القضاء على الخصم المشترك فى هذه المرحلة .. يجب ان تقبل معونته .

وضحك حسان قائلا :

— على العين والراس .

وردت نادية :

— والبقاء بعد ذلك للأصلح .

وكانت امى تدير معركة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا الغـــداء ، لتجهيز مائدة عشاء لا يخجلها امام الضيفة المصرية .

واقبلت علينا تتعثر من الخجل وهى تقول :

— تفضلوا .. ناكل لقمة .. على ما قسم .

وضحكت نادية وهى ترى المائدة مكتظة بالأطعمة .. وقالت :

— على ما قسم .. كثير .. اكثر مما يجب .

وتمتمت أمى معتذرة :

— غدا .. ستتغدين معنا .

واجابت نادية فى رقة :

— حاضر .

النهر والجبل

انتهى مؤتمر الأدباء .. وكنت ألقى « نادية » خلاله فى كل يوم من أيامه إما فى بلودان وإما عندنا فى دمشق .. وتوطدت أواصر الصداقة بيننا وأحسسنا ونحن نودعها بأننا نودع صديقا عزيزا طالت صحبتنا له .

ووقفنا نلوح لها وهى تسير تجاه الطائرة وتلتفت إلينا بين آونة وأخرى .

وهتف بها حسان :

— ستعودين ثانية ؟

— طبعا .

وعادت تلتفت إلينا ملوحة بيدها وهى تهتف :

— وسأنتظركم فى القاهرة .

وأكد « حسان » فى حماسة :

— قريبا جدا .

ورحلت عنا نادية .. ولم نستطع أن نفى بوعدنا لها .. فقد كان العدوان الآثم أقرب إلى مصر منا ، ولم تمض بضعة أسابيع حتى انقضت قوى الطغيان على مصر تمارس أحمق أعمال البربرية الطائشة فى القرن العشرين .

ولست فى حاجة إلى أن أشرح لك أحاسيسنا نحوكم وقتذاك .. لقد جسد العدوان عليكم .. الصلة الموهومة التى كان يتحدث عنها « حسان » وغيره من الشباب المتحمس ، صلة القومية العربية .. صلة الأمة الواحده .. أو الأسرة الواحدة .. أو الجسد الواحد .. الذى يشك أصبعه فتصرخ شفتاه .

كان العدوان عليكم ، عدوانا علينا .. نزلت الضربة بكم .. وصدرت الآهات من شفاهنا .

وأقبل علينا « حسان » يومذاك وصدره يغلى بالغضب قائلا فى عزم :

— لقد قررت التطوع .

ورفعت خالتى « حفيظة » حاجبيها متسائلة فى دهشة :

— تتطوع ؟

— أجل .. سأذهب للدفاع عن بورسعيد .

وهزت « خالتى » رأسها فى ضيق :

— كفى حماقة يا حسان .. ماذا تفعل أنت لبورسعيد .

— ما يفعل أهلها .. سأشارك فى صد الإنجليز والفرنسيين .. سآخذ بثأرنا من الاستعمار الفرنسى .

ورد عليه أبوه قائلا بتؤدة :

— هذه الأمور لا تؤخذ بمثل هذا الهوس .. كيف تذهب وكيف تحارب .. نحن كلنا نشعر بأن قلوبنا معهم .

وأجاب « حسان » فى انفعال :

— قلوبنا لا تكفى .. يجب أن تكون بسواعدنا .. وبرءوسنا .. وأعناقنا .

وترك « حسان » الغرفة فى ضيق .

ولم يكن « رياض » أخو « سلمى » أقل منه حماسة ... ولكنه كان أكثر قدرة وفهما .. وكان يتحدث كعسكرى يعرف عن القتال أكثر مما يعرف « حسان » .

ونسفت أنابيب البترول .. وقطعت علاقاتنا مع دول العدوان .

وهبت سوريا كلها .. وقد اشتعلت حماسة .

وصمدتم للمعركة ، وارتطمت سكين العدوان التى خالت ارضكم قطعة زبد .. بصخر مقاومتكم .

ووقف قائدكم يواجه مارد الاستعمار فى صلابة وإصرار لم ينحن .. ولم يهن .. ولم تلن قناته .

وهزم إيمانه بحقه .. كل أسلحة الباطل والبهتان .. وبهرت صلابته وصلابتكم العالم كله ، ونظر إليكم مشدوها مأخوذا .. وانهارت اسطورة القوة البربرية الغاشمة .. وبرز مكانها الحق الذى يعلو القوة ، والطغيان ، والسلاح .

ولم تطل وقفة اللص متلبسا بجريمته طويلا فى ارضكم بعد أن وقفتم فى وجهه .. وفضحتم عدوانه .. وكشفتم أباطيله .

جرر اذيال الخيبة .. وعاد مطاطىء الرأس مهيض الجناح .

ووقفتم انتم تنفضـــون غبـــار المعركة وتلعقون جراحها ، وبدأت أواصر أشد تربطنا بكم .. وأحاسيس أقوى .. تشدنا وإياكم .. لقد وجد كل منا فى صاحبه سنده فى الشدة .. وملاذه فى الضراء .

وبدأنا نحن نعانى الشدة .. لم تكن شدة صريحة .. واضحة حاسمة كالشدة التى مرت بكم ، ولكنها كانت صراعا طويلا مريرا .

وبلغ الصراع اشده فى أواخر العام الذى انتهت فيه معركتكم عام ١٩٥٧ .

وبدأ الصراع بين الشرق والغرب يتخذ ارضنا ميدانا لمعركته ...

واحس الغرب ان الشرق قد كسب ارضا لابد من طرده منها وحصل على نفوذ لابد من سلبه إياه .

وبدا الشعب كله يستعد لمعركة المصير .. وامتلأت معسكرات المقاومة الشعبية بالمتطوعين .

ولم نشعر قط اننا نخوض معركة المصير وحدنا .

كنا نحس ان المشاعر التى تدفقت منا إليكم فى معركتكم عادت تتدفق منكم إلينا فى معركتنا .

ووقفت القوات التركية تهددنا على الحدود الشمالية .

وراح الأسطول الامريكى يعرض عضلاته متبخترا امام بيروت .

وفى نفس الوقت وصل جنودكم إلينا ليخوضوا معنا معركة الدفاع .. وليقفوا مع جنودنا جنبا إلى جنب فى الشمال والجنوب .. ليتشاركوا الجراح .. ويتبادلوا الدماء المراقة من أجل ارضنا الحرة الطيبة .

وفى ذلك الوقت حانت لى أول فرصة لزيارة مصر .

بدأت الفرصة بخبر قراه أبى فى إحدى الصحف المصرية ، واخذ يردده بصوت مرتفع كأنه يحاول ان يقلبه فى ذهنه .

ولم يكن للنبأ صلة بالصراع الذى نخوضـــه او القوات التركيـــة المحتشدة على الحدود .. او الأسطول الامريكى المتبختر فى مياه البحر الأبيض .

بل كان الخبر مجرد سطور قلائل عن زيارة احد مشاهير اطباء العظام فى العالم للقاهرة خلال الأسابيع القادمة للقيام ببعض العمليات الجراحية والاستشارات الطبية .

وكان الوقت قبيل العشاء ، وأمى تتشاغل مع « حنيفة » بترتيب المائدة وكانت خالتى « حنيظة » تجلس امام مدفأة كهربائية جديدة احضرها أبى قد وضعت فيها ما يشبه الجمرات فى داخلها ، وعلى مقربة منا جلس « حسان » يقلب كتابا فى يده .

وكان أكتوبر قد أقبل وجر معه بوادر الشتاء .

ووجدت « أمى » ترهف سمعها إلى الخبر الذى قراه أبى بصوت عال ، ثم تقذف بالصحيفة على المنضدة بجواره .

واستدارت « أمى » ثم اقبلت تجاهنا وقالت « لأبى » ببساطة :

ــ وددت لو سنحت لنا الفرصة لزيارة مصر .. لقد وعدتنى دائما بأن تأخذنى إلى هناك .

ونظرت إليها بطرف عينى فقد استطعت بسهولة ان اعرف ما يدور بذهنها ، وقلت لها متسائلة فى شىء من السخرية :

ــ لنرى طبيب العظام ؟ !

ــ ولِمَ لا ؟ ! فرصة طيبة .. لعله يشير علينا براى .

وتساءلت فى ضيق :

ــ راى فى ماذا ؟

ولم يحر احد منهم جوابا .. وكان اجراهم علىّ ابى فقال :

ــ لا ضرر ابدا من الاستشارة .

واجبت فى عناد :

ــ قلت لكم إنى راضية بحالتى .

ــ نحن ايضا راضون برضائك .. ونسأل الله المزيد منه .

ــ علام الاستشارة إذن ؟

ــ قد يكون له راى جديد فى ...

وقلت محاولة ان اضع حدا للمناقشة :

ــ جديد ام قديم ، لقد قلت لكم إنى لن احاول ابدا تكرار التجربة التى مررت بها فى لندن .

وتساءلت « خالتى » فى دهشة :

ــ يا سهير .. لِمَ لا نحاول ؟

ــ ولِمَ نحاول ؟

ــ لكى .. لكى .. اعنى لكى تحسى انت انك افضل .

ــ لست اريد ان اكون افضل مما انا .

ــ ولكننا نحن نريد .

وحاولت « خالتى » ان تدخل المناقشة فى جو من المرح فأردفت ضاحكة :

ــ لا تنسى انى حماتك ، ولى عليك حق زوجة الابن .

وزاد مزاحها من إحساسى بالضيق فقلت فى شىء من الحدة :

ــ انا لا احب الحديث فى هذا الموضوع .

واستمرت « خالتى » تقول فى لهجتها المرحة المازحة :

ــ ابدات تخجلين منه ؟

ــ ليس خجلا .

ــ ماذا إذن ؟

ــ لا احب المزاح فى مثل هذه الأشياء .

وقهقهت « خالتى » ضاحكة وردت قائلة :

ــ هذا ليس بمزاح .. إنه جد .. لن أتنازل ابدا عن زواجك من حسان .

وكرهت الاسترسال فى الموضوع ، فقلت فى لهجة اصرار لكى اضع حدا لاى محاولة لطرقة ثانية :

ــ انا لا اريد الزواج .. لن اتزوج .

ولم يكن « حسان » قد نبس بكلمة .

فساله « ابى » ضاحكا :

ــ وانت يا حسان ؟ ما رايك فى حديث امك ؟

وقال « حسان » باستخفاف :

ــ لعب امهات .. ليس عندها غير حديث الزواج هى وخالتى .. انا ايضا لا افكر فى الزواج ابدا .

وأجاب « أبى » وهو يهز راسه باسما :

ــ معك حق .. تريح نفسك .

ونظرت « امى » إلى « أبى » فى غيظ متسائلة :

ــ ولماذا لم ترح انت نفسك ؟ !

ــ مكره اخاك .. لا بطل .

ــ ومن اكرهك ؟

ــ سواد عينيك .

ونظرت إليه « امى » شزرا ثم عادت تتساءل :

ــ متى ستذهب بنا إلى مصر ؟

واجبت انا قبل ان يجيب هو :

— إذا كان من اجل الطبيب فلن اذهب .

ورد حسان :

— نذهب لزيارة نادية واخيها ، ونحضر مؤتمر الادباء الثالث الذى سيعقد فى القاهرة فى الشهر القادم .

واجبت على الفور :

— موافقة .. بشرط الا اذهب لهذا الطبيب .

وردت « أمى » فى حدة :

— ما هذا العناد .. لماذا لا تذهبين إليه ؟

— قلت لكم لن اعمل عملية .

وتدخل « ابى » قائلا :

— لا ضرورة لعملية .. فقد يشير علينا باى نوع من العلاج .. تدليك بالكهرباء .. علاج طبيعى .

وقال « حسان » فى إلحاح :

— وافقى يا غبية .. نذهب ويحلها ربنا هناك .. لقد وعدنا نادية ان نزورها .. وفرصة طيبة ان نحضر المؤتمر ونراها .

ونظرت خالتى « حفيظة » إلى ابنها وقالت فى سخرية :

— لماذا كل هذا الاهتمام بالست نادية ؟ !

واجاب « حسان » بنفس السخرية :

— زميلتى فى الأدب .

— فقط ؟

واجاب « ابى » ضاحكا :

— ودمها خفيف .

وردت « خالتى » وهى تهز راسها فى غيظ :

— اكلت عقلكم ؟ !

وقلت ادافع عن نادية :

— إنها حقيقة لطيفة يا خالتى .

ونظرت إلى فى غيظ قائلة :

— هى لطيفة .. وانت عبيطة .

وفهمت ما تعنى « خالتى » . وادركت انها ما زالت تصر على انى زوجة « حسان » ، وانى عبيطة » لانى تركت « نادية » تاكل عقل زوجى .. ولم ارد عليها ، وادعيت انى لم افهم حتى لا تدخل فى مناقشة جديدة حول الزواج المزعوم .

وانتهى الحديث عن السفر إلى القاهرة ليلتذاك .. ومرت بضعة ايام خلت فيها ان الأمر قد انتهى عند هذا الحد ، حتى دخل ابى ذات يوم قبل الظهيرة وقبل ان يستقر بجوارنا على المائدة قال :

— حجزنا على الطائرة المسافرة غدا إلى القاهرة .

ونظرت إليه فى دهشة :

— استسافر حقا ؟

وقال لى ضاحكا :

— ألم نتفق ؟

ولم نكن قد اتفقنا على شىء ، ولكنى ادركت أنه اتفق مع « أمى » التى استقر فى ذهنها خبر الطبيب العالمى للعظام الذى سيزور القاهرة .. فأضاء لها بصيصا من الأمل ، فلم تسترح حتى اتفقت مع « أبى » ودبرا معا زيارتنا للقاهرة .

وفى اليوم التالى كنا نجلس فى البهو الضيق للمطار على المقعد الجلدى الطويل ، وكانت « خالتى حفيظة » قد قررت أن تصحبنا مع « حسان » .. وجلست بينهما وبين « أمى » وقد شرد ذهنى فيما تركته ورائى فى دمشق وما أوشك ان القاه فى القاهرة .

ولم تكن الزيارة الأولى لخالتى لمصر ، فقد كانت لا تفتأ تنتهز الفرص حتى تطير إلى هناك لتزور معارفها من الأسر المصرية وتعقد صلات جديدة مع معارف جدد وتوثق الروابط بين الجمعيات النسائية التى تشترك فيها والجمعيات المشابهة فى القاهرة .

وقالت « خالتى » تثرثر لتضيع الوقت حتى ينتهى « حسان »

و « ابى » من إجراءات السفر فى الجمرك وفى الجوازات :

ــ لو كان الوقت مبكرا لذهبت بكم إلى الإسكندرية ، وأريتكم بحرها الجميل .

وقلت متسائلة أشاركها فى الثرثرة :

ــ ولماذا لا نذهب الآن ؟ !

ــ اغلب المصيفين قد غادروها إلى القاهرة .. وسنجد الشواطىء خالية .

وكانت امى بعيدة بذهنها كل البعد عما نتحدث فيه .. كانت تفكر فى امور اهم بالنسبة إليها من الإسكندرية وشواطئها الخالية وبحرها الجميل .

وسألتها « خالتى » محاولة انتزاعها من شرودها :

ــ اتحبين الذهاب إلى الإسكندرية يا فاطمة ؟

واجابت « امى » بسؤال ابعد ما يكون عن موضوع الحديث قائلة :

ــ اتظنينا سنجد الطبيب ما زال فى القاهرة ؟ !

ونظرت إليها فى غيظ ، وقلت لها :

ــ قلت لكم إنى لن اذهب للطبيب .

ولم تعلق « امى » على قولى واستمرت تسائل خالتى بقولها :

ــ اتظنين اننا سنلحق به هناك ؟ !

واجابت « خالتى » مطمئنة إياها :

ــ طبعا .. فالمفروض انه سيمكث حسب قول الصحف بضعة اسابيع ولم يمض اسبوع على اليوم الذى قرانا فيه الخبر .

وعادت امى إلى شرودها ، واقبل ابى ووراءه « حسان » وصوت الميكروفون يعلو مؤذنا بقيام الطائرة .

وحلقت بنا الطائرة واخذت دور دمشق وقبابها التى تقبع فى حضن الجبل تتضاءل ، وبدت لنا خضرة الغوطة فسيحة منبسطة .. واتجهت الطائرة إلى بيروت وتركت الجبال الصفر المحاطة بالمزارع المترامية فى

الوديان حول مجارى المياه واخذت الخضرة تكسو السفوح والقمم ، وسرعان ما بدا السهل الاخضر الذى ينبسط حتى جبال لبنان التى علت قممها الثلوج البيض كأنها رغاوى الحليب .

وبدت بيوت بيروت تمتد وراء السفح الآخر من الجبال .. ثم اختفى ذلك كله لتبدو اسفلنا رقعة زرقاء مجعدة تحجبها نتف من السحب البيض تتلاحق على وجهها هنا وهناك .

ولم اجد جديدا ارقبه من نافذة الطائرة .. فعدت استرخى فى مقعدى ، الوك قطعة من الحلوى واقلب المجلات التى ابتعناها فى المطار .

ووقع بصرى وانا اقلب الصفحات على صورة دفعت إلى شفتى صيحة فرح ومددت يدى بالمجلة إلى « حسان » الذى اتخذ مجلسه بجوارى وقلت له :

ــ انظر .

وارتسمت على شفتى « حسان » ابتسامة عريضة وهو ينظر إلى الصورة واختطف المجلة من يدى واقبل على قراءتها فى لهفة .

وهزت خالتى رأسها متسائلة .

فأجبتها ضاحكة :

ــ صورة نادية .

وقلبت « خالتى » شفتها السفلى ورفعت حاجبيها مبدية دهشتها وسخريتها من كل هذا الاهتمام الذى تلقاه « نادية » منا .

ولم يكن هناك شك فى ان « خالتى » قد ادركت بإحساس المراة ان « نادية » قد استرعت اهتمام الرجل فى « حسان » وانها قد اثارت فى مشاعره شيئا لم افلح انا قط فى إثارته .

ولم يرضها هذا بالطبع .. ولم يرضها اكثر منه ان اشجعه انا على الاهتمام بها واعاون على دفعه نحوها .. بطريقة تؤكد تماما انى لا اكاد اشعر بأن « حسان » يخصنى ، او ان هناك اى احتمال لان احس

نحوه بای إحساس يمكن ان يدفعنى إلى محاولة الاحتفاظ به او الغيرة عليـــه .

ورغم ان « خالتى » كانت تعتبر ان هذا التصرف لم يكن إلا مظهرا من مظاهر عدم النضج ، أو على حد قولها « العبط » فقد وجدته يثير قلقها وضيقها ، واحسست بأنه قلل من قدر الحماسة الذى كان مفروضا ان تلقى « نادية » به باعتبارها قريبة صديقتها العزيزة « لطيفة » ، التى كانت هى نفسها السبب فى معرفتنا بها .

ولم القِ بالا إلى ضيق « خالتى » .. فقد كنت اعتبر مشروعها لزواجنا وهما كاذبا .. لن تلبث هى نفسها ان تكتشف ان من العبث الإصرار على التفكير فيه .. والتدبير له .

وعدت اشرد فى شئونى البسيطة الخاصة والعامة .. المدرسة و « سلمى » .. والرغبة التى ساورتنا فى الاشتراك فى معسكرات المقاومة الشعبية .. ورفضها فكرة الاشتراك .. خشية ان تكون ساقى عقبة فى سبيل اشتراكى فأتضايق .. ولكنى كنت اصر على الاشتراك مؤكدة ان ساقى لا تحرمنى من اى شىء .. اللهم إلا من مظاهر الجمال والرشاقة التى استطعت ان اروض نفسى على تناسيها .. والاستغناء عنهـــا .

واستدعانى من شرودى صوت المضيفة تهتف :

ــ تمر الطائرة الآن ببورسعيد .

واسرعت اطل من النافذة فى لهفة .. لأرى المدينة الاسطورة .. التى اذلت أعناق المستعمر . .وبددت وهم المستعبدين فيه . وقدمت للمناضلين من اجل حريتهم الضربة التى هزت طوده وخلخلت جذوره وقلقلت قواعده .

وبدت المدينة من طل تقبع فى احضان البحر ، وامتد شريط القناة التى هزت ضمير العالم عندما عادت إلى اصحابها بقوة الحق والإيمان به والإصرار عليه .

واخذت انظر إلى المزارع الخضر التى انبسطت على مدى البصر ، وقد تناثرت فيها القرى الرمادية .

وعاد صوت المضيفة يسألنا ربط الأحزمة والكف عن التدخين .. ويعلننا اننا على وشك الهبوط إلى القاهرة .

وبدت لنا الدور والطرقات .. والطائرة تلف لتهبط إلى المطار .

واستقرت بنا الطائرة اخيرا على ارضكم .

ولقينا فى المطار بعض من لا اعرفهم من اصدقاء « ابى » ومعارف « خالتى حفيظة » ولم يطل بنا المقام فى المطار حتى استقررنا فى إحدى العربات تشق بنا طرقات القاهرة .. من مصر الجديدة بمبانيها الأنيقة إلى العباسية بمبانيها العتيقة . إلى قلب القاهرة بازدحامه وصخبه حتى وقفنا اخيرا بباب سميراميس .

ووقفت فى شرفة إحدى حجرات الجناح الذى حجزه ابى .. اطل على النيل العريض فى إعجاب وفرحة ، وقد بدا الكوبرى الذى تبع الأسدان امامه .. وامتد النخيل والأشجار على شاطئه المقابل ، وفى الأفق الفسيح .. وراء شريط الأبنية بدت الاهرام الثلاثة كما تعودت ان اراها فى الصور .

وهتفت بأمى فرحة :

ــ ماما .. ارايت الأهرام ؟

وكانت أمى منهمكة كعادتها فى رص الملابس فى الدواليب وكان من العبث ان اثير انتباهها لأى شىء وهى مندمجة فى مهمتها الخطيرة .. فلم اجد سوى « ابى » اجره إلى الشرفة ، واشركه فى إعجابى بما اراه .

وشاركنى ابى الإعجاب مجاملا ، إذ لم يكن المنظر غريبا عليه .. فقد اعجب به فى سابق زياراته وانتهى . ومع ذلك وقف يشير إلى النيل العريض المنبسط وإلى النافورة القائمة فى عرضه قائلا :

ــ منظر رائع .

وكانت الشمس قد بدأت فى الهبوط إلى الأفق وانبعثت اشعتها

الوردية تصبغ حواشى السحب المتناثرة بلون الجمر . وانعكست صورة الأفق المضىء فى النهر العريض فبدا كأنه لوحة رائعة .
ولم تطل مشاركة ابى لى فى الاستمتاع بالمنظر الرائع .. وسرعان ما عاد إلى حجرته .
وذهبت ابحث عن « حسان » .. فقد كان خير من يصبر على مثل هذا الإعجاب الشاعرى بمناظر الطبيعة .. بالغروب والشفق والنهر العريض .
ولم اجد له اثرا .. فقد اختفى اختفاء تاما .. حتى ابصرته يهرول فى عجلة ، وقد بدا عليه الانشراح وهو يهتف فرحا :
— نادية قادمة إلينا .. هى واخوها حمدى .
وتساءلت فى دهشة :
— حقيقة ؟ !
— اجل .
— كيف عرفت ؟
— اتصلت بها فى التليفون .. وقلت لها إننا هنا .
— وماذا قالت لك ؟ !
— فرحت جدا .. تصورى لقد عرفت صوتى قبل ان اقول لها من أنا .
وبدت رنة الفرحة فى نبراته وهو يقول إنها عرفت صوته .. ولم تستطع « خالتى حفيظة » ان تكتم غيظها منه ، من تسرعه فى الاتصال بها ، ومن فرحته بمعرفتها بصوته .
وقبل ان يستمر « حسان » فى حديثه المبتهج قاطعته « خالتى » قائلة فى سخرية :
— طبعا تعرفك .. هل تظنها معتادة كل يوم على لهجتك السورية .
ورد عليها حسان فى عناد :
— لقد ميزت صوتى ، وليست لهجتى .
وسالت خالتى باللهجة المصرية التى كانت تجيد الحديث بها :

— هل كلمتها باللهجة المصرية ؟
— لا طبعا .
— هل تظنها تعرف سوريين غيرك ؟
وهز حسان راسه فى كبرياء احمق ينفى عن « نادية » أنها تعرف سوريين غيره قائلا :
— لا اظن .
— إذن .. فليس هناك غرابة فى أن تعرفك ؟ !
ولم يحاول حسان ان يسلم بالهزيمة بسهولة ، فنظر إلى امه فى عناد غبى قائلا :
— انا واثق من انها ميزت صوتى .. لأنى ميزت صوتها .
وهزت امه راسها مسلمة بسخافته وتركتنا ونهضت إلى الشرفة .
وعاد حسان يقول :
— لقد صممت ان تدعونا على العشاء .
— الليلة ؟
— اجل .. كلنا ..
— لا اظن الأهل سيسلمون بالدعوة بسهولة .. أمى ستنام .. وامك ستذهب لزيارة معارفها .. وابى سيقابل اصدقاءه .
— إذن نذهب نحن معها .
وقلت له فى استسلام :
— يحلها ربنا عندما يحضران .
ولم نغتسل ونبدل ملابسنا ونستريح برهة حتى دق جرس التليفون وسمعت صوت نادية :
— سهير ؟ !
وهتفت بها مرحبة فى فرحة :
— اهلا وسهلا .. كيف حالك يا استاذة نادية ؟ لقد اوحشتنا .
وضحكت « نادية » واجابت تعترض على اللقب الذى منحتها إياه :

ــ ما حكاية استاذة هذه ! ؟ يبدو انك نسيتنى !

واجبتها ضاحكة :

ــ كيف .. إنى لم آت إلا لأراك .

ــ إنك تملئيننى سعادة بقولك هذا .. كيف حال ماما وبابا .. وخالتك حفيظة ؟ !

ــ يسلمون عليك ، وهم جميعا هنا .

ــ إننا فى انتظاركم فى البهو .. حمدى يريد ان يسلم عليك .

وسمعت صوتك يرحب بى فى غير تكلف .. كان بيننا معرفة وثيقة :

ــ اهلا سهير .. وحشتنا جدا .. كيف حال ماما وبابا ؟ !

ــ الحمد لله .. كيف حالك انت ؟ متى رحلت من لندن ؟

ــ منذ عام .

ــ اما زال الحمام يلتقط الحب من فوق راسك ؟ !

ــ اما زلت تذكرين ؟

وكان حسان يقف قلقا وهو ينتظر ان انهى الحديث حتى نهبط للقائهم .

لم يكن هناك من شك .. فى ان « نادية » قد باتت تعنى فى نفسه شيئا .

ولم يكن هناك من شك .. فى انه قد اصيب بمبادىء حب ، ولم تحاول امه ان تتجاهل لهفته وخفته .. فهزت راسها متعضة فى صمت .

وهبطنا إلى البهو .

ورايتك لأول مرة بعد لقائنا فى لندن .

واحسست بألفة نحوك .. واطمئنان إليك .

واقبل كل منا على الآخر إقبال صديقين .. طالت بينهما الفرقة ، ثم عاودا الالتقاء .

واخذنا نتبادل ذكريات الساعات القلائل التى قضيناها معا فى لندن تتجول بنا فى معالمها قبل ان ادخل المستشفى .

وانهمك حسان ونادية فى الحديث عن الأدب والنقد واشياء كثيرة

بدت تثير اهتمامهما معا ، وتربط افكارهما سويا .

وامضينا المساء فى البهو .

وعندما استنفدنا ذكريات لندن ، رحت تحدثنى عن اشياء تخصك وجدتنى انصت إليها فى اهتمام ، وحدثتك عن اشياء تخصنى استمعت إليها فى غير ملل ولا سأم .

واعتذرنا عن العشاء فى تلك الليلة .

ولكننا قضينا معا نحن الأربعة معظم وقتنا فى القاهرة ودعوتنا فى اليوم التالى لصعود المقطم حيث استقرت بطاريتك على قمة الجبل ، بجوار البيت وحوض السباحة الذى حفر فى الصخر ، ووقفت اطل على القاهرة وهى تمتد امامى بدورها وقبابها ورحت انت تشير إلى معالمها قائلا :

ــ هذا مبنى المجمع ، وهناك الأهرام .

وذكرت وقفتى على سفح قاسيون ودمشق منبسطة امامى وقلت فى سعادة :

ــ ما اقرب القاهرة إلى دمشق .

وايدت « نادية » قولى بهزة من راسها قائلة :

ــ اجل .. كم تذكرنى وقفتى بجبل المقطم .. بوقفتى بقاسيون .

وقال حسان مازحا وهو يتلفت حوله مشيرا إلى المقطم :

ــ اتعتبرون المقطم جبلا ؟

ونظرت نادية إلى النيل العريض المنبسط فى الوادى اسفل الجبل وقالت ضاحكة وهى تقارن بينه وبين بردى :

ــ او تعتبرون بردى نهرا ؟

وضحكنا جميعا وقال « حسان » :

ــ سنعتبر مقطمكم جبلا ، وتعتبرون بردانا نهرا .. اتفقنا ؟

واجابت نادية ضاحكة :

ــ اتفقنا .

ولففنا فى الجبل بعد ذلك بعربتك ، ثم هبطت بنا إلى جامع

القلعة الذى بدت لنا مجموعة قبابه ومآذنه على ربوة اسفل الجبل .. ودلفنا من الباب الخلفى واشرت لنا إلى برج مهدم على اليمين قائلا بنفس اللهجة التى كنت تشرح لنا بها معالم لندن :

ــ هنا بئر يوسف .. كانت المياه ترفع إلى القلعة من النيل عند فم الخليج وتسير فى قناة فوق السور الذى رأيتموه قائما على الأقواس التى امتدت طوال الطريق الذى جئنا منه .

ووقفت العربة فى الفناء الممتد امام الجامع وصعدنا بضع درجات ووضعنا الخف فى اقدامنا فوق الأحذية ورحنا نجول فى ساحة الجامع حول الكشك الرخامى للمياه .. ثم دخلنا الجامع الفسيح الملىء بالثريات والنقوش الملونة .

وذهبت بنا إلى قصر الجوهرة .. ترينا بقايا الأسرة المالكة منذ عهد محمد على ، وإلى المتحف الحربى ، تشرح لنا ما لا نعرفه عن الأسلحة .

ومرت بنا الأيام وانت تقوم لنا بمهمة الدليل .. التى اصبحت تجيدها .

واستمتع « حسان » بصحبة « نادية » .. فى جولاتنا .. وفى مؤتمر الادباء ، وفى دعوات الغداء والعشاء المتبادلة .

وبدات نادية تستمتع بصحبة « حسان » ، فقد كان « حسان » يحتاج دائما لبعض الوقت لكى يكتشف الإنسان نواحيه الطيبة وطباعه الجميلة وميوله الخيرة .

ولست انكر انى استمتعت بوقتى فى القاهرة خير استمتاع .. استمتعت بكل شىء .. بما فيه انت .. دليلنا اللطيف ، غير المتكلف لطفا ، ولا ودا .. بل يمنحها بيسر لأنها اشياء تزخر بها نفسه .

ولست اظن مشاعرى لك قد زادت فى ذلك الحين عن ذلك الحد .. استلطاف والفة ، ومودة ، لإنسان لطيف .. الوف ، ودود ، شعور طبيعى جدا .

وانت ؟ !

لست ادرى بالضبط كيف كانت مشاعرك وقتذاك .

ولكن الشىء الذى لا شك فيه .. هو انك لم تمل صحبتنا فلا اظنك كنت تستطيع ان تقسر نفسك على صحبة لا تجد فيها ما لا يريحك .

فأنت قد استرحت إلينا .. وإلىّ انا بالذات .

لماذا ؟ ! لست ادرى .

اهى شفقة ! ؟ استلطاف ! ؟ إعجاب !

يعلم الله .. اى شىء فىّ قد جعلك ترتاح إلىّ ، وتصر على صحبتى طوال تلك المدة .

ورحلنا عنكم ، وبودى لو طالت الصحبة .

ومرت بى الأيام فى دمشق ، وانا اتحدث عنك كثيرا حديثا لا خجل منه ، إذ لم اكن احس فى باطنى بشىء يدفعنى إلى الخوف والخجل .

واخذت تجرفك من ذهنى ، ومن لسانى .. الأحداث التى كانت تعصف بنا فى سوريا ، والصراع الذى اشتد حتى بات وطننا كأنه المركب فى عاصفة هوجاء .

ووسط العاصفة .. لم يلح للربابنة الذين امسكوا بزمام السفينة .. سوى المرفأ الذى يتطلع إليه الركاب ويتشبثون به .. ويتلهفون فى إصرار ..

مرفأ الوحدة مع مصر .

وبسرعة البرق ووسط العاصفة الهوجاء التى تعصف بمركبنا اندفعنا إليكم نفتح ذراعينا لنضمكم فى عناق حار .. ولنبدأ وحدتنا فى عزم وإصرار وإيمان .

موازين خاصة

تمت بيننا الوحدة .. وعندما أعود بذاكرتي الآن إلى تلك الأيام أحس كأن وحدتنا كانت أشبه بزواج حب ملتهب خاطف ، دفع إليه القلب ، دون أن يدع فرصة للذهن أن يضع له من عراقيل الترتيبات والإعدادات ما قد يؤخره أو يحول دونه ، وكأن شعبينا حبيبان أحسا حاجة كل منهما إلى الآخر .. فانطلقا يتخطيان العراقيل ليعقدا قرانهما ، ويضعا أسرتيهما أمام أمر واقع .. وبهما الثقة من نفسيهما ومشاعرهما وآمالهما ومن الإيمان بالله وبالزمن فى أن يدبرا مصيرهما الموحد ، ومستقبلهما المشترك .

وانتهت نشوة الزفاف .. بكل ما فيها من أضواء وأغاريد وطبول ومزامير .. وبدأ كل فرد فى الأسرة يتحسس موضع قدمه .

أين مكانه .. فى الشركة الجديدة ؟

والناس قد تدفعهم الحماسة الملتهبة والمشاعر المشتركة إلى عمل موحد ، ولكن قيمة هذا العمل لا تتأكد فى نفس كل منهم إلا نتيجة انعكاس هذا العمل على شخصه ، ومدى تأثره هو بالوضع الناتج عن هذا العمل .

ونحن .. ناس .. دفعتنا ــ كما قلت لك ــ أنواء القلق والخوف والضيق بكثرة ما نعانيه فى حياتنا من اضطراب واهتزاز ، واللهفة على جديد يمنح الأمن المريح والاستقرار المنعش .. إلى الاندفاع إلى مرفأ الوحدة .

واندفعنا إليها جميعا .

الذين وجدوا فى المرفأ ملجأهم ومستقرهم .

والذين وجدوا فيه تكأة لوثبة أخرى يحققون بها أمانيهم الخاصة .

وبدأ كل واحد منا يزن المرفأ الجديد بميزانه الخاص .. ماذا منحه من أرباح .. وماذا حقق له من فرص ؟

وكان أول من خذل فيه ، غير الذين أقض مضجعهم أن نأمن ونستقر ونحقق لأنفسنا حياة أفضل على حساب مطامعهم فينا واستغلالهم لنا .

كان أول من خذل فى المرفأ بعد الطامعين فينا .. هم المهددون بوحدتنا .. أعنى الشيوعيين أصحاب شكيب .. بعد أن أطاحت الوحدة بطريقة باترة .. بالأحزاب السياسية التى كانت ضمن أسباب التأرجح والاضطراب وعرقلتنا عن السير إلى حياة أفضل .

وطار رئيسهم ومعه رأسه يؤمنه بين أصحاب النفوذ عليه .

ولم يجد لنفسه مأمنا بين شعب آمن .. فطار هاربا .. بعد أن أحس أن الوحدة لن تكون بحال من الأحوال مخلب قط يطعمه السلطان ، أو هراسة تمهد له السبيل إلى كرسى الحكم يمسك فيه بزمام البلد ليسلمه إلى قادة الشيوعية ، ويستبدل نفوذا أجنبيا بنفوذ أجنبى .

كانت الشيوعية هى أول من خاب أمله فى الوحدة .

طار رأس الحزب ، وهرب الزعيم بجلده .

وبقى بيننا « شكيب » .. لينفث المزيد من حقده وسخطه ويروج المزيد من الشائعات والأراجيف .. يلتقى فى ذلك مع أضداده وخصومه .. من أعدائنا .. الذين كان يقف فى صفنا ليحاربهم قبل الوحدة .

وسمعت أول بوادر ضيقه ذات مساء وقد ضمنا حفل فى مطعم الشرق أقامته خالتى « حفيظة » لحساب إحدى الجمعيات الخيرية التى تشارك فيها .

وكان على « أبى » أن يسهم فى الحفل بشراء نصف ما باعته من تذاكر .. ورحت أفرق ما أخذه « أبى » منها على الأقرباء والأصدقاء .

وجلسنا حول مائدة العشاء نرقب المشاهد والاستعراضات ونستمع

إلى الموسيقى .. وكان الصيف قد هبت نسائمه والأشجار قد كساها الورق الأخضر .. وتفتحت فى براعمها الزهور ، وكنت أشعر بالسعادة .. سعادة الرضا والقناعة بالأشياء الجميلة التى منحها الله لى .

وكنا جميعا هناك .. ابى وامى وخالتى وزوجها وحسان وسلمى وعزة ورياض وشكيب .. و .. و .. وكل من استطاعت التذاكر المجانية — التى ذهبنا نفرقها بعد ان دفع « أبى » ثمنها — إغراءهم بالحضور .

وكان الحديث يدور فاترا .. كلمة من هنا .. وكلمة من هناك .. والاعين معلقة بالرقص والآذان تصغى إلى الموسيقى والشفاه ترتشف . والأسنان تمضغ .

وقلب شكيب البصر حوله ثم هز راسه قائلا فى سخرية :

— لا جديد على ظهر الارض .

وانبرى حسان يرد عليه فى شىء من التحدى :

— ولماذا لا تأتى انت بجديد ؟

ورد عليه شكيب مستمرا فى سخريته :

— البركة فى الوحدة .

وزاد حسان فى تحديه قائلا :

— مالها الوحدة ؟ !

— كنا نظنها ستفعل شيئا .. ولكن كاننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

— لو ابقت الحزب الشيوعى .. لكانت قد فعلت شيئا .. اليس كذلك ؟ !

— طبعا .. كانت على الاقل قد احتفظت لنا بالديمقراطية .

— الديمقراطية حتى تلهفوا الحكم .. وتلطشوا السلطان .. ثم تحلوا لانفسكم اقسى انواع الديكتاتورية ! ؟

— بل حتى نحقق المساواة بين الناس .. ولا نترك واحدا يمتلك الملايين وآخر لا يجد لقمة العيش .

— الوحدة ستفعل هذا .

ويرد شكيب فى عناد وإصرار :

— الوحدة لن تفعل شيئا .. حتى قانون الإصلاح الزراعى الذى طبق فى مصر .. ما زلنا نتردد فى تطبيقه هنا .

ولم تكن المناقشة حتى ذلك الحين قد تعدتهما .. وكنت اتخيل الآخرين قد انهمكوا فى المضغ او المراقبة او الاستماع دون ان يعيروا المناقشة الدائرة اى التفات .. ولكنى فوجئت بأبى يرد فى تؤدة عندما وصل « شكيب » إلى الحديث عن الإصلاح الزراعى :

— لا اظن هناك ضرورة لتطبيقه هنا .. ليس عندنا ازمة أراض .. الأراضى هنا لا تجد من يزرعها ، وتحتاج إلى قدرة كبيرة لاستثمارها .. هل نعتقد أن قطعة ارض الجزيرة التى املكها والتى تحتاج إلى كل تلك التكرتورات والتكاليف الباهظة يستطيع الفلاحون لو جزئت عليهم ان يقوموا باستثمارها ؟

راجاب شكيب فى تحد :

— لِمَ لا ؟ .. يمكن استثمارها بطريقة المزارع الجماعية .

— تعنى الجمعيات التعاونية ؟ !

— بل اعنى الكميون .. نملك الأرض للحكومة وياخذ كل فرد يعمل فيها حسب حاجته .. يقدم له المأكل والملبس ويعلم اولاده وتؤمن شيخوخته ، نظير العمل الذى يقوم به .

ورد رياض ضاحكا :

— كأى عسكرى فى الجيش .. اى تجند الناس مدى الحياة ، وتصبح البلدة كلها معسكر مستجدين ؟ !

وهز ابى راسه وتساءل فى مرارة :

— اهذه هى الحرية التى تريدها للناس ؟ !

— اريد لهم اللقمة اولا .

— اللقمة عندنا مكفولة .. ليس عندنا من يشكو شظف العيش .. لسنا فى حاجة إلى مزارعكم الجماعية ولا إلى إصلاحكم الزراعى ..

الناس هنا راضون ودرجة الفقر والحاجة اقل بكثير منها فى مصر .

وبدا زوج خالتى يدخل فى المناقشة قائلا :

— لا يمكن ان نطبق هنا كل ما يطبق فى مصر .. الأحوال هنا تختلف عنها هناك ، وكل بلد له ما يلائمه .

وقاطعه حسان :

— لقد اصبحنا بلدا واحدا .. ويجب ان تطبق القوانين فى كل مكان من البلد .. نحن شعب واحد .. يجب الا تفرق القوانين بيننا .

ورد ابوه ناهرا :

— كلام فارغ .. كل منا له ظروفه .. نحن بلد تجار .. وغير معقول ان تطبق علينا القيود الموجودة فى مصر .

وهز شكيب رأسه فى شيء من الشماتة .. وهو يرى التناقض فى الآراء وقال فى سخرية :

— وحدة !!

ورد عليه حسان فى تحد وإصرار :

— اجل وحدة .

— لن تفعل الوحدة شيئا .

— بل ستفعل كل شيء .. إلا ان تترك لكم الفرصة للتسلل والسيطرة .. ستحقق لنا الكفاية .. والعدالة .. والمساواة .. بغير حاجة لمبادئكم المستوردة .. سنرسم نحن لأنفسنا السبيل إلى حياة أفضل .

— إنها تخشى ان تطبق الإصلاح الزراعى .

ورد حسان فى عناد صبيانى :

— بل سنطبقه .

وبدا ابى يضيق بالمناقشة فقال لحسان :

— انتهينا .. دعونا من هذا الجدل .

ولم تمض بضعة اشهر على هذا الحديث .. حتى صدر قانون

الإصلاح الزراعى .. ولست اظننى كنت ملقية إليه بالا .. لولا أننى احسست به داخل بيتنا .

وجدت آثاره مرسومة بوضوح على وجه اعز الناس لدىّ ، على وجه ابى .

وكما قلت لك نحن لا نزن الأشياء إلا بموازيننا الخاصة ولا نابه بالأوضاع إلا بالقدر الذى تمس به حياتنا الخاصة ، ولا نكاد نقيم اى عمل إلا بما يخصنا منه ، وما يصيبنا من آثاره من خير أو شر .

ولقد نسيت ان أذكر لك مدى تقويمى للوحدة .

ربما لأنى اشعر أن عرجاء صغيرة .. لا تستطيع ان تقوم حدثا كبيرا مثل الوحدة .. ولن يكون لتقويمها أثر يذكر .

فلم اكن امثل اتجاها معينا .. يمكن أن يكون لتغييره اثر إيجابى لها او عليها .. معها أو ضدها .

كنت واحدة من الملايين التى تكوّن هذا الشعب المتحمس المخلص الذى اندفع إلى احضانكم ليكوّن الوحدة معكم .

والملايين قد لا تقوّم .. ولا تزن .. ولكنها تشعر وتنفعل ، وتندفع جارفة امامها كل ما يتحدى مشاعرها وانفعالها .. ثم تسير الهوينا بعد ذلك .. كل يعنى بنفسه .. حتى يتحدى مشاعرها .. ويثير انفعالها عامل جديد .. فتتكتل لتدفع وتجرف ما امامها .

لم اشأ ان اذكر رايى فى الوحدة .. لأنى لم اشعر بقيمة هذا الراى ، بعد ان استقر الحال ، وراح كل منا يتلمس طريقه ويتحسس موضعه .

ولم اشأ ايضا ان اذكره .. لأن الوحدة لم تكن ذات اثر خاص على شخصى ، ولا كان لها انعكاس معين فى حياتى .

ليس اكثر من فرحة عامة بشيء جديد .. وحماستى مع الملايين لبدء انطلاقة كبرى نحو مستقبل مشرق .

ونشوة صبيانية .. بان بلدى صار اكبر ، واننا بتنا وشعبكم

الذى نحبه بكل ما فيه من علامات مميزة .. ففنانيكم وكتابكم شعبا واحدا ، وان ناصركم صار ناصرنا .

ولست أظننى تركت فرصة واحدة تمر دون ان اخرج للقائه ، عندما كان يزورنا .. وكان ابى يخشى علىّ من الزحام فكان يأبى ان يتركنى اغادر العربة .. وكان « الاسطى على » يخرج بى مبكرا ليضع العربة فى موقع فى طريقه يمكننى من رؤيته وسط الملايين التى تهتف له .. دون ان اغادر العربة .

لم يكن لى إذن راى خاص فى الوحدة .. لا انا ولا احد ممن حولى .. اللهم إلا « عزة » اخت « سلمى » التى انتقلت من المدرسة إلى وزارة الإرشاد .. لترأس احد اقسامها ، وتشارك فى مد جذور السيطرة البعثية فى الجهاز الحكومى .

كانت « عزة » .. تحس ان الوحدة . .وحدتها هى .. لا وحدتنا جميعا ، وان من حقها ان تتخذ منا موقف ولى الامر صاحب السلطان .. وبدأ إحساسها هذا يثير بيننا فى بعض الاحيان ضيقا بها .. وبالوحدة التى ميزتها .. ومنحتها حقا فى السلطان حرمته الاخرين .

وفيما عدا استئثار « عزة » واصحابها بفرص الحكم .. وحرمان الاخرين منها .. وهو امر لم يكن هناك ما يجعل للوحدة قيمة خاصة فى نفوسنا .. اكثر من القيمة العامة لها .

حتى صدر قانون الإصلاح الزراعى .

وفرح به حسان كانتصار انصفه على « شكيب » الذى كان يؤكد انه لن يصدر .

وكدت افرح به .. حتى عاد ابى ظهيرة ذلك اليوم .

واذكر انه كان احد أيام سبتمبر ، وكانت اوراقى قد قبلت فى الجامعة .. وقد تملكنى يومذاك إحساس بالفرحة والزهو بانى اصبحت إنسانة مسئولة املك حق المشاركة فى الحياة العامة والمناقشات

السياسية وان افعل كل ما يفعله الكبار بطريقة مشروعة لا بطريقة الاستثناء والمجاملة .

وسمعت وقع خطوات ابى على السلم .

لم تكن سريعة متوثبة .. تطرق الدرجات بقوة .. كما عودنا دائما .. على الرغم من انه لم يعد صبيا ولا شابا .

واسرعت إلى الباب ازف له نبأ قبولى فى كلية الآداب ، وهتفت به ، وهو يعبر الباب محاولة المزاح :

ـــ اعتذر إليك عما فعلت بك اليوم .

وهز راسه متسائلا وقد لاح عليه الإعياء :

ـــ ماذا فعلت ؟

ـــ اضعت عليك الشباب .

ولم يفهم بالطبع ما اعنيه .. فهز راسه متسائلا دون ان تبدو عليه قابلية للمزاح :

ـــ كيف ؟ !

واسرعت ازف إليه النبا حتى لا اثقل عليه بعد ان تبينت عدم استعداده للمزاح :

ـــ قبلت فى الجامعة .

ورسم ابتسامة على شفتيه .. وهتف بصوت لم استطع ان اميز فيه شيئا من حماسته الطبيعية التى كنت اتوقعها لمثل هذا النبأ :

ـــ حقا ؟ ! مبروك .. عقبال الدبلوم .

ثم تقدم ليسقط جسده على كرسى كبير .. مادا ساقيه امامه ملقيا براسه إلى الوراء .

ولم اشك فى ان شيئا يتعبه او يضايقه فهتفت به :

ـــ ما بك يا ابى ؟ !

وهز راسه ، وهو مازال ملقيا به على ظهر المقعد قائلا :

ـــ لا شىء .

ـــ بل بك شىء .. لست انا التى تستطيع خداعها .

واقبلت امى على سؤالى وقد بدا عليها الجزع وامسكت بيده تجس حرارته تتساءل :

ــ ما بك ؟

وسحب ابى يده من يدها وهو يقول فى تبرم :

ــ قلت لكم لا شىء .

واقتنعت امى من جس يده انه لا يوجد به ما يبعث على القلق .. وانصرفت تتم إعداد المائدة وهى تتساءل :

ــ اتاكل الآن .. ام تغير ملابسك ؟

واجاب « ابى » فى لهجة مقتضبة :

ــ كلوا انتم .

ــ وانت ؟ !

ــ لا احس برغبة فى الاكل .

وعادت « امى » ادراجها إليه وتساءلت فى قلق :

ــ قل لى ما بك ؟ !

ورد عليها ابى فى ضيق :

ــ قلت لا شىء .

وجرت امى مقعدا وجلست بجواره متسائلة :

ــ ماذا تعنى بلا شىء ؟ تجلس هكذا فى ضيق .. وتابى الطعام .. ثم تقول لا شىء ؟ !

وكنت اعرف ان بأبى شيئا .. شيئا مقلقا .. اكثر مما تحتمل قدرته على إخفاء المتاعب فى باطنه وحبسها بين ضلوعه . ولم يكن هناك مفر من ان يفضى إلينا بما به .. إذ لم يكن من المعقول ان نجلس إلى المائدة بدونه .. فقلت بهدوء :

ــ إذا لم تاكل .. فلن آكل .

واطلق ابى تنهيدة .. ثم لم ساقيه وزم شفتيه وقذف إلينا بالنبأ فى كلمات مقتضبة قائلا :

ــ سيأخذون الارض .

وفغرت امى فاها فى دهشة وتساءلت :

ــ من هم ؟

ــ الحكومة .

ــ لماذا ؟

ــ لتعطيها للفلاحين .

ولم تكن امى تعرف الكثير عن السياسة .. ولم يدر بخلدها قط ان هناك شيئا اسمه الإصلاح الزراعى .. فعادت تسأله فى دهشة :

ــ تعطى اراضينا لهم .. قسرا ؟ !

ــ بالقانون .

ــ اى قانون ؟

ــ الإصلاح الزراعى .

ــ بلا ثمن ؟

ــ بسندات .

ــ وماذا نفعل بالسندات ؟

ــ نقبض ثمنها بعد عشرين عاما .

وهزت امى راسها غير مصدقة وعادت تتساءل :

ــ اتعنى انهم سيأخذون ارضنا ليعطوها للفلاحين ويعطوننا الثمن بعد عشرين عاما ؟

ــ اجل .

ــ ومن اين ناكل نحن خلال العشرين عاما ؟

ــ سيبقون لنا مائتى فدان من الأرض المروية او ٧٥ من ارض الأمطار .

وتساءلت انا ببساطة :

ــ الا يكفينا هذا يا ابى ؟ !

وتجاهل « ابى » سؤالى واسترسل يقول :

— وسيأخذون منا ما يقرب من الألفى فدان .

ونظرت امى إليه كالمأخوذة ، وقالت كأنما تحدث نفسها :

— لماذا لا نشكو ؟

ورد أبى فى مرارة :

— نشكو من ؟

ولم تعرف امى كيف تجيب .. وبدت لها المسألة كالقضاء الذى لا راد له .. ونظرت إلى ابى فى إشفاق واحسست بمدى ما يساوره من اسى فهتفت فى إخلاص :

— فداك يا ابى .

وقالت له « امى » :

— فداك يا عبد الهادى .. الحمد لله ان جاءت فى الأرض .. وليست فى احدنا .

واقبلت عليه تربت كتفه فى حنان وهى تردف قائلة :

— قم غير ملابسك ، واجلس معنا لناكل .. الحمد لله على كل ما منحنا .. الحمد لله على الصحة .. ما دمت بيننا فكل شىء يهون .

وهكذا انعكست علينا اول نتائج الوحدة .. ضربة قاصمة لأبى سلبته اعز ما يملك — بعدى وامى — سلبته ارضه التى كان يضع فيها كل ما له ويبذل من اجلها العرق والجهد والتى ركز فيها كل آماله فى الحياة .. ومصاب فادح لأمى جعلها تحمد الله على مجرد الصحة والعافية .

أما بالنسبة لى .. فلست اظننى كنت خيرا منهما .. على الأقل لبعض الوقت .

ولا اظننى استطيع ان انكر إحساس الخذلان والمرارة الذى اصابنى من الوحدة .. واقول الوحدة لأن كل ما كان يصدمنا بعدها كنا نرجعه إليها بلا وعى ولا تفكير .. حتى انقطاع المطر الذى لا يمكن ان يكون لغير الله مرجعه .

ولم تكن المرارة ناتجة عن اى إحساس بالحرمان من مال او ارض

او إرث منتظر .. فقد كان هذا كله ابعد ما يكون عن تفكيرى .. فلا اظننى احسست يوما بقيمة ما يملك « ابى » .. وما يمكن ان ارثه انا منه ، ولا اظننى قط كنت اشعر بقيمة المال لى .. فقد كان يكفينى منه القليل جدا .. وكنت اكره مظاهره التى قد تجعلنى ابدو مميزة عن غيرى .. ولا اظننى ابالغ إذا ما قلت لك إنى كنت اخجل منها .

كنت اخجل ان ابدو غنية مترفة ، وكنت افضل دائما ان اكون كغيرى من البنات فى كل شىء .

ومن اجل ذلك استطيع ان اؤكد ان المسألة فى حد ذاتها لم تكن لتبعث فىّ اى إحساس بالضيق .. ولا كنت اعتبرها شيئا يخصنى .. لولا ما احسست به من انعكاسها على نفس « ابى » .

كنت احب ابى إلى درجة انى اكره كل ما يضايقه ومن يضايقه .. ووجدتنى عن غير وعى اقف إلى جانبه واتخذ موقفا عدائيا من الوحدة ونتائجها .

ولم يكن ابى يحس بما اصابنا من الضيق لضيقه .. حتى بدا الندم يخزه على ما اصابه من ضعف وبدا يتماسك ويتجلد ونظر إلىّ وقد بدا علىّ الحزن وتضاحك قائلا :

— بسيطة .. الحمد لله على الصحة كما قالت امك .

ثم صمت برهة واسترسل يقول فى حزم :

— ساريهم ماذا افعل بالسبعمائة فدان التى سيتركونها لى وسأرى ماذا سيفعلون بالأرض التى اخذوها .

واحسست بالضيق يتبدد من نفسى .. وانا ارى ابى يستعيد قواه بمثل هذه السرعة .. وارى الأمل يدب فى نفسه .. وسألته فى حماسة :

— اسيتركون لنا ارض الغوطة ؟ !

— طبعا .. سيتركون لنا الخيار فيما نريد ان نحتفظ به من ارض .

وزاد إحساسى بالفرحة وهتفت :

ــ هذا حسن .. سنحتفظ بأرض الغوطة والبيت وكل شيء بها .

وبدا ابى يحدد ما ينوى اختياره من الارض .. وكنت اعلم ان ما به من مرارة والم .. لا يمكن ان يبدد بمثل هذه السهولة ، وكنت واثقة انه يبذل كل ما يملك ليمسك بزمام نفسه ويسيطر على اعصابه .. وحاولت جهدى ان اعاونه وان ابادله الحديث بحماسة .

وقمنا إلى المائدة وادركت من الطريقة التى كان ياكل بها انه ياكل ليطمئن امى ويريحنى .

وانتهينا من الطعام واوى إلى حجرته .

وتبعته إلى هناك .. فقد كنت احس بشيء فى نفسى يتحتم ان اقوله .

كنت احس ان فقد الارض .. لم يضايقنى فى قليل ولا كثير .. وتمنيت لو استطعت ان انقل إليه هذا الإحساس .. وان اقنعه انه لابد له ان يغير اسلوبه فى التفكير .

ولم اكن اعرف هل استطيع ان افعل .

هل تستطيع التى لم تجاوز الثامنة عشرة .. ان تغير طريقته فى التفكير بعد كل هذه السنين الطوال التى عاشها ؟

بكل كنت اتساءل .. لو كنت مكانه .. صاحبة الارض الطويلة العريضة التى كافحت فيها كل هذه السنين .. اكان يسهل علىّ ان اسلم بضياعها .. بمثل هذه السهولة التى سلمت انا بها !!

ولم افكر طويلا فى الرد على هذه الاسئلة .

ودخلت إلى حجرته .. ووجدته جالسا على مقعد مريح يدخن فى شرود .

وجلست على مقعد صغير قبالته ونظر إلىّ محاولا الابتسام .

وسالته فى رفق :

ــ اما زلت متضايقا ؟ !

وهز راسه بالنفى .

وقلت متضاحكة :

ــ لا تكذب علىّ .. من غير المعقول ان يكون قد ذهب الضيق عنك بمثل هذه السرعة ؟

ونفض رماد السيجارة فى طقطوقة بجواره وقال مؤكدا :

ــ إذا لم يكن قد ذهب .. فسيذهب .. على الاقل من اجلك .. فانا اكره ان اضايقك بضيقى .. إنها ازمة لا تلبث ان تنجلى .

واخذت انظر إلى وجهه الذى لم يستطع بعد كل ما بذل من جهد ان ينفض عنه سيماء المرارة .

وعدت احاوره :

ــ ما الذى سبب لك الضيق .. انك فقدت ارضا .. ام انك ضعت علىّ إرثا ؟ !

ورفع حاجبه فى دهشة من سؤالى واخذ يحدق فىّ برهة محاولا ان يستشف ما اعنى من وراء سؤالى .

وقلت استحثه على الإجابة :

ــ لماذا لا تجيب ؟ !

وبرغمه اطلق زفرة واجاب :

ــ الاثنان .

ــ انا لا يعنينى قط .. ان ارث ارضا . ولا مالا .. إنى استطيع ان احيا كما يحيا غيرى ممن لم يورثهم آباؤهم ارضا او مالا .. كل ما يعنينى انت ورضاك وسعادتك .

وحاول ان يقاوم ما اثرته فى نفسه بكلماتى من ضعف وحنان ، ورد فى عناد صبيانى :

ــ وفقدى الارض ؟

ــ الم يبق لك سبعمائة وخمسون فدانا ؟ ! الا يكفيك هذا .. على الاقل لتخلص من كل هذا الإرهاق والجهد .. ولنراك وقتا اطول .. ما آخر كل هذا العمل .. وما آخر كل هذا المال ؟ !

ونظر إلىّ « ابى » نظرة طويلة .. وبدت على شفتيه ابتسامة

حاول جهده ان يقاومها .. ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة والضحكة إلى قهقهة .

وسألته فى دهشة :

ـ ماذا يضحكك ؟ !

واجاب وهو يهز راسه :

ـ عشت حتى اراك تسوقين إلىّ النصح ، وتقنعينني به .

ـ الست على حق ؟ !

ـ كل الحق .

ـ لن تدع للضيق سبيلا إلى نفسك .

ـ ابدا .

ـ الا يكفى أن نكون معا وفى صحة جيدة .. الا نحمد الله على ذلك ؟ !

وفى لمحة خاطفة نظر إلى ساقى وازدرد ريقه .. لقد ادهشته ولا شك انى اعتبرت نفسى فى صحة جيدة .

ولكنى كنت اعتقد ذلك .. ولم اكن احمد الله مداراة بل عن يقين وإيمان وثقة .

وقال « ابى »وهو يضمنى إليه :

ـ يا حبيبتى .. الحمد لله .. كل شىء يهون ما دمت انت راضية .

وهكذا استطعنا ان نتلقى الصدمة الاولى لنتائج الوحدة .

اقنعت انا نفسى ببساطتها .. اولا .

ثم استطعت ان اقنع بها « ابى » .. وكان على امى » ان تقتنع بمجرد ان تراه راضيا .

ولم تكد الأيام تمر .. حتى زاد اقتناعى بما يحدث .. لا كمصاب لا مفر من احتماله ، بل كعدالة يتحتم وجودها .

وكان اقتناعى نتيجة لانعكاس الحدث نفسه على شخص آخر .. لم يكن عنى ببعيد .

ذات يوم اقبلت « حنيفة » تحمل إلىّ رسالة من اخيها وتطلب منى قراءتها .

وقرات الرسالة .

كان اخوها « عبد الدايم » ينبئها باسلوبه الساذج انه قد اضحى من اصحاب الاملاك ، وانه تسلم خمسة افدنة منذ بضعة ايام .. واخذ يذكر لها كيف سيزرعها .. وماذا ينوى ان يرسل إليها .

كانت الرسالة تفيض بإحساس صاف من الرضا والسعادة .

واحسست انا مما قراته فى الصحف منذ ايام ان سبعمائة وخمسين الف رجل كعبد الدايم يمكن ان تمتلىء نفوسهم بالرضا والسعادة عندما يتسلمون ثلاثة ملايين ونصف مليون فدان .

وبدا لى الحادث الذى انعكس علينا بالمرارة والخذلان قد انعكس على مئات الآلاف بالرضا والسعادة .. وتحول اثره فى نفسى كمصاب تروض النفس على احتماله .. إلى ضرورة .. كان لابد من حدوثها .

ورحت اؤكد رايى فى مناقشة دارت فى بيت « سلمى » بداها « شكيب » بسؤاله ساخرا :

ـ لطشوا من ابيك ارضه ؟ !

وقلت له فى إخلاص :

ـ بل حققوا بها عدالة كان لابد أن تحقق .

وكانت دهشتى شديدة عندما وجدته يقول :

ـ هذا كلام يضحكون به على العقول .

ونظرت إليه كالمأخوذة وانا اتخيل انه يجب ان يكون اول المتحمسين لصدور قانون الإصلاح الزراعى ، وقلت له :

ـ ولكنهم وزعوا الأرض فعلا على الفلاحين .. عبد الدايم اخو حنيفة كتب إليها ليؤكد لها انه تسلم ارضه .

ـ طريقة يذرون بها الرماد فى العيون .. ومسكّن يمنحونه للشعب ليلهوه عن الاشتراكية الأصيلة والعدالة الحقيقية والمساواة المطلقة .

وذهلت مما قال .. واحسست أنه مصر على الحقد وعلى التشكيك فى كل شىء .

وهممت بأن اجيبه ، ولكن « رياض » نظر إلىّ مهدئا وهو يقول :

ـــ لا تجادليه .. إنه ملتو .. مخادع .. لا يرضيه إلا ان يتسلم الحزب الشيوعى الحكم .. أؤكد لك اننا لو طبقنا الشيوعية دون ان يمنحوا هم فرصة الحكم .. لا تهمونا باننا لا نعرف شيئا عن الشيوعية .. وأن شيوعيتنا باطلة وشيوعيتهم أصيلة .. لا تجادليه فانا اعرفه جيدا .. إنه قد يؤيد الإقطاع ورأس المال إذا وجد فيهما تكأة للوصول .

ولم أحاول ان أجادله .

ولم استطع ان أمنع نفسى من الضيق بخداعه وتشكيكه وحقده .

ولكنى وجدت فى إحساسنا ـــ ونحن أول المصابين من تطبيق العدالة ـــ بالرضى .. كثيرا من العزاء ، وأن العمل الطيب .. لا يمكن أن يهدر .. وأن الوحدة .. انطلاقة إلى مستقبل أفضل لم تخذلنا ولم تخيب أملنا .

موعدنا غداً

بدات عامى الأول فى الجامعة .. وبرغم فرحتى التى حدثتك عنها بمجرد قبولى ، وإحساسى انى اصبحت شيئا ما ، أكثر من مجرد صبية تتلهف إلى المعرفة ، وتدس انفسها فى مناقشات الكبار .

برغم هذا الإحساس بالكبرياء .. فقد كان على ان اجتاز مرحلة من الخوف والوجل والحياء .. عندما بدات امارس حياتى الجديدة فعلا .

كان علىّ ان أروض مجتمعى الجديد فى الكلية .. من زميلات وزملاء ، واساتذة وفراشين ، على حالتى التى استكانت إليها مدرستى المحدودة الهادئة الطيبة .. والتى بت ـــ بساقى حبيسة المشد ـــ جزءا من علاماتها المميزة كشجرة الحور الضخمة فى فنائها والراس الذى كلله البياض على كتفى ناظرتها .

كان علىّ ان أروض نفسى من جديد على نظرات الإشفاق ، والهمسات واللفتات ، كلما طرقت ساقى أرض الفصل ، أو هبطت أجول فى الحديقة .

وزاد من وجلى وخشيتى .. اختلاف نوع النظرات إلىّ .. كانت عيون الطلبة ترمقنى وبها شىء جديد علىّ .. ليس مجرد إشفاق .. أو رثاء ، أو عطف .. ولكنه شىء أكثر من ذلك .. كان بها اختبار لأنوثتى التى طالما حاولت تجاهلها ، وإنكارها .. تجنبا لدخول ميدان أحس فيه بعجز عن خوض غماره .

ولم يعد هناك بد من المرور بمرحلة الانتقال تلك .. واجتياز ما بها من ضيق كاد يبعثنى اكثر من مرة على النكوص على عقبى .. والانطواء فى البيت .

واخيرا استطعت اجتياز مرحلة الوجل والخوف .. ساعدنى على اجتيازها .. وجود « سلمى » إلى جانبى دائما .. فى قاعة المحاضرات وفى الفناء وفى الطريق .. كنت احس بها الزم من المشد الذى يشد ساقى .. كانت تشد نفسى .. وتمنحنى القدرة على الصمود فى مجتمعى الجديد دون ان اشعر انى وحدى أواجه نظـــرات الفحص والعطـــف والإشفاق والرثاء .

وساعدنى على مقاومة شعور الغربة فى الوسط الجامعى وجود « حسان » كمدرس فى كليتنا .

لم يكن بالطبع يلازمنى « كسلمى » .. ولكن مجرد الإحساس بأنه هناك .. كإنسان له قيمة .. وله بعض السلطان .. منحنى إحساسا بالثقة ضاعف من قدرتى على اجتياز مرحلة الانتقال .. واخيرا .. وجود « نادية » اختك .. كمدرسة فى الجامعة .. كانت مفاجأة عجيبة .. لم يكن هناك ما يبشر بها او يمهد لها .

ذات صباح عقب المحاضرة الاولى اقبل علىّ « حسان » باسم الثغر ، مرح القسمات .. وجذبنى من يدى قائلا :

ـــ تعالى .

ولم يكن من عادته ان يمزح معى داخل الكلية .. كان يحاول دائما ان يتخذ منى موقف المدرس ، وكنت اعرف انه محدث هيبة ، فلم احاول قط ان ارفع الكلفة بيننا .. وكنت امنحه كل مظاهر الاحترام التى امنحها غيره من المدرسين والاساتذة .

وادهشتنى طريقته فى الإقبال علىّ ، وفى محادثتى ، وفى الكيفية التى جرنى بها من يدى للسير بجواره .

وقلت اتساءل فى دهشة :

ـــ ما الحكاية ؟

ـــ تعالى .

ـــ إلى اين ؟

ـــ إلى غرفتى .

وانا اعرف عن « حسان » نزوات العبط . ولكنى لم اتوقع منه ابدا ان يسمح لها بالانفلات لتضيع عليه ما يمنحه إياه مركزه الجامعى من مظاهر الاحترام والتبجيل .

وقلت له وانا اقاوم جره إياى و « سلمى » تحاول اللحاق بنا :

ـــ قل لى اولا .. ماذا حدث ؟

وكنا قد قاربنا حجرات المدرسين .. فاجاب وهو مستمر فى سيره :

ـــ لحظة واحدة .. سترين بنفسك .

ودخلت الحجرة وراءه .. فإذا بى افاجأ « بنادية » تقف امامى وقد علت ثغرها ابتسامة سعيدة مرحبة .

ودفعنى « حسان » إليها وقال ضاحكا :

ـــ ها هى سهير .. استرحت ؟

وهتفت فى فرحة شديدة :

ـــ نادية !!

وقاطعنى « حسان » قائلا :

ـــ دكتورة نادية .

ومدت « نادية » ذراعيها تضمنى إلى صدرها فى لهفة وهى تقول :

ـــ انت اول من حرصت على ان اراه هنا .

وانهالت الأسئلة تتدافع من شفتى محاولة أن أعرف سر هذه المفاجاة :

ـــ متى حضرت ؟ وإلى متى تبقين ؟ .. و ..

واجاب « حسان » مفسرا وهو يقف بيننا وقد غمرته السعادة :

ـــ حضرت بالأمس .. وستبقى معنا دائما .. لقد انتدبت للتدريس فى الجامعة .. ما رايك ؟

واحسست بفرحة شديدة ، وكان الكلية قد اضحت كليتنا .. وقلت متسائلة :

ــ استدرسين لنا ؟

واجابت نادية :

ــ لم اعرف بعد .

وهتفت سلمى وهى تنظر إلى « نادية » فى إعجاب :

ــ ليتك تدرسين لنا .

واقبلت نادية تحييها فى حرارة وهى تقول :

ــ على اية حال ساكون معكم دائما .

واحتفينا « بنادية » فى دمشق .. استقبلناها كلنا بترحيب حار ، ولهفة مخلصة .. اللهم إلا « خالتى حنيظة » .. فقد كنت احس دائما انها تتحفظ فى مشاعرها لنادية .. وكنت افهم جيدا سبب هذا التحفظ .. فقد كانت تكره اندفاع « حسان » نحوها .. وتحس بأنها قد تصبح ــ او هى اصبحت فعلا ــ ذات خطر يهدد مشروعها الخطير الذى حان الوقت لكى تنقله من مرحلة الامانى إلى مرحلة التنفيذ .

ومن وجهة نظرخا لتى .. كانت على حق فى إحساسها بالخطر الذى تشكله « نادية » على مشروعها الذى كانت تحلم به .. فقد بدا « حسان » يتصرف .. من حيث لا يدرى .. ويوحى من مشاعره المخلصة .. وكان نادية اهم ما فى حياته .. وبدا ــ من حيث لا يقصد ايضا ــ يمنح نفسه حقا عليها ويمنحها حقا عليه .

ولم يكن هناك شك فى ان انتدابها لدمشق .. الذى كان مفاجاة للجميع بما فيهم انا .. لم يكن قط مفاجاة لحسان .. بل لقد فهمت من بعض المناقشات التى دارت بينهما ــ بعد ذاك ــ بأنه كان شيئا متفقا عليه وان الرسائل بينهما لم تنقطع قط ، وان كلا منهما قد سعى إليه .

وكان واضحا .. ان كلا منهما يحمل لصاحبه من المشاعر ما يجزم بانه قد اضحى شيئا هاما فى حياة الآخر .. برغم انه لم يبد بينهما قط

ما قد يكون موضع لوم او مؤاخذة .. كان مظهر الارتباط بينهما علاقات بسيطة صريحة واضحة ، يضمها إطار الزمالة والدراسة والقراءة ، والنزهات المشتركة مع الغير .

واستقرت نادية مع والدتكما فى بيت بحى المزرعة فى آخر شارع الشهبندر .. ولم يكن البيت يبعد كثيرا عن بيتنا ، او بيت « حسان » فى برمانه .. واذكر اول زيارة لها وقد ذهبت انا وحسان وامى قبل الغروب وكان الشتاء قد قارب الانتهاء ، وبشائر الربيع قد اطلت من البراعم الخضر التى نبتت فى الأغصان على طول الطريق ، والناس قد اطلت من النوافذ تنفض عنها انكماشة الشتاء ، وتستهدى النسمة الدافئة .

وصعدنا الدرجات القلائل التى تفضى إلى الطابق الصغير الذى استقرت به « نادية » وامها ، وضغط « حسان » الجرس وسرعان ما اطلت « نادية » من الباب ففتحته مرحبة .

ولقيتنا امك بالبشاشة والترحيب واحببتها كما احببت نادية ، لنفس الاسباب ، لانها طيبة ، ولان بقسماتها شيئا منك ، جعلنى احس لها بالالفة والطمانينة .

وبدا حسان بالاعتذار عن عدم مجىء والدته قائلا :

ــ كانت امى تود الحضور .. ولكنها شغلت باجتماع مفاجىء لجمعية جديدة .. تكونت لإنشاء مساكن للأهالى على الحدود بيننا وبين إسرائيل .

ولم يعلق احد منا على قوله .. فقد كنا نعرف ان « خالتى حنيظة » لم تبد اية حماسة لزيارة بيت « نادية » ولقاء امها ، فقد بدا لها ان تلك الزيارة قد تعتبر بمثابة نوع من إقرار الارتباط الذى بدت مظاهره بين ابنها وبين « نادية » .

واجابت ام نادية (ودعنى اسميها كذلك ، فقد كانت بالنسبة إلينا اوثق ارتباطا بنادية منها بك .. وكان اسمها اقرب إلى السنتنا كام نادية منها كام حمدى) .

ردت السيدة الطيبة فى لهجة رقيقة ودود على اعتذار « حسان » عن امه قائلة :

ــ وفقها الله إلى الخير .. لقد سمعت من نادية عن مدى نشاطها فى الجمعيات الخيرية .

وقالت امى ضاحكة :

ــ لا تهدأ ابدا ولا تكل ، لا تستريح فى بيتها ابدا .

ــ ربنا يعطيها العافية .

واستمرت تحيات المجاملة تتبادل بين امك وامى .. عن الصحة والعافية وكيف ترى البلد .. و .. حتى سألت امى عن « اسم الله عليه » الذى هو انت .

وبدا القلق والضيق فى عينى امك ، وبسطت كفيها فى استسلام قائلة :

ــ اللهم لك الحمد .. كلما استقر به المقام بيننا ، يأبى الله إلا ان يبعده عنى .. لم يكد يخرج من الكلية الحربية لأفرح به حتى سافر إلى إنجلترا ، ولولا وجود أختى « لطيفة » هناك واطمئنانى عليه معها ، لقضيت من القلق .

وقاطعتها « امى » قائلة :

ــ لطيفة تستحق كل خير .. سيدة فاضلة وكريمة .. لن انسى جميلها معنا فى لندن ابدا .

ــ لم تفعل اكثر من الواجب ، إنما هى الأخرى تمتدحك مدحا .. كنت أتوهمها مبالغة فيه حتى حدثتنى عنكم نادية ، وحتى لقيتكم ، فوجدتكم خيرا من كل ما قالوا .. إن « حسان » لم يشعرنا ابدا اننا غرباء .

وقلت انا معاتبة :

ــ غرباء .. كيف ؟ نحن بلد واحد يا خالتى .. الم تعترفى بالوحدة بعد ؟ !

وضحكت امك قائلة :

ــ لم اقصد اننا بلدان يا حبيبتى .. إن مجرد ترك الإنسان بيته يشعره بالغربة . حتى ولو كان فى بيت الجيران .

واسترسلت امك فى قولها ضاحكة :

ــ على اى حال انا لم اشعر حتى انى فى بيت الجيران .. لقد ملأنى حسان إحساسا بأنى لم افارق ابنى حمدى .

ورد حسان مقاطعا ، محاولا ان يبعد الحديث عن مجرى الشكر والحمد الذى استرسلت فيه امك بعد ان احس بما يمكن ان يعكسه هذا الإفراط فى الشكر من حرج عليه عندما يبديه كأنه لا يفارق بيت نادية .

قال حسان :

ــ ومتى ينوى حمدى الحضور ؟ لقد سمعت من نادية عدة مرات انه على وشك ان ينتقل إلى دمشق .

وهزت امك راسها فى اسف قائلة :

ــ من سوء بختى .. عندما آتى انا إلى دمشق يظل هو فى القاهرة .. هل تصدق انه الغى نقله من قبل لأنه كره أن يتركنى وانا مريضة ، وعندما شفيت نقلت نادية ، ولم يكن من المعقول ان اتركها تسافر وحدها ، فتركته وسافرت .. وهكذا كتب علىّ ان افارقه دائما .

وقالت نادية مهدئة :

ــ سينتقل قريبا إلى دمشق .

واتم حسان قولها ضاحكا فى شىء من العبط الذى يأبى إلا ان ينضح به بين آونة واخرى :

ــ ويذهب إلى الجبهة ، ولا يأتى إليك إلا كل شهر .

وضحكنا من قوله .. فقد كان المفروض ان يقول شيئا يعاون فى تهدئتها .

وقلت أعترض على قوله :

ــ ولماذا لا يبقى فى إحدى الوحدات فى دمشق ؟ !

وعاد حسن يقول فى إصرار علنى :

ـ لانه فى المدفعية ، وكل وحدات المدفعية فى الجبهة .. ورياض أخو سلمى لم يبق هنا إلا فترة قصيرة عاد بعدها إلى الجبهة مرة اخرى .

ونظرت « أمى » إلى « حسان » فى غيظ وقالت امك فى استسلام وهى تبسط كفها :

ـ على اية حال .. اراه كل شهر خير من ان اراه كل عام .. ومجرد الإحساس بقربة يبعث إلىّ الطمانينة عليه .

وقلت اؤيد محاولتها لطمانة نفسها :

ـ والجبهة هادئة .. والحياة هناك مريحة .. والمسافة قريبة من هنا .

ورددت امك فى استسلام ملىء بالإيمان :

ـ ربنا يسلمه .. ويسلمنا جميعا .

ولم تمر بضعة اسابيع بعد تلك الزيارة حتى نقلت إلى دمشق .

وعلمت بذلك من « نادية » عندما اقبلت علىّ ذات يوم وانا اوشك على الانصراف من الكلية لتقول لى :

ـ ستتناولون العشاء الليلة معنا .

وهززت راسى مستفسرة ، فأجابت وعلى شفتيها ابتسامة عريضة :

ـ حمدى وصل .

وهتفت اتساءل فى فرحة :

ـ اقد نقل إلى هنا ؟

ـ اجل .

وانتابنى إحساس بالسعادة وانا اسمع خبر نقلك .. واكون مبالغة لو ادعيت اننى سعدت بمجيئك إلى دمشق من اجل نفسى ، بقدر ما سعدت به من اجل امك واختك ومن اجل الفراغ الذى يمكن ان تملأه فى اسرة تعيش بلا رجل ، ومن الحرج الذى ترفعه عن « حسان » وهو يحس بواجبه فى السؤال عنهما ، وزيارتهما .. وما يمكن ان يقال عن تلك الزيارات .. بل ما قيل فعلا .. عندما سالته امه ذات يوم ان

يصطحبهما فى إحدى حفلات الجمعية الجديدة التى تسهم فيها فاعتذر قائلا :

ـ لا استطيع .

ـ لِمَ ؟

ـ لانى مرتبط بموعد سابق .

ـ مع من .

وتردد « حسان » برهة .. فقد توقع اثر رده .. ولكنه بما جبل عليه من صراحة وسذاجة وعدم قدرة على حبك الأكاذيب اجاب :

ـ مع نادية .

وبدا الضيق على وجه امه ، ولكنها اجابت فى هدوء :

ـ اعتذر لها .

ورد هو بنفس الهدوء :

ـ غير معقول .

ـ غير معقول ان تعتذر لها ، لانك ستصطحب امك إلى حفلة ؟

ـ لا احب أن اخذلها .. ولا سيما انى الححت عليها فى ان تطلب من امها الخروج معنا .. لانها تكاد لا تغادر المنزل ..

ـ او تعتبر نفسك مسئولا عنها وعن امها ؟

وقال « حسان » فى ضيق :

ـ لا داعى لهذا الكلام .. إنهم ناس طيبون وهى زميلتى وصديقتى .. وقد عملوا الكثير لسهير فى لندن . وليس هناك اى حرج فى ان اذهب انا وسهير معهما فى اى مكان ..

وحاولت ان اتدخل لاضع حدا للجدل فقلت :

ـ ساذهب انا معهما يا حسان ، واذهب انت مع ماما .

ونظر إلىّ « حسان » فى عناد قائلا :

ـ لن اعتذر لهما .. انا لم اعد طفلا .. وانا اعرف جيدا ما اعمله .

وقالت امه وهى تحاول ان تكبت غضبها :

ـ انت لا تعرف شيئا .. وإنما تتصرف بحماقة واندفاع .. إنك

تسىء إلى الفتاة من حيث لا تدرى .. انت لا تعلم ما يتقوله الناس عليكما .. هل تظن الناس تسكت عن دخولك وخروجك عليهما وهما سيدتان تعيشان وحدهما بلا رجل ؟ !

— انا اعرف ان تصرفاتى لم تشبها شائبة .

— ولكن الناس لا تعرف .

ثم صمتت لحظة وتساءلت فى حدة :

— ماذا تكون انت بالنسبة إليهما ؟ قريب ؟ خطيب ؟

وأجاب « حسان » بهدوء :

— إذا كان لابد للناس من شكل رسمى .. فأنا على استعداد لكى أعلنه فى اى وقت .

واحست « خالتى حفيظة » بمدى الخطورة التى توشك المناقشة ان تقود إليها .. وادركت بذكائها ان « حسان » لا يمكن ان يؤخذ بمثل هذا العناد .. ولم تجد بدا من ان تنهى المناقشة بسرعة حتى لا تتطور إلى اكثر من هذا .

وردت « خالتى » فى شىء من الاستخفاف ، وكأنها لا تأخذ كلامه مأخذ الجد :

— انتهينا .. سأذهب وحدى .. لست فى حاجة إليك .

واحس « حسان » بما قد سبب لها من ضيق .. فأسرع يضمها إليه ويقبلها فى حنان قائلا :

— اتضايقت .. ؟

وردت « خالتى » بهدوء ، وقد غلب عليها حنان الام :

— ابدا .. كنت اظن انك ستسر بالذهاب إلى هذه الحفلة .

— لو لم اكن قد ارتبطت مع نادية .. لسرنى فعلا ان اذهب معك .. ولكنك تعلمين انى اكره ان اخذل الناس .

— معك حق .

وصمتت برهة ثم اردفت قائلة :

— وانا لا اريد ابدا إلا ما يسعدك .. واكره ان يدفعك انفعال مؤقت

إلى ارتباط لا يلائم مستقبلك .. عندما يذهب هذا الانفعال ..

وفهمت ما تعنى « خالتى » .. ولم يكن هنـــاك من شك فى ان « حسان » قد فهمه .

و « خالتى » على حق .. لأنها تفكر بغير انفعال .. تفكر وذكاؤها حر لا تسيطر عليه مشاعر ولا تقوده أحاسيس ، ولكن .. كيف تفرض نتيجة تفكيرها الحر ، الذى لا يشوبه انفعال .. ولا تقوده المشاعر .. على إنسان يغمر الانفعال ذكاءه .. وتجرف المشاعر منطقه ؟

لقد فهم « حسان » ما تعنيه امه ، ولكن منطقه لم يقبله . لقد كان يسخر بكل ما يخطط لمستقبله من مشروعات .. كانت مشاعره تأبى الإذعان لما يرسمه له ذكاؤها .

وانطلقنا إلى « نادية » .. لنصحبها وأمها إلى العشاء ..

ولم اكن بالطبع اعارض فى صحبة لنادية .. لأنى كنت احبها فعلا ، ولأنى لم اعتبر نفسى قط طرفا فى معركة معها من أجل « حسان » .. فما احسست ابدا ان ارتباطا يمكن أن يكون بينى وبين « حسان » اكثر من الارتباط الكائن فعلا .. قريب وصديق .

وإذا كانت « خالتى حفيظة » تراها خطرا على مشروعاتها .. فقد كنت انا اراها منقذتى .. من خطر تلك المشروعات التى بدات اشعر بأنها تعدت مرحلة المزاح إلى مرحلة الجد .

ومع ذلك فلم يمنع كل هذا من الإحساس بحرج وضع « حسان » بالنسبة لنادية .. مما دفعنى إلى الشعور بالسعادة لمجيئك .. لتحمل عنا جميعا ذلك الإحساس بالحرج ، وليتخذ « حسان » وضعا أسلم كصديق لك .. وليتاح له أن يحدد معالم العلاقة بينه وبين نادية بوجودك كرب اسرة .

والتقينا ليلتذاك فى بيتكم فى المزرعة : امى ، وحسان ، وسلمى : وانت ، واختك ، وامك .. ولحق بنا « ابى » ليقول لك حمد الله على السلامة .. ويؤكد لك ترحيبه بك فى دمشق كرد على ترحيبك بنا فى لندن .

وجلسنا حول المائدة المستطيلة الصغيرة فى البهو .. واحسست بأنك كأمى وهى حائرة بين المطبخ وحجرة الطعام .. وهى تساعد فى نقل الأطباق والصوانى وبها إحساس المقصرة التى لم تعط للضيوف ما يستحقونه من إكرام .

وبدونا كلنا سعداء .

« امك » سعيدة بوصولك .. سعيدة بقربك منها .. سعيدة بوجودنا .. سعيدة بما تحاول ان تمنحنا من مظاهر الحنان والحب .

و « حسان » سعيد بنادية .. فقد كنت احس ان مجرد وجودها يعتبر بالنسبة له سببا كافيا يغمره بالسعادة .

و « نادية » سعيدة بحسان .. برغم كل مظاهر التحفظ والاتزان والعقل التى تسيطر على تصرفاتها نحوه .

و « ابى » و « امى » سعيدان بمظاهر المحبة التى تفيض من حولهما ، ولم يكن واحد منهما يحاول ان يشغل نفسه بمشروع « خالتى حفيظة » الذى يوشك ان ينهار .. لانهما لم يحاولا ان يفرضا علىّ سببا للسعادة .. بل كانا — ولا سيما ابى — يتركان لى حرية اختيار اسباب السعادة .. ولم اكن قط احاول ان اسىء استعمال حريتى .. بل لا اظن اننى سببت لهما فى يوم من الأيام ندما على منحى هذه الحرية .. ولم احاول قط ان اجعل من سعادتى سببا لشقائهما .. قد تعوّدا ان يستمدا سعادتهما من سعادتى .

وكنت سعيد .

لست ادرى لمه ؟

إذا اعتبرنا ما حدث بعد ذاك .. فلا اظن هناك شكا فى أنك لابد وأن تكون — من حيث لا ادرى — سببا لتلك السعادة .

ولكن إذا اعتبرنا مشاعرى فى تلك الفترة .. بوصفها المجرد وبصرف النظر عما مهدت له .

فاغلب الظن أن سعادتى كانت سعادة طبيعية مستمدة من الجميع بما فيهم انت .

كان كل شىء فى نظرى يبعث على الرضا .

الم تكن سعادة كل هؤلاء من حولى .. سببا كافيا لسعادتى ؟

ترى اتغفر لى كل هذه المحاولات منى لكى اجرد نفسى من مشاعرى تجاهك حتى ذلك الحين ؟

اتغفر لى محاولتى أن أبرىء نفسى من حبك .

اغفر لى .

فإذا كنت ادفع عن نفسى الذنب — إن كان ذنبا — وقتذاك .. فلقد عجزت بعد ذاك أن ادفعه عن نفسى وانا غريقة فيه .

اغفر لى ، فأنا — حتى ذلك الحين — كنت اكره ان احب .. كنت احس بالحب مدعاة للسخرية .. وكنت احاول دائما ان اترفع بنفسى عنـــه .

اهو مركب النقص الذى يتحدثون عنه !

ام لأنى كنت اخشى الا يحبنى احد .. فعزمت الا احب احدا ؟

اظن لا !!

فما حاولت التعمق مع نفسى إلى هذا الحد من التفكير .

بل كنت اكرهه لانى لا احب ان ابدو كالمحبين .. او افعل ما يفعله المحبون .. او يقال عنى ما يقال عنهم .

واكثر من هذا .

لم اجد من يستحق ان اضع نفسى من اجله فى الفخ .

« حسان » وهو الرجل الوحيد الذى وضعت مشاعرى نحوه فى الامتحان .

لم ينجح إلا فى تقوية مقاومتى للحب .. وزيادة نفورى منه .. وترفعى عنه .

ولست اقصد بالطبع نفورى من « حسان » .. او ترفعى عنه .. بل نفورى من ممارسة الحب فى حد ذاتها .

اعرفت لماذا احاول تبرئة نفسى من حبك وقتذاك ؟

لانى ببساطة .. لم اكن احب ان احب .

ومع ذلك كنت سعيدة بك .

وللكتاب ان يسموها مقدمات حب .. ولكنى لم احس وتتذاك ابدا .. ان تلك السعادة بك .. بوجودك ، والحديث معك .. يمكن ابدا ان تنتهى إلى حب .

واقبلت علىّ ليلتذاك إقبالا خاصا .. ووضعتنى دون كل الموجودين موضع عنايتك واهتمامك .. ولم تتحرج ابدا من ان تظهر انى انا صديقتك .. ورحت تذكر ايام لندن ، وتحاول ان تجعل منها على ضحالتها .. نوعا من ذكريات الصديقين .. ثم رحت تتحدث عما نعلنا فى القاهرة .. جاعلا منه — على بساطته — شيئا هاما تذكره فى حياتك .

ولم اعرف .. اكنت مجاملا وتتذاك .. ام كنت تعنى ما تقول ، ولكن الذى اعرفه هو انى قبلت منك كل ما قلت .. واقبلت عليك بنفس الاهتمام ، وانا احس فعلا اننا اصدقاء ، وان لقاءنا السابق فى لندن والقاهرة قد وطد اواصر الصداقة بيننا .

ولم احاول ان اضايق نفسى بمحاولة تصور صداقتك على انها نوع من الشفقة او العطف على عرجاء .

بل قبلت تمييزك لى .. وإقبالك علىّ .. على انه إحساس مخلص منك .. وانك وجدت فىّ كما وجدت فيك .. ما يشعر كلا منا برغبته فى صداقة الآخر .

وقبل ان تنتهى سهرة العشاء فى منزلكم .. قلت لك فى نهاية حديثى ضاحكة :

— جاء دورى لكى اعمل لك دليلة .. لن اتعجلكم كما كنت تتعجلنا فى لندن .

وضحكت متسائلا :

— انا تعجلتكم ؟

— طبعا .. كنت ترمح بنا بسيارتك .. وكانك تريد ان تتخلص منا وتتذف بنا فى بيت خالتك .

— حرام عليك .. لقد كنت اخشى عليكم من البرد .

— لن اخشى عليك انا من شىء ، ساطوف بك كل دمشق ، واذهب بك إلى بلودان .. وإلى العين الخضراء . وإلى عين بردى .. حتى ادوخك كما دوختنا فى القاهرة .

وقبل ان اصافحك عند الباب قلت لك فى حماسة :

— موعدنا غدا .. سنذهب انا وانت وحسان ، ونادية ..

وقضيت ليلتى احلم باحلام جميلة .. لا تدع الغرور يدخل إلى قلبك .. فلم تكن انت بينها .. كانت احلاما جميلة ملؤها الورود والغدران الصافية .. والطيور المغردة .

لم تكن انت فيها .. ولكنها كانت تنم عنك .

بداية مُشرقة

دعنى استعيد ذكرياتى عن رحلتنا الأولى فى دمشق .

أعرف أنك تعرفها .. ولكنى كما قلت لك لا أكتب لأنبئك شيئا جديدا .. بل أكتب لأردد لنفسى أعذب ذكرياتى .. الوكها فى ذهنى كما يلوك الطفل قطعة الحلوى فى فمه .

وهذه إحدى قطع الحلوى فى حياتى .

كان الشتاء فى أواخر أيامه .. يكاد يلفظ آخر أنفاسه الباردة ، وقطع السحاب تتلاحق على صفحة السماء ، تطل الشمس من ثناياها .. بين آونة وأخرى .. لتمنحنا مسة دفء يبدد الصقيع الذى يلفحنا عندما تطول لحظات غيابها وراء كوم داكن من السحب .

زرقة السماء تبدو من خلال السحب الرمادية شديدة الزرقة .. ترسم فى الأفق من وراء الغصون التى بدا النبت الأخضر فى براعمها .. أجمل لوحات الطبيعة .

وإشراقة فى النفس تضىء الحنايا من حولى .. الله أعلم بمصدرها .. أهى نعمة الرضا والقناعة والنفس الصافية التى تملؤها السكينة والمودة والإيمان بالحياة .. خالقها ومخلوقاتها .. أم هى دقات رخيمة يتردد صداها العذب بين الحنايا .. إيذانا بميلاد شىء جديد فى القلب لم يألفه بعد ..

أيا كان مصدرها .. لقد انطلقت سعيدة من دارى .. أطوف ببقية الدور استحث الرفاق .. حسان ، وسلمى ، ونادية ، وإياك ..

ووقفنا بالعربة فى نهاية برمانة ، وتساءل « حسان » وهو يجلس أمام عجلة القيادة بعد أن صرف السائق قائلا :

ــ إلى أين ؟

ولم تكن فى ذهنى خطة مرسومة .. فقد كنت أحس بالرغبة فى الانطلاق إلى كل مكان فى العالم الفسيح .. نندفع مع المياه المتدفقة فى السهول .. ونثب إلى القمم البيض المكللة بالثلوج ، ونهيم بين أكوام السحب المتناثرة المتلاحقة على وجه السماء .

وردت سلمى تستعرض إحدى الطرق المفتوحة أمامنا قائلة :

ــ إلى الغوطة .

وبرغم حبى لبستان الغوطة .. فقد أحسست أنى أريد أن انطلق بعيدا بعيدا .. أبعد من الغوطة .

ولم تحر أنت جوابا .. وأدارت « نادية » رأسها إلىّ وهى تجلس بجوار « حسان » على المقعد الأمامى متسائلة :

ــ ما رأيك يا سهير ؟

والتفت بدورى إليك وأنت تجلس بينى وبين « سلمى » وقلت ضاحكة :

ــ ما رأيك يا حمدى ؟

وتساءلت أنت ضاحكا :

ــ أنا ؟ .. لو خيرت .. لطلبت منكم أن تحملونى إلى وحدتى فى الجبهة وتدعونى استقر هناك .

ورددت عليك فى شىء من خيبة الأمل :

ــ أهكذا مللتنا سريعا ؟ !

ــ لم أقصد هذا .. ولكنى فقط لا أشعر بالاستقرار إلا بعد أن اتخذ مكانى فى وحدتى .. وأعرف أين أنا .. ومع من أعمل .

ورد حسان ضاحكا :

ــ لا تتعجل .. غدا ستشبع استقرارا .

وصمت لحظة قبل ان يعود إلى التساؤل :

ــ لم تقولوا بعد إلى اين ؟

ورددت قائلة بسرعة :

ــ إلى بلودان ؟ !

واعترضت سلمى قائلة :

ــ برد !

واجبت فى إصرار :

ــ سنمر بنبع بردى ، ونزور الزبدانى وبقين والمناطق حول بلودان .. ثم نصعد الكازينو فى أعلى القمة لنرى الثلوج هناك .

ثم التفت إليك قائلة :

ــ ساكون دليلك فى دمشق .. وسامنحك نزهة خيرا مما منحتنى فى لندن .. ساريك ان لدينا نحن ايضا ثلوجا .

وقال حسان معترضا :

ــ اخشى ان تكون الثلوج قد ذابت ؟

ورددت مازحة :

ــ إذا اسرع بنا قبل ان تذوب كلها .

وادار حسان العربة ، وانطلق بنا وهو يقول :

ــ إلى الثلوج قبل ان تذوب .

واجتزنا دمَّر .. ولفتت نظرك المياه المتساقطة من فوق الجبل فاشرت إليها وقلت معجبا :

ــ لم اتصور ان يكون مدخل دمشق بهذا الجمال !

ورد حسان :

ــ منذ عامين كان اجمل .. عندما كانت الامطار اكثر غزارة والمياه اكثر تدفقا .

وصمت لحظة وعاد يقول :

ــ ثانى عام بلا أمطار .. والناس يقرنون الجفاف بالوحدة ..

كان الله يابى إلا ان يمتحن قوة إيماننا بها .. لندع الله ان ينزل المطر .. حتى لا يفقد السذج إيمانهم بالوحدة .

واجبت انت فى حرارة :

ــ لينزل الله المطر من اجل الناس الطيبين ، من اجل حياتهم وأرزاقهم .. الوحدة قد تحتمل التجربة ، ولكن حياتهم لا تحتمل .

وضحك حسان قائلا :

ــ على اية حال .. ليست هذه هى المرة الاولى ان يمروا بتجربة الجفاف .. لقد قرات ذات مرة ان الامطار انقطعت بضع سنوات ، حتى حف الزرع . وقل المحصول وهددت البلد بالمجاعة .. وسال الوالى إمام البلد ان يصلى باهلها ويسال الله ان ينزل المطر .. وهز الإمام راسه فى اسف وقال معتذرا : « غير معقول يا مولاى ان اصلى من اجل المطر وليس ثمة سحابة توحد الله فى السماء » .

وتساءلت انا فى شىء من الدهشة :

ــ إذا كانت الأمطار تخذلنا بين حين وآخر .. فلماذا نضع أعناقنا فى يدها ؟

واجبت انت :

ــ فى الاتحاد السوفييتى اخترعوا آلة لإسقاط المطر الصناعى وهم يشرحونها للفلاح قائلين « فيما مضى كنت تسال الله ان ينزل لك المطر ، وتنتظر حتى يسقط .. او لا يسقط .. ولكنك إذا ضغطت على هذا الزر فنزول المطر لا ريب فيه » .

ورددت عليك محتجة :

ــ لا اقصد ان نفقد إيماننا بالله .. فهو يملك كل شىء حتى قدرتنا على ان نضغط هذا الزر .. وإنما اقصد ان نجد لأنفسنا وسيلة .. تعوضنا عن المطر ، عندما يخذلنا المطر .

ورد حسان فى حماسة :

ــ ومن اجل هذا .. وضعت مشروعات السدود التى تجعلنا نتحكم فى مياهنا .. فنختزن الفائض لنستعمله وقت الحاجة .. حتى لا نعتمد

فى رى ارضنا على مصادر لا نملك التحكم فيها .. من اجل هذا وضع مشروع سد الرستن والفرات .

وصمت برهة ثم أردف ضاحكا :

— إذا كانت الأمطار قد خذلت الوحدة .. فلن تخذل الوحدة الأرض الطيبة .

وكنا قد اقتربنا من عين الفيجة ، فسألت « حسان » أن يتمهل قائلة :

— هنا عين الفيجة .. العين التى نحصل منها على ماء الشرب .

ثم وجهت السؤال إليك قائلة :

— أتحب أن تراها ؟

وبدا من عينيك التردد .. وادركت انك لا تريد ان تكثر من النزول من العربة والسير حتى لا تتعبنى .

وكنت أشعر بطاقة عجيبة .. ولم احس قط ان لى ساقا مشدودة اجرها ورائى .. فقلت لحسان الذى توقف ينتظر اوامرى :

— اتجه بنا إلى العين .

وتوقفت بنا العربة فى المنحدر ، وهبطت وإياك تتبعنا « سلمى ونادية ثم « حسان » .. واتجهنا إلى المقهى المعلق على القوائم الخشبية فى عرض المجرى الذى تتدفق منه المياه .

وامسكت بيدى تساعدنى على تخطى المعبر الخشبى المؤدى إلى المقهى ..

ولست ادرى لماذا اذكر انك امسكت بيدى ..

لماذا اتلكأ وانا اسرد كل هذه الذكريات الحافلة المليئة بالأحداث الهامة .. لأذكر انك امسكت بيدى تساعدنى على العبور .

الم يكن طبيعيا ان تساعد عرجاء — او حتى غير عرجاء — على تخطى معبر خشبى على المجرى ؟

الم تكن الوسيلة الطبيعية للمساعدة هى ان تمسك بيدى .

بل الم يمسك بيدى ليساعدنى على النزول او الصعود او العبور .. مئات الناس من قبلك ؟ ! ومع ذلك لم احاول ان اذكر متى واين ومن ؟

ومع ذلك .. وبغير وعى منى .. اقول هنا إنك أمسكت بيدى وساعدتنى على العبور .

وكانى اعتبر إمساكك بيدى .. حدثا جللا .

او ليس كذلك ؟ !

فى أعماقى .. هذه الاعماق التى تزخر بأشياء عجيبة .. متشابكة مختلطة .. قلّ ان يعرف كنهها أحد .. حتى انا !

فى اعماقى .. اشعر انه حدث جلل .

ليس بالطبع لانك انقذت حياتى .. بمساعدتى فى العبور خشية الانزلاق .

بل لمجرد انك امسكت بيدى .

لمجرد تلامس كفينا .

بم احسست وقتذاك ؟

عندما أعود بذاكرتى إلى تلك الهنيهة اذكر — وكفى فى كفك — إحساسا غريبا بالطمأنينة .. وكانى وجدت سندا افتقده — ليس لمجرد عبور المعبر الخشبى ، بل لعبور الحياة كلها .

احسست لكفك .. ملمسا مريحا .. حانيا .. آمنا .. لمتكأ .. وددت لو طال استقرارى عليه .

ولكنى اسرعت بانتزاع كفى .. لمجرد وعيى بذلك الإحساس .. وإدراكى للشعور الخاص الذى سببه استنادى إلى كفك .. والذى لم اشعر به لأى كف استندت إليها من قبل .

واستطعت ان اغلب ذلك الاضطراب الباطنى الذى احسست به وانا اجد نفسى على حافة شىء لم امهد نفسى له ، بل كنت قد وطدت نفسى على تجنبه .. وكنت اجد فى الأسلوب الذى اخذت به نفسى فى الحياة .. والذى قادتنى إليه رغبتى فى ان انمو مستقلة — حتى لا أعرض نفسى لأى ارتباط قد اخذل فيه — ما ينأى بى عن اى احتمال للدنو منه .

ولست ادرى ما إذا كنت قد استطعت ان تحس سرعة انتزاع كفى

من كنك .. ولا ما إذا كنت قد خذلتك .. او اشعرتك بالذنب .. ولكن الذى استطيع ان أؤكده .. انك — بذكائك ورقتك — استطعت ان تواصل إقبالك علىّ واهتمامك بى .. بكل ما تملك من الرعاية والمودة .. دون ان تحاول مرة اخرى ان تمس يدى ، واخذت تنصت فى اهتمام إلى ما استطعت ان اشرحه مما اعرفه عن نهر بردى وفروعه الخمسة .. بما فيها ذلك الذى يجرى فوق الجبل .

وعدنا إلى العربة ، وانطلقنا مرة اخرى .. فى الطريق الصاعد .. بين مروج الكروم التى تبنت الأوراق فى أغصانها الزاحفة على الأرض الحمراء .

ووقفنا ثانية على نبع بردى .

سرنا تحت العريشة المتسعة القائمة على المجرى العريض ، واخذت الريح تصفر بطريقة ساحرة .. وكأنها تنفخ فى ناى يصل إلينا صوته من اعماق النبع .

وتساءلت :

— اين النبع ؟

واشرت إلى نقطة بين الصخور ضاق عندها النبع ، قائلة :

— هناك .. هيا اريك إياها .

وكان الثلاثة الآخرون قد استقر بهم المقام على منضدة تحت العريشة ، ونظرت انت فى حيرة وكأنك تلوم نفسك على ما تنوى ان تسببه لى من تعب .. وقلت معتذرا .

— لا اريد ان اتعبك .

— انا اقوم بواجبى كدليل .

ثم اردفت ضاحكة :

— كل ما آمله .. الا ازودك بمعلومات خاطئة عن كل ما ترى .

وقلت فى حرارة :

— انت تريننى اشياء جميلة .. لا يمكن ان يخطىء المرء فهم جمالها .

وسرنا نحو النبع ، وجاوزنا الأرض الخضراء المنبسطة إلى الصخور .. وبدات اجد صعوبة فى السير ..

ولمحت فى عينيك نظرة رجاء .. لقد كرهت ان تتركنى اجر ساقى بين الصخور . وخشيت ان تمد إلىّ يدك .

ومددت انا يدى إليك .. وببساطة وضعت كفى فى كفك .

ومن جديد احسست براحة الاستناد إليك .. ومتعة مس كفك بكفى .. واصابعك لاصابعى .

ولكن إحساس الوجل قد تبدد او كاد .. والمفاجأة بذلك الشيء الباهر الذى وقفت على حافته ، والتى جعلتنى اجفل وارتد على اعقابى .. قد خفت حدتها .. ووجدت فى نفسى الشجاعة ، كى اسرح ببصرى فى ذلك الشيء المشرق الذى احسست انى اقف على حافته بمجرد مس كفى بكفك ، واستنادى إلى يدك .

وتركت نفسى استريح ..

وعندما نجد فى حياتنا المليئة بالشقاء .. فرصة للراحة نظلم انفسنا إذا ما حرمناها منها .

او هكذا نعتذر لانفسنا .. عندما نرخى لها الزمام ، ونهون لها الخطايا .

او كانت تلك خطيئة ؟

إذا اخذت بمقاييس ما قبلها .. من مبادىء !!

فهى قطعا خطيئة .

وإذا اخذت بمقاييس ما بعدها من احداث .

فهى تمهيد طبيعى .. لاجمل ما فى العمر .

وهكذا تختلف حقيقة الخطأ والصواب باختلاف المقاييس .. وما من مقاييس يمكن ان تثبت لافعالنا على الزمان والإنسان .. إلا حصيلة تلك الافعال من النفع او الاذى .

ولم احاول بالطبع ان احلل لنفسى نتيجة فعلتى تلك حينذاك .. من النفع او الأذى .

لم احاول .. لانى لم اكن املك وقتذاك .. سوى الاستمتاع بهـا .

وسرت بين صخور النبع .. استمتع بكفى فى كفك واشير إلى المياه المتدفقة من الصخور :

ــ المياه تتدفق باردة حتى فى عز الصيف .

وانحنيت تضع كفك فى المياه الصافية قائلا :

ــ اجمل ما فى الكون .. المياه تتدفق من الصخور .

واجبتك مازحة :

ــ بت تشعر ؟ !

ــ ومن لا يشعر وسط كل هذا الجمال .. إلا جماد .

وفى وقفتك تلك .. تذكرت فجاة .. الحمامة التى حطت على راسك فى ميدان ترافلجار ووجدتنى اقهقه .

ونظرت إلىّ فى دهشة وتساءلت :

ــ ماذا يضحكك ؟ !

ــ تذكرت منظرك .. والحمامة البيضاء على راسك !

وابتسمت ونظرت إلىّ مؤنبا :

ــ ظننتنى اثرت فى نفسك الإعجاب كشاعر فإذا بك تضحكين علىّ .

ــ ايتنافى الضحك مع الإعجاب ؟ !

ــ اعتقد .

ــ ايتحتم علىّ لكى اعجب بك .. ان ابوز فى وجهك ؟

وتصنعت التكشير ومددت بوزى .. فاغرقت انت فى الضحك .. وأجبت متهقها :

ــ ليس إلى هذا الحد .

وجذبت يدى ببساطة ، وتملكنى إحساس طبيعى بأن ليس بيننا كلفة .. كل منا قريب من الآخر إلى ابعد حد .. كانك اخى او ابى ..

او امى .. ولم احس بان هناك ما يمنعنى من ان استند إلى كتفك او احيطك بذراعى .

ولم افعل بالطبع .

مجرد شعور .. من هذه المشاعر العجيبة التى يجيش بها باطننا ولا نجرؤ على تنفيذها وتتبدد دون ان يشعر بها أحد .

وعدنا إليهم .. لنجلس معهم على المائدة .. ولنجد « نادية » و « حسان » قد انهمكا فى حديث لا يخفى ما بينهما من مشاعر .

و « سلمى » المسكينة .. قد جلست ترقب المجرى الذى تجرى فيه المياه تجعدها هبات النسيم .. وتستمع إلى صفير الناى تنفخه الريح من اعماق النبع .

واحسست انى مذنبة ..

كان المفروض ان تكون معنا « سلمى » .

ولكنها لم تات .

ولماذا لم اسالها ان تاتى ؟

ولماذا لم تات؟ هى وحدها ؟

اترى المخلوقة الرقيقة قد احست ان شيئا ما .. يجعل وجودها ثقيلا بيننا ؟

لشد ما اخطات إذا كان هذا هو ما تركته فى نفسها من إحساس .

وبدافع من تانيب الضمير .. اقبلت عليها .. امنحها المزيد من مظاهر المودة والحب .

ولم تكن فى حاجة إلى مثل هذه المظاهر .

ولكنها حماقة المذنب .

ولقد كنت مذنبة ــ باسلوبى فى التفكير وقتذاك ــ ما فى ذلك شك .

وكان علىّ ان اوزع اهتمامى على الجميع فى الرحلة لكى ابعد عن نفسى الإحساس بالذنب .

وعاودنا السير .. مواصلين الصعود فى طريق بلودان ، فلم نتوقف حتى وصلنا إلى المقهى فى أعلى القمة .

وكانت بقايا جليد ما زالت تسطع على اجزاء فى القمة التى تشرف على المقهى .

واحسست بلسعة البرد ، وكانت الشمس قد غابت وراء كوم ثقيل من السحب السود .. فقال حسان :

— أظن من الخير ان نهبط لتناول الغداء فى الفندق .

ولم يكن امامنا سوى هذا الحل .. فعدنا إلى العربة ، وانا اتعمد ان اتباعد عنك .

وقبلت تباعدى ببساطة .

لم يكن امامك بالطبع سوى هذا .. وكان علىّ ان اسلم به .. لانى أنا التى قصدته .

ولكنى — لسخافتى — لم ارتح إليه .

كنت اود الا تسلم بتباعدى ، وان تقترب منى انت !

اتراه كان اختبارا صبيانيا لمدى اهتمامك بى ؟

وهل قصدت ان أعرف ما إذا كان تسليمك بتباعدى ، وتشاغلك بسلمى تارة .. وبحسان تارة اخرى .. يعنى ان قربك منى او بعدى عنك يتساوى لديك ؟ !

اصدقك القول .. لقد كنت دائما تحيرنى .

لم أعرف ابدا .. اذكى انت إلى الحد الذى تعرف فيه سبب تصرفاتى .. فتتجاوب معها لكى تريحنى ؟

أم انى لا اعنى لديك شيئا خاصا ؟ !

وهل كنت انت تعنى شيئا خاصا .. حتى افرض لنفسى عندك موقعا خاصا ؟

إذا تطلبنا الإجابة الصريحة .

فقطعا لا !

واكون كاذبة مدعية .. لو قلت لك .. إنى حاولت أن اسلم لك فى مناقشتى لنفسى بأى موضع خاص .

ولكن إذا نبشت فى تلك الأعماق التى حدثتك عنها .. الأعماق البعيدة .. التى تكمن فيها اشياء عجيبة يختلط ببعضها البعض ، ولا نكاد نحس بوجودها .. حتى نفاجأ بها تتضخم وتبرز ، وتغطى على كل ما عداها .

إذا بحثنا عن تلك الأغوار السحيقة فى نفسى .. فلا جدال فى انك قد احتللت موقعا خاصا .. حتى قبل ذلك .

ربما منذ لقائنا فى القاهرة .

او من يدرى .. ربما منذ لقائنا فى لندن .

من يدرى ماذا يكمن فى اعماقنا العجيبة ؟ !

وكنت احاول — من حيث لا ادرى — ان ابحث عن موقعى فى اعماقك .. وعما تنم انفعالك .. من تحديد لهذا الموقع .

وسامحك الله .

فقد كنت تخذلنى دائما .

إما — كما قلت لك — عن فرط ذكاء ..

او عن فرط تبلد ..

وتناولنا الغداء فى الفندق .

وجرى الحديث بيننا .. عاديا .

لم يكن فيه ما يمكن ان أستعيده فى ذاكرتى الآن .

وعدنا اخيرا .. بعد أن مررنا بعين بقين .. وشرب كل منا جرعة من ماء النبع ، قلت لك باعتبارى دليلك إنها تشفى من عدة امراض ، وتفيد الكبد وتسقط الحصى من المرارة .. واشياء كثيرة سمعتها عن تلك العين التى يمكن أن تقضى على مهنة الطب فى العالم .

وغلب علينا التعب فى العودة .

لم نتحدث كثيرا .. وشرد كل منا فى بيداء افكاره .. فكرت انا فى اشياء كثيرة غيرك .. فكرت فى امتحان الكلية .. وفى الدروس التى

كان يجب علىّ أن انقلها .. وفكرت فى « أبى » وحيرته لعدم تحديد الأرض التى ستترك له بعد الاصلاح الزراعى ، وفى الميوعة فى تطبيق القانون .. وما يشكوه من أن وزير الإصلاح البعثى يحاول الثأر منه لصلته الوثيقة بحزب الشعب .

وفكرت « فى خالتى حفيظة » ومدى ضيقها لإخفاق مشروع الزواج الذى أعدت له .. وكنت احس بعطف عليها رغم انى كنت اول الراضين عن إخفاق المشروع .. على الأقل من ناحيتى انا .

وفكرت فى « حسان » واحتمال زواجه بنادية .. وتملكنى من تفكيرى شعور بالارتياح .. لانى احب « نادية » .. ولانى — بإحساسى الخفى — ادركت ما يمكن ان يؤدى إليه مثل هذا الزواج من تقارب بين اسرتينا وبالتالى توثيق الروابط بيننا .

وانتهى بى الشرود .. إلى التفكير فيك ..

تفكير مشوش مضطرب .. خليط من السعادة والضيق .. والراحة .. والقلق .. والرضا والإحساس بالذنب .

لم اكن اجسر على ان احدد لنفسى هدفا معينا منك .. فقد كنت اخشى ان احدد مطلبا .. اخذل فى الحصول عليه .. وكان شعورى بما فىّ من نقص يجعلنى اجفل عندما احاول ان احدد لنفسى فيك اى نوع من الأمانى .

كنت اعز نفسى .. واكره ان الوح لها باى امنية يضعها الإخفاق فى تحقيقها موضع الهوان .. ولكنى كنت ايضا اكره ان آخذها بقسوة الحرمان .. من اجل خوف الإخفاق .. وخوف المذلة .

وكنت فى تفكيرى فيك .. اترجح بين هذين الشعورين .. إحساس الرغبة فى الاستراحة إليك .. والاستمتاع بما تمنحنى إياه صحبتك من شعور بالسعادة والفرحة ، وإحساس الخوف بما يمكن ان تؤدى إليه تلك الصحبة .. من مضاعفات .

كنت فى تفكيرى فيك .. كالسائرة فى طريق .. مشرق البداية .. معتم النهاية .. تغريك بدايته بالدنو منه .. وتروعك نهايته من المضى فيه ..

وإغراء البداية الجميلة .. اغلب على البشر .. من خشية النهاية المعتمة .

وانا فى تفكيرى .. لم ازد على ان اكون بشرا ..

لم اكن قديسة .. تمضيت اتهادى فى البداية المشرقة . واسال نفسى ، وقد اوشك الفراق ان يحين : متى سالقاك ثانية ؟

رغبة فى لقاء

انقضت فترة بعد اللقاء الأخير .. دون ان تسنح الفرصة بلقاء آخر .. فقد رحلت إلى الجبهة فى اليوم التالى ، وكانت زياراتك بعد ذلك لأمك زيارات خاطفة لم تسمح باى تدبير للقاء .

وانشغلت أنا بحياتى العادية فى الكلية وفى البيت . وكنت تطوف بذهنى كالحلم الجميل .. ولا انكر انى كنت اتمنى لقاءك .. ولكنى لم اكن — حتى بينى وبين نفسى — فى وضع يسمح لى بمحاولة السعى إلى ذاك اللقاء .. ولم اكن املك إلا ان انتظر حتى تدبره لنا الصدف .

ويعلم الله إن زيارتى للجبهة بعد ذلك — حيث تم بيننا اللقاء التالى — وليدة صدفة ام هى وليدة إيحاء خفى من مشاعرى المتوارية ورغبتى المستترة فى رؤيتك بعد ان عجزت الظروف بضع مرات عن أن تدفع باحدنا فى طريق الآخر برغم وجودنا فى بلد واحد .

كان مهرجان الشعر الذى اقيم فى مسرح المعرض قد اوشك على الانتهاء .. وذهبت اشهد يومه الأخير مع « نادية » و « حسان » .. وكان الزحام على اشده .. جمهور عجيب خليط من شتى الأذواق والطبقات .. اختلط فيه مستمعو « شفيق جبرى » و « صالح جودت » بمستمعى « فايدة كامل » و « نجاح سلام » ! أو عشاق الشعر بعشاق الطرب .. وملئت القاعة على رحابتها .. وفوق اغصان الأشجار المحيطة بالمسرح تسلقت جماهير الشباب والصبية وكل من لهم القدرة على التسلق ممن لم تسعهم القاعة .

وجلست فى مقعدى انقل البصر بين رجال الدولة والوجوه المعروفة من الأدباء والشعراء والجماهير المتزاحمة على المقاعد وفوق فروع الشجر .

وكان المرح والبشر يملان جو القاعة .. ولم يكن هناك اثر للتزمت والوقار الذى يغلب جو المحاضرات .. وبدت لى جماهير المستمعين اكثر استعدادا للطرب منهم للفهم .

ومع ذلك .. لم يكد يبدأ إلقاء الشعر حتى خيم الصمت على الجماهير ، واحسست بها تنصت فى وعى وفهم ، وتستعيد البيت الجيد كما تستعيد جماهير الطرب فقرة لحن جميل .

واخذت ارهف السمع إلى بعض قصائد مما احسست لها رنينا حلوا فى مسمعى .. وفهمت من ابياتها ان صاحبها يريد ان يقول لى شيئا .

وشردت فى البعض الآخر وانا احس أن صاحبها يقول اشياء غير مفهومة .. ولم يعدنى من شرودى سوى زمجرة الجماهير التى اخذت تضيق برتابة الوزن والقافية .. التى غلب ملل الجماهير بها قدرتها على فهم ما تعنيه .. إن كان صاحبها يعنى بها شيئا .. وهمست لحسان قائلة :

— لم اكن اتصور الجمهور بهذا القدر من الحساسية .. لقد استطاع أن يميز الشعر الحسن بحساسيته .

وهز حسان راسه وقلب شفتيه ولم يبن عليه الرضاء عن قولى .. وتساءل فى شىء من السخرية :

— هل تعرفين انت ما هو الشعر الجيد ؟

واجبته بغير تفكير :

— كلام ذو رنين موسيقى .. يصدر عن عاطفة فياضة وذهن لماح .. ليعبر فى وضوح عن معنى يريد أن يقوله الشاعر .

وصمت حسان برهة كانما يقلب كلماتى فى ذهنه ، ثم اخرج من انفه صوتا اشبه بالزوم منه بالحديث .

ولم يبد عليه انه يعارض فى ردى على سؤاله .. ولكنه أردف فى شىء من الضيق :

ــ جماهير قاسية ! !

واجابت نادية مؤيدة قولى :

ــ ولكنها حساسة .

ــ لا احبها .

ولم اشك أن « حسان » قد وضع نفسه موضع الشاعر الذى صدته الجماهير .. وعبر بطيبته ومسالمته عن مدى ضيقه بإظهار الجماهير إعراضها عنه .

ولم أكن اقل منه إحساسا بالضيق للشاعر .. ولكنى كنت أحس بمدى مسئوليته عن انصراف الجماهير عن الاستماع إليه .. وتعجلها نزوله عن المنصة .. لا سيما وانه بالغ فى الإطالة .

وانتهى الشاعر وتلاه آخر .. استعاد إنصات الجماهير وإعجابها .. وسرعان ما نسيت ــ كأنها الطفل ــ ضيقها بسابقه .. واندفعت تتبعه فى إرهاف وحماسة .

وانتهى إلقاء القصائد وغادر بعض مستمعى الشعر مقاعدهم خلال فترة الراحة بين الفاصلين قبل ان يبدأ فاصل الغناء .

وقال حسان متسائلا :

ــ أتريدان الانصراف ؟

وتساءلت فى دهشة :

ــ لماذا ؟

ــ لم يبق بعد ذلك سوى الغناء .

وتساءلت نادية ضاحكة :

ــ ومن قال إننا لا نحب الغناء ؟

واردفت وانا اقول مازحة :

ــ إذا كنتما كاستاذين فى الجامعة .. تستنكفان من الاستماع إلى الغناء .. فأنا ما زلت تلميذة .

وضحك حسان قائلا :

ــ على اية حال .. الغناء شعر ملحن .. وبهذا الاعتبار استطيع ان استمع إليه .

وقالت نادية :

ــ إذن هيا بنا نشرب شيئا قبل ان يبدأ الغناء .

وترددت برهة قبل ان انهض لأتبعهما .. وبدا كأن « نادية » قد تذكرت انى أجر ورائى ساقى فى مشد حديدى .. فقد استدارت بسرعة وقالت مستدركة :

ــ يذهب حسان ليحضر لنا مشروبا .

وتغلبت على ترددى وقاطعتها وانا أنهض قائلة :

ــ بل سأذهب معكما .

ولم نكد نصل إلى آخر درجة قرب المسرح حتى وجدت احد المشرفين على الحفل يقترب من « نادية » و « حسان » مرحبا .. وعرفتنا به « نادية » باسم « عصام » كصديق لها .. ثم اتجهنا جميعا إلى الباب القائم على اليمين ، ووقفنا فى الردهة بين مدرجات الزهور التى تحيط بالجانب الايمن من قاعة المسرح وبين بناء المسرح نفسه .

وكنا فى أواخر سبتمبر ، وكانت السحب قد اخذت تتكدس طيلة اليوم فى صفحة السماء ، وكان المسرح مكشوفا إلا من ستائر الخيام .. وكنا نخشى قبل حضورنا إلى الحفل ان ينقلب الجو فتعصف بنا ريح باردة .

ووضعت السترة على كتفى . .وجرى الحديث بيننا عن نجاح المهرجان وفرط إقبال الجماهير عليه .

وتساءل حسان فى خبث :

ــ لست ادرى .. أأقبلت الجماهير على الشعر أم على الغناء ؟

ورد عليه « عصام » قائلا :

ــ بعض الجماهير انصرفوا قبل الغناء مما يؤكد قدومهم من أجل الشعر فقط .

ـــ على اية حال اسلوب ذكى لجذب الجماهير .

واجابت نادية ضاحكة :

ـــ لقد اتفقنا على ان الغناء شعر ملحن .. فلا يمكن اعتباره دخيلا على مهرجان الشعر .

وقال عصام وهو يحس ان فترة الراحة بين البرنامجين قد اوشكت على الانتهاء :

ـــ كل سنة وانتم طيبون .. إنها فرصة طيبة للقاء الشـــعراء بالجماهير .

وتساءل حسان :

ـــ اقد انتهى المهرجان ؟

ـــ لم تبق إلا زيارة الجبهة غدا .

ـــ اسيزور الشعراء الجبهة ؟

ـــ اجل .. بدعوة من الجيش الأول .. لماذا لا تحضرون معنا ؟

وقالت نادية :

ـــ انستطيع ان نحضر ؟

ـــ طبعا .

وتساءلت أنا :

ـــ اليست الدعوة موجهة لوفود المهرجان ؟

وقال عصام مؤكدا :

ـــ سيرحب الجميع بوجودكم بيننا .. إن الدعوة ليست مقصورة على عدد معين .

ونظرت إلىّ نادية تتساءل وبعينيها علامات القبول :

ـــ لِمَ لا نذهب ؟

واجبتها فى حماسة .. وانا احاولْ حجبــك فى اعمــاقى حتى لا تفصح سبب حماستى فى القبول :

ـــ اجل نذهب .. إنها فرصة لا تعوض .

واردف حسان قائلا بنفس الحماسة :

ـــ ونرى حمدى هناك ؟

والتفتت نادية إلى « عصام » متسائلة :

ـــ أواثق أنت انه ليس فى ذهابنا حرج ؟

واجاب مؤكدا :

ـــ ابدا .. سيذهب معنا جميع الصحفيين والادباء .. إن لدينا عربات تسع لأكثر من ثمانين شخصا .

وقلت :

ـــ انستطيع ان نذهب بعربتنا ؟

ـــ طبعا .. ستتجمع العربات امام فندق سميراميس فى الساعة الثامنة صباحا .

وقال حسان فى حماس شديد :

ـــ سنأتى من السابعة والنصف .. طالما تقت لزيارة الجبهة .. لأطل على الأرض المغتصبة .

وقلت له :

ـــ أتعرف ان « الاسطى على » فلسطينى الاصل .. لا شك أنه سيفرح كثيرا باصطحابنا إياه فى هذه الرحلة .

وسمعنا الميكروفون يعلن عن ابتداء الاغنية الاولى .

ونظر عصام إلينا قائلا :

ـــ هيا بنا .

وترددت برهة قبل ان نخطو إلى داخل قاعة المسرح .. وقلت لحسان :

ـــ اليس من الافضل ان اعود مبكرة لاخبر « امى » برحلة الغد ؟ !

ورد حسان :

ـــ كما تشائين .. لقد كنت انت المتحمسة للغناء .

وفكرت برهة ثم عدت اقول :

ـــ افضل ان اعود الآن .. لكى اتصل ايضا بسلمى لانها ستتضايق كثيرا إذا ذهبنا إلى الرحلة بدونها .

ومدت نادية يدها تودع صاحبها قائلة لتحسم الأمر :

ــ سننصرف الآن .. ونلتقى غدا أمام سميراميس .

وقبيل الثامنة .. كنا نقف بالعربة وراء صف السيارات العسكرية التى تقف أمام الفندق لنقل الوفود إلى الجبهة .

ولقد لقيت بعض المعارضة من « أمى » فى ذهابى إلى رحلة الجبهة .. فقد كان مجرد ذكر اسم الجبهة كافيا لإثارة الذعر فى نفسها .. وقلت أقنعها مازحة :

ــ إذا نشبت معركة وأنا هناك .. فأعدك أنى سأكتفى بالمشاهدة .

وردت « أمى » قائلة فى إصرار :

ــ لا داعى إلى مثل هذه الأماكن الخطرة .

ــ سأذهب مع مائة شاعر وشاعرة وصحفى وصحفية .. لا تخشى علىّ شيئا .

وقال « أبى » محاولا إنهاء المناقشة :

ــ دعيها تذهب . إنها فرصة طيبة لترى المنطقة هناك . ولن تبعد كثيرا عن أرضنا .. لولا أنى مرتبط اليوم بعدة مواعيد .. لذهبت معهم ومررنا بأرضنا هناك .

وتساءلت « أمى » فى سخرية :

ــ أما زلت تسميها أرضنا ؟

ــ ولم لا !! سآخذ جزءا من المساحة المخصصة لى هناك .

ــ ألم يرفضوا إعطاءك إياها ؟ !

ــ سآخذها رغم أنفهم .. سآخذها بحكم القانون .. إن القانون يمنحنى أنا حق الاختيار .

ــ إذن لماذا يرفضون إعطاءك ما تريد ؟

ــ لأنهم يريدون الانتقام .

ــ ممن ؟

ــ من كل من ضايقهم فيما مضى .

ــ ولكنك لم تضايق أحدا ؟

ــ الوزير البعثى .. يصر على أن ينكل بنا لرواسب قديمة بيننا .. ولصلتى الوثيقة بحزب الشعب .

وقلت أنا فى دهشة :

ــ أليس القانون فى صفنا ؟ .

ــ طبعا .

ــ إذن .. كيف يسلبك حرية الاختيار ؟ !

ــ لأنه يعتقد أن سلطته أقوى من القانون .

ــ لماذا إذن لا تشكو ؟

ــ شكوت .. أنا وغيرى ممن يحاول الحكام البعثيون الاستبداد بهم .

ونهض « أبى » متجها إلى غرفة مكتبه وهو يتمتم فى أسى :

ــ إنهم يستبدون بكل البلد .. لم نكن ندرى ونحن نرحب بالوحدة أنها ستسلم أعناقنا إليهم ليجزرونا .

وقبل أن يصل « أبى » إلى حجرته التفت إلى « أمى » قائلا :

ــ دعيها تذهب .. لا تخزنيها بجوارك .

ونظرت إلىّ « أمى » متسائلة فى استسلام :

ــ من سيذهب معك ؟

ــ قلت لك حسان ونادية وسلمى .

ــ خذى بالك من نفسك .

وضحك « أبى » وهو يلتفت إلينا قائلا وهو يحاول التغلب على انفعاله بمشكلة تقسيم أرض الإصلاح :

ــ إذا نشب القتال .. فأعطينا خبرا بالتلغراف ، أو بالتليفون .. ولا تعرضى نفسك للرصاص .

ونظرت إليه « أمى » قائلة فى غيظ :

ــ مزاحك سخيف .

ونظر إلىّ « أبى » قائلا :

— انكم جادا .
وصاحت « أمى » فى إصرار :
— إذا لن تذهب .
وصحت انا بأبى :
— بابا .. كفى مزاحا .
وعاد « ابى » يضحك قائلا :
— اذهبى إذا ، ولا تنسى ان تزورى المعرض الزراعى فى السويداء .. لقد اشتركنا فيه .. بأفضل ما لدينا من العنب والتفاح .. وحصلنا منه على جائزة .
— لماذا لم تخبرنى إذا ؟
— لم أعلم بها إلا هذا الصباح .
ولم يطل وقوفنا كثيرا امام فندق سميراميس .. حتى استقرت الوفود فى مقاعدها .. وبدأ فوج العربات سيره متحركا فى طريقه إلى الجبهة .
ولم نحس بطول الطريق .
كان الطريق محاطا بالأشجار الباسقات . ثم المزارع المنبسطة .. وعلى ميسرته يتدفق النهر الصغير .
وكان الجو لطيفا .. نسمة خفيفة تبرد حينا .. وتدفأ حينا آخر .. مع ظهور الشمس او اختفائها وراء اكوام السحب المتلاحقة على وجهها .
ولم ينقطع الحديث بيننا طوال الطريق إلا فى فترات قصار كان كل منا يشرد خلالها فى امنياته ومشكلاته .
ولست فى حاجة إلى القول بأن أمنية لقائك كانت — على غير وعى منى ولا إرادة — اكثر ما يملأ نفسى بالبهجة والتفاؤل . ولكن وجه تفاؤلى .. كان يتلاحق عليه ليعتمه .. بين آونة واخرى .. سحب المشكلات التى احس بها من حولى .. وكانت اولاها مشكلة « ابى »

فى ارضه ، وسخطه على حكام البعثيين بصفة خاصة .. وعلى الوحدة التى اتت بهم بصفة عامة .
ولم اكن احس ان « ابى » وحده — او طبقته من الملاك الذين انتزعت اراضيهم — هم وحدهم اصحاب السخط على حكام البعثيين .. ولكنى كنت احس ان السخط قد بدأ يتسلل إلى الكثيرين .. ومن بينهم هؤلاء الذين كان المفروض ان سبب سخط البعض هو نتيجة حتمية لمحاولة إرضائهم ، واعنى بهم طبقة « عبد الدايم » اخى « حنيفة » . فقد احسست بداية سخط الذين لم يأخذوا ارضا .. لان الارض المنتزعة من الإصلاح لم تكن تكفيهم جميعا .. كما احسست بسخط عام حتى ممن اخذوا ارضا .. بسبب الجفاف .. الذى استمر فى عناد عجيب .. لا يسمح إلا بقدر من المطر .. قد يؤدى بالبلاد إلى مجاعة .. لو استمر سنتين اخريين .
ويبدو ان سحب التشاؤم التى مرت بذهنى لتعتم وجه تفاؤلى قد شاركنى إياها بقية زملاء الرحلة ، فقد بدا الوجوم عليهم لفترة من الوقت .
وكان اول من تكلم هو « حسان » ، ولم يكن حديثه يبعد كثيرا عن مجال تفكيرى .
قال « حسان » فى اسى ونحن نعبر بساتين الغوطة :
— سنة اخرى من الجفاف .. وتنتهى هذه الاشجار .
وتساءلت سلمى :
— كيف تروى فى سنى الجفاف ؟
— ارتوازيا .
— ولماذا لا نواصل ريها ارتوازيا ؟
— لان الآبار نفسها ستجف .
وعاد « حسان » يقول فى اسى :
— سوء حظنا .. ان يقترن احسن ما حققناه ، وهو وحدتنا ..

بأسوأ ما أصابنا وهو الجفاف .. لماذا يمتحننا القدر بمثل هذه القسوة !؟
ولأول مرة نطق الأسطى على متدخلا فى المناقشة قائلا :
— مالها الوحدة بالجفاف ! ؟
ورد حسان :
— نعرف هذا ، ولكن الفلاحين الطيبين لا يعرفون ، ودعاة السوء يأبون إلا أن يطلقوا من الأباطيل ما يزعزع إيمان الناس بالوحدة .
وقلت أنا فى شىء من الأسف :
— ليسوا دعاة السوء فقط .. إنما هم بعض الحكام الذين يؤكدون زعزعة إيمان الناس بالوحدة .
وتساءل « حسان » فى دهشة :
— كيف ؟
— ألا تعرف أن الوزراء البعثيين يصرون على تطبيق قانون الإصلاح بالطريقة التى ترضيهم هم ، والتى تمنحهم فرصة التنكيل بخصومهم ؟
وعرف « حسان » ما أعنى .. فقد كان يعرف مشكلة « أبى » ..
وهمهم قليلا ثم أفصح فى حديثه قائلا :
— شىء محير .
وتساءلت سلمى :
— لماذا يفعلون هذا ؟
وأجاب حسان :
— لأنهم يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى الوحدة ، وحكامهم يصرون على استغلالها لحكمهم ، ويصرون على الإبقاء على الحزب فعلا .. برغم حله شكلا .. وهم من أجل هذا يفرضون أنصارهم فى كل أجهزة الحكم من أجل السيطرة عليها .. بل لقد سمعت أن رئيسهم يتدخل تدخلا فعليا فى أجهزة الحكم .. مما لا يسمح له به منصبه .
وتمنيت أن يكف « حسان » عن هذا الحديث حتى لا تشعر « سلمى »

بأى نوع من الحرج .. فقد كانت أختها « عزة » من النماذج الواضحة لمحاولة فرض البعثيين أنصارهم فى الحكم .
ولكن « حسان » استمر فى حماسة :
— لقد نقل أحد زملائى من وزارة الشئون .. وشرد فى الجنوب والشمال .. لأن له قريبا من حزب الشعب .
وقلت أنا أحاول أن أغلق هذا الباب :
— ربنا يهديهم .
وقالت « نادية » تؤيد رغبتى فى إنهاء المناقشة :
— إنها شدة الحكام الجدد .. وكل غربال كما يقولون وله شدة .. وأرجو أن ينتهى كل شىء إلى خير .
وهز « حسان » رأسه غير مؤمن بقولنا :
— إنهم لم يعودوا جددا بعد .. ولا يبدو لى أن الهداية قريبة منهم .. إنهم يحاولون السيطرة على الصحافة لحسابهم ، ولست أظن المسألة ستنتهى إلى خير ، لا سيما بعد أن أعفى وزير الإرشاد البعثى من منصبه .
وهززت أنا رأسى فى شىء من الحيرة :
— حارت الوحدة بين الجفاف وبين حكام البعثيين .. دعونا ندعو الله .. أن يصون الوحدة وينزل المطر .. ويهدى حكام البعثيين .
وسمعت « الأسطى على » يقول فى حماسة :
— حقق الله دعاءك يا ست سهير .. فلن يعيد إلينا وطننا إلا وحدة العرب .. وسترين الآن بعينيك .. أرضنا المسروقة .. وتعرفين كيف تعز علينا الوحدة التى لا أمل لنا فى استرجاع أرضنا إلا بها .
واقتربنا من حدود الجبهة .
اجتزنا بوابات من الأسلاك الشائكة .. ورأينا جنودا ، وعربات تطل منها المدافع .. ثم توقفنا أخيرا أمام مبنى صغير منخفض .
وهبطنا من العربات وأقبل علينا ضابط كبير ومعه بضعة ضبلط صغار .. حاولت أن أبحث عن وجهك تحت رفوف كاباتهم ، فلم أجدك .

وشرحوا لنا أشياء على خرائط معلقة على الحائط ، ولم افهم شيئا مما قالوا .. فقد كان اهتمامى كله مركزا فى البحث عنك .

ابعد كل هذا المسير الطويل .. لا اجدك ! ؟

ايخبروننى مثلا انك ذهبت فى إجازة إلى دمشق ؟

غير معقول .

ولماذا غير معقول ؟

أمفروض عليك أن تنتظر لتستقبل وفود الشعراء والأدباء ؟

أمفروض عليك ان تخمن انى اتيت معهم .. حتى تنتظر لتلقانى ؟

وانتهى الشرح .. وخرجنا من المبنى واخبرونا اننا سننقسم إلى جماعات .. واننا سننتقل لنزور المواقع المطلة على الحدود .. واننا سنرى باعيننا ارض فلسطين المنتزعة وسنرى باعيننا جماعات اليهود .

وكدت اسأل المتحدث :

ـ اسنرى حمدى ؟ !

ولكنى اكتفيت بأن اغمز « نادية » فى ذراعها قائلة :

ـ اين حمدى ؟

وقبل أن تجيبنى سمعت صوت عربة تقف على باب المبنى .. ورايت ثلاثة ضباط يقفزون منها .

ودون أن أرى وجوههم ، استطعت ان اميزك منهم .. من قوامك وحركاتك .. وهتفت بنادية فى فرحة صبيانية :

ـ حمدى .

والتفتت إلينا لترى من الهاتف .

وبدت على ملامحك ابلغ آيات الدهشة وصحت .

ـ سهير ؟ !

وقبل أن تعطى الضابط الكبير تحيته العسكرية ، اقبلت علينا فى لهفة متسائلا :

ـ ماذا احضركم ؟

ونظرت إلىّ فى فرحة واضحة فى عينيك .. منحتنى إحساسا بالسعادة .. وقلت لى :

ـ حظ عجيب .. اتعرفين أنى كنت اوشك ان اعتذر عن المجىء لاصطحابكم لرغبتى فى العودة إلى دمشق ، ولكن القائد سألنى الانتظار حتى تنتهى زيارتكم .

وكان القائد ينتظرك حتى يلقى إليك بتعليماته .. فاتجهت إليه ، وحييته .. وسمعته يقول لك :

ـ اصطحب جماعة من هذه الجماعات .. ومر بهم على المواقع .. على ان نلتقى فى الميس قبل الواحدة .

واجبت وانت ترفع يدك بالتحية .

ـ حاضر يا فندم .

وبلا تردد اقبلت علينا قائلا :

ـ تفضلوا .

ومددت يدك لتصافحنى .

وتركت يدى تنعم براحة فى كفك .

لم الم نفسى .. ولم اسرع بنزعها من كفك .

لقد سلمت لنفسى بحق الاستمتاع بصحبتك .. واستمراء كل ما تمنحنى هذه الصحبة من متعة .

أحبك كما أنت

بدات رحلتنا فى الجبهة .

وبدا لى انك لا تحاول ان تتكلف نحوى شيئا لا تشعر به .

لم تجد هناك حرجا فى ان تخصنى وحدى .. دون سائر الجماعة بكل ما تملك من قدرة على الرعاية والاهتمام ، ولم تبد رعايتك لى امرا مستغربا ، ولا بدا اهتمامك الزائد بى مثيرا للشكوك .. فقد اخذه الجميع مأخذ الشفقة والعطف ، وبدا لهم تصرفك نحوى تصرفا طبيعيا للرجل المهذب نحو فتاة عرجاء .

واقول إن الجميع قد اخذوه ذلك المأخذ .. لأؤكد انى لم آخذه حينذاك كذلك .. بل اخذته بطريقة امتع للنفس .

اخذته كانفعال صادق بلقائى .. يشابه انفعالى بلقائك .. وتعبير صريح عن مشاعر خاصة نحوى .. تماثل مشاعرى الخاصة نحوك .

شىء امتع كثيرا .. مما تحسه لشفقة الآخرين بك .. وعطفهم عليك .. شىء يجعلك تتنفس بحرية اكثر ، وتعب" النسمة فى صدرك وكانك تريد ان تأخذ انفاس الحياة كلها مرة واحـــدة .. لتطلقهـــا فى خفة واسترخاء .. وكانك لا تشعر بوزنك على ساقيك ، بل كانك تتمايل فى ارجوحة او تسرى مع النسيم .

وتركت عربتك وركبت عربتنا فى المقعد الامامى بجوار « حسان »

والأسطى « على » .. وتقدمت عربتنا فوج العربات الخاصة بجماعتنا ، واخذنا نسير فى طريق جبلى ، وقد بدت المرتفعات من حولنا .

ولم يلبث الفوج ان توقف قرب موقع احيط بالأسلاك الشائكة .. وهبطت من العربة تشير إلى المواقع الدفاعية المنتشرة وراء دشم من الأسمنت .. وبدا على مقربة منه بضعة بيوت من الحجارة .. وبدت على السفح مساحات متناثرة جرت فيها يد الحرث دون ان تنبت فيها الخضرة .. ولعلها كانت تنتظر قطرات الماء .

ولم يبن على الجماعة اهتمام بشرحك .. فقد كانت بهم لهفة اشد إلى الوصول إلى الحدود .. ليطلوا على الأرض المغتصبة .

ولم اكن اكثر منهم إنصاتا إلى ما تقول .. فقد كنت اشد اهتماما بمراقبتك وانت تتكلم وتتحرك .. منى استماعا إلى ما تحاول شرحه .

وقلت لك استحثك وانا ارى الجماعة قد انصرفوا عنك إلى مراقبة ما حولهم :

ـــ اين ارض فلسطين ؟

واجبتنى باسما :

ـــ سترينها حالا .. هيا بنا .

وعدنا إلى العربات مرة لخرى .

ولم نسر طويلا حتى بدانا نتوقف .

وقال « الأسطى على » وهو يطلق زفرة حارة ويشير إلى مكان فى الطريق :

ـــ هنا كانت نقطة الحدود .. وهنا الجمرك .. طالما مررت من هنا وانا اقطع الطريق بين فلسطين وسوريا .

وسألته :

ـــ اسبق لك ان قطعت الطريق إلى هناك ؟

ورد فى دهشة :

ـــ سبق لى ؟ ! .. إنه طريقنا .. الطريق إلى بيتى .

وهبطنا من العربات .. ووقفنا على ربوة عالية .. وبدا امامنا واد اخضر فسيح ، وبدت البحيرة تلمع فى أحد جوانبه .

ووقفنا برهة كالماخوذين .

ووقفت بنا تشير بأصبعك إلى الوادى :

— هذه بحيرة طبرية .. وهذا مجرى الأردن .. وتلك هى النقطة التى يريدون تحويل مجرى الاردن منها .. إنها تقع فى المنطقة الحرام ولن نسمح لهم بالاقتراب منها .. وسنردهم بعنف إذا حاولوا التسلل إليها .

وصمت برهة ثم اشار إلى النهر قائلا :

— هذا هو جسر بنات يعقوب .

وقبل ان تكمل حديثك سمعت صوتا يهدر فى حماسة :

— وتلك هى قريتى .. هناك .. وراء ذلك المنحدر فى اقصى اليسار .

وصمت « الأسطى على » برهة يلتقط انفاسه واردف يقول :

— اجل .. اجل .. إنى اعرفها جيدا بتلك القباب البيض .

وتهدج صوته .. والتفت إليه فوجدته .. يقف بشعره الاشعث الاشيب ومعطفه الاسود .. وقد لف عنقه بكوفية من الصوف الرمادى ، وقد اشراب ببصره إلى الأفق حيث بدت وسط الضباب الخفيف بضع قباب وابنية بيض فى اقصى المزارع التى امتدت امامنا .

وعاد الرجل يقول .. وكأنه يحدث نفسه :

— وراء هذه القباب توجد السوق .. والطريق المؤدى إلى بيتى .. وامامه شجرة الزيتون العجوز .. استطيع ان انطلق بالعربة لأصل إليه .. لا يمكن لأى شىء أن يحول بينى وبينه .. موطن ابى وامى ، ومرتع صباى .

ونظر إليه رفاق الرحلة مشدوهين .. وشرد كل منهم ببصره فى الأفق حيث خلط الضباب خضرة الارض بزرقة سمائه .. وسمعت « نادية » تتمتم فى ذهول :

— غير معقول .. ان ترتكب مثل هذه الجريمة .. فى القرن العشرين .. ان يسلب وطن باكمله .. بارضه وسمائه وهوائه ودوره واشجاره .. ويتشرد اصحابه تحت بصر العالم المتحضر .. ويحرمون من كل تراثهم وتراث اجدادهم ، ليهدى إلى شراذم من كل بقاع العالم .. غير معقول ان يقف اصحابه على اعتابه يتطلعون إليه فى يأس وحرمان .. ويرتع الغرباء فى ارضه .. غير معقول ابدا .

وخيم الصمت مرة اخرى ، وعاد « الأسطى على » يردد وهو يشير بيده إلى القباب البيض :

— لم ينزعها احد من نفسى ابدا .. تلك هى بلدتى .. وستبقى ابدا بلدتى .. إنهم غرباء مهما طال بهم الزمن .

وربت كتفه فى رفق شاعر كهل وهتف به :

— إنهم كالشوكة فى الجسد .. لن يستريح حتى يلفظها ، او تقضى عليه .

ورددت انت وملء نفسك إحساس بالثقة :

— لن تقضى عليه ابدا .. ونحن هنا .. تتشابك ايدينا .. وتتساند اكتافنا .

واجابه الاسطى على :

— لو كنا كذلك دائما .. ولو كنا كذلك فى كل بقعة من ارضنا العربية لما حال بينى وبين بلدتى شىء .. لعدت إليها فى غمضة عين .

وقال الشاعر الكهل فى إيمان :

— ستعود .. إنك صاحب حق .. والحق لا يضيع .

وطالت وقفتنا على الأرض السليبة .

لم اكن ادرى اى شىء كان يجذبنا إليها .. ويدفعنا إلى طول التأمل فيهـا .

اهى الأمانى الحلوة فى ان تعود إلى الوطن العربى القطعة الحية التى التهمت منه .. فمزقت اوصاله وقطعت شرايينه .. وفصلت راسه

عن جسده .. وباعدت بين عاليه واسفله .. وسدت الطريق بين أوله وآخره ؟

أهى الرغبة الخفية فى الهبوط إلى الوادى الأخضر .. والإمساك بالأرض الطيبة المحرمة علينا ؟

أم هى التصورات الحزينة لهؤلاء القابعين فى الخيام .. يعيشون على ذبالة خافتة من آمال العودة ؟ !

وكان لابد أن يأتى من ينتزعنا من وقفتنا الشاردة التى ملأتنا بالاحاسيس المضطربة .. المليئة بالحزن والضيق والغضب والتفاؤل والتشاؤم .

وهتفت بنا لتوقظنا من شرودنا قائلا :

— هيا بنا .. لقد حان الوقت للعودة .

وعدنا إلى العربات .. وجلست بجوارى هذه المرة .. فقد جلست « نادية » و « حسان » فى احد الاتوبيسات مع ثلة من اصدقائهما من الكتاب والصحفيين .. ولم التفت كثيرا إلى الطريق .. فقد انهمكت فى الحديث معك .

وبدأت حديثك وأنت تقول لى بفرحة صبيانية :

— لم يخطر ببالى ابدا أن تزوريننى هنا .

ورحت أتصيد منك المديح بطريقة ساذجة .. فقلت لك متسائلة :

— لعلى لم أتسبب لك فى الكثير من الإزعاج ؟

ورددت فى خبث وأنت تهز راسك :

— إزعاج محتمل .

وتساءلت سلمى ضاحكة :

— ولكنه إزعاج على اية حال .

— اجل .

وقلت وانا مدعية الغضب :

— لو عرفت ذلك .. لكنت عدلت عن الحضور .

— كانت تبقى كارثة .

وضحكت سلمى قائلة :

— والإزعاج أخف من الكارثة .

— طبعا .

— وأى نوع من الإزعاج قد سببناه لك ؟

واجبت وأنت تنظر إلى بذلتك الخشنة .. بذلة الميدان :

— كنت اود ان اكون اكثر لياقة فى لبسى .. إنى احس انى فى منتهى البهدلة .

واحسست انك تحاول بدورك ان تتصيد مديحى .. وصممت ان ارد عليك بنفس اسلوبك فقلت فى براءة .

— معك حق .

وضحكت أنت .. فقد كان قولى آخر ما تتوقع من رد ، وقلت معتذرا :

— فى المهرجان القادم سأنتظركم بالتشريفة .

— تشريفة فى الميدان ؟

— تشريفة لاستقبالك .

— ولكنى لا احب التشريفة .

— تحبين البهدلة .

— احبك كما أنت .

قلتها ببساطة .. وعن غير قصد لمعناها العميق .

قلتها على مسمع من « سلمى » و « الأسطى على » .

واجبت أنت بنفس اللهجة السهلة البسيطة :

— وانا ايضا .. احبك كما أنت .

ولم يكن من المتصور ابدا ان جملتينا البسيطتين الصريحتين المتبادلتين فى معرض مزاح تحملان اى تعبير جاد للحب .. وإلا لما جرؤنا على قولهما بتلك الطريقة العلنية .

لقد قالها كلانا بنفس البساطة التى يعبر عن حبه لنوع من الفاكهة او صنف من الحلوى .

مع ذلك سادنا الوجوم برهة .. وكان الجملة البسيطة قد حملت من المعانى اكثر مما كنا نريد لها .. أو كانها — عبرت عنها انت فيما بعد — قذيفة انفجرت على غير قصد من صاحبها .

واسرعت انت تكتم الانفجار قبل ان يشعر به احد ، وتسكت الرنين قبل ان يطرق بجلجلته الآذان .

وقلت تحول الأنظار إلى اتجاه آخر بعيدا عن الطريق الشائك الذى كدنا — سذاجة — نجر إليه خطانا .

وقلت وانت تشير من النافذة إلى أحد المواقع الدفاعية :

— تحيات المدافع لا تكاد تسكت بيننا وبين اليهود .

وقال الاسطى على :

— ربنا ينصرك .

وتساءلت سلمى :

— من البادىء بالتحية ؟

ورددت ضاحكا :

— هم يبدءوننا ونحن نرد بأحسن منها .

وصمت برهة ثم اردفت قائلا :

— وإن كنت اعتقد انهم يدبرون امرا اكثر من مجرد تحية .. يخيل إلىّ انهم يحاولون ان يجسوا نبضنا .. لعلهم يعرفون مدى جديتنا فى مقاومة محاولتهم تحويل مجرى الأردن .

وساءلتك فى قلق :

— ايمكن ان تحدث معركة ؟

وقلت باسما :

— نحن ننتظر المعركة فى كل لحظة .

ووصلنا إلى رئاسة المنطقة .. واتجهنا إلى ميس الضباط وكانت بقية الجماعات قد وصلت ووقفوا فى حلقات يتحدثون عن الأرض الخضراء الطيبة المغتصبة التى شدت ابصارهم عندما وقفوا يرمقونها من فوق الجبل عند الحدود .

ولم يطل بنا الوقوف حتى دخلنا إلى القاعة المستطيلة التى صفت المقاعد فيها حول مائدتين كبيرتين ، ومائدة صغيرة على رأسيهما ، جلس عليها الفريق قائد الجيش ومن حوله الشعراء والأدباء والضباط .

وجلست بجوارى ورحت تقدم إلىّ الطعام قائلا :

— أنت ضيفتى .

— من قال هذا ؟

— الجيش صاحب الدعوة .. وأنا من الجيش .

ونظرت انا إلى صحاف الطعام العديدة التى رصت امامنا وسألتك ضاحكة :

— اذا كنت صاحب الدعوة حقا .. اتعرف اسماء هذه الأطعمة التى تقدمها لى ؟

واجبت فى حماسة :

— طبعا .

واشرت إلى أحد الأطباق وسألتك :

— ما هذه ؟

واجبت فى ثقة . وكأنك طالب يعرف دروسه جيدا :

— كبه نيه .

— وهذه ؟

— تبولة .

— ما شاء الله .. لقد بت خبيرا فى الأطعمة السورية .

— اكون غبيا إذا لم أصبح خبيرا .. ونحن لا نفعل هنا سوى الأكل .

واتممت قولك ضاحكا :

— والرد على تحيات اليهود .. بأحسن منها .

وشاركنا الذين حولنا الضحك .. وقبل أن ننتهى من ضحكنا اقبل الخدم يحملون دفعة جديدة من الطعام ، ووضع أحدهم بعض الصحاف

أمامنا ، ونظرت إليك فى خبث ، وانت تمد يدك بالملعقة .. وقلت متسائلة :

— اتعرفَ ما هذا ؟

واخذت تنقل من الطبق الكبير إلى طبقى وانت تحاول معرفة الشىء الذى تغرفه .

وبدت عليك الحيرة .. وانت لا تعرف كنه ذلك الشىء الذى تغرفه .. وقلت لك ساخرة :

— اما زلت تصر على انك صاحب الدعوة ؟

واجبت بلهجتك المصرية اللطيفة ، وانت تهز راسك بالنفى :

— لا .. الصنف ده .. صعب .

ثم اردفت ضاحكا :

— ماذا افعل وهم لا يقدمونه إلا للضيوف .. الظاهر انه صنف ممتاز .. ما اسمه ؟

— فتة مجدوس .. الم تاكله من قبل ؟

— لا .

— هذا خطؤنا .. كان يجب ان اعرفك به .. عندما تعود إلى دمشق اول مرة .. ستتناول العشاء عندنا .. وسأقدمه لك ..

واخذت تأكل منه وتساءلت مبالغا فى إظهار الاستطعام به :

— ممّ يصنع ؟

— من الباذنجان المحشو بالجوز .

— كل شىء عندكم محشو بالجوز واللوز والفستق .

ثم اردفت مغازلا :

— وهذا سر جمالكم .

وضحكت من قولك وتساءلت ساخرة :

— من علمك الغزل ؟

ونظرت إلى عينى واجبت ضاحكا :

— جننه .. علم الغزل .

وغمرنى من مزاحك اللذيذ .. شعور بالمتعة والطرب كنت تخلط المزاح بالجد .. والضحك بالغزل .

وكانت المرة الأولى ان اشعر بأنى أغازل واطرب للغزل .

كنت فيما مضى أتلقى آيات الإطراء من الأقرباء والأصدقاء فلا تثير فى نفسى اكثر مما تثير نظرة إلى وجهى فى المرآة .. تبعث فى نفسى الطمأنينة على شكلى .

لم أحس ابدا بنشوة من نظرة إعجاب تلتقى بعينى .. ولا كلمة غزل تنبئنى بأنى جميلة .

ولكن منك انت .. كان شىء آخر .

لم يكن يطربنى فقط .. بل كان يطربنى ، ويرسب فى اعماقى .. لأستعيده فى ذاكرتى .. لأطرب منه كلما شعرت بحاجة إليه .. وكأنى اختزنه لأجتره .

وقبل نهاية الطعام .

بدات الخطب والقصائد .

القوا قصائد .. كثيرة .. طويلة .

عجبا لهؤلاء الشعراء ، لا يملون الإنشاد ابدا .

يستطعمون الكلمات فى فمهم .. وكأنها الحلوى .

وكنت اتخيل انهم ملوا فرط الإنشاد فى المهرجان .

ولكن .. ابدا .

لقد بدوا .. وكأن افواههم اطبقت طوال المهرجان ، وكأن الوليمة فضت الختم الذى أطبق على شفاههم .. فانطلقوا ينشدون فى لهفة .

ولو لم يكونوا شعراء .. لطافا .. عذاب القول .. حلوى الحديث .. لكانت مصيبة .

وانتهى الإنشاد اخيرا .. بعد ان اعتبرت الوليمة .. كيوم إضافى للمهرجان .

وقمنا متخمى البطون بالطعام .. متخمى الأذهان بالأشعار .

وسألنا احد الضباط ونحن نهم بمغادرة القاعة إلى العربات :

— اتحبون ان تشاهدوا معرض الإنتاج الزراعى ! ؟
وتذكرت ما قال « ابى » عن المعرض واجبت فى حماسة :
— اجل .. إننا نريد مشاهدته .
واقبل « حسان » يتساءل فى دهشة وهو ينظر إلى الساعة :
— ماذا تريدين ان تشاهدى ؟ ! لقد ازف الوقت .
ورددت فى حماسة :
— قال ابى إننا عرضنا بعض إنتاجنا فى المعرض .
وتساءلت فى نفس الحماسة :
— حقا ! ؟ إذن هيا بنا .

ولم يكن المعرض بعيدا .. ولم يكن اكثر من قاعة صغيرة عرض فيها بعض انواع الخضر والفاكهة .

ولكن .. كانت فرصة ممتعة .. ان نقضى معا وقتا اطول .

ورحت اتلكأ وإياك امام الفاكهة المعروضة .. حتى وصلنا إلى القسم الذى عرضنا فيه إنتاجنا .. فرحت افاخر امامك بما عرضنا قائلة وانا اشير إلى احد عناقيد العنب :

— ما رايك فى هذا العنقود ؟
وامسكت بحبة من حباته متسائلا :
— استطيع ان اتذوقه ؟
ورددت عليك ضاحكة :
— تستطيع ان تاخذه باكمله هدية منى .
وامسكت بالعنقود الكبير ، وقلت فى لهجة جادة :
— افضل ان استهديك شيئا يبقى .

وكنت امسك بسلسلة مفاتيح تعودت ان اشغل بها اصابعى وقد كتب عليها بالإنجليزية « عد ثانية » ، ومددت يدى بالسلسلة قائلة :

— خذ هذه .. فلعلها تعيدك إلينا ثانية .
وامسكت بها بين اصابعك فى شىء من الحرص واجبت قائلا :

— سأذكرك بها .. عدت ام لم اعد .
— بل ستعود دائما .

وقد يبدو للحديث معنى كبير عميق .. ولكنى اذكر انه قيل وقتذاك بنفس البساطة التى كنا نطرق بها اى موضوع عام .

لم نحاول ان نخفت اصواتنا .. او نقوله بمعزل عن الناس .. فقد كنا نقصد بالحديث وجهه الواضح الصريح العام .. ولم نحاول قط ان ان نقر بان له وجها مستترا خاصا ، يشد احدنا بالآخر بخيوط خفية .. نحجبها حتى عن نفسينا .

واخيرا تركنا قاعة المعرض .. واتجهنا إلى العربات ، ووقفت لوداعنا .

ولم يتملكنى اسى لوداعك .. فقد حصلت من يومى على رصيد من السعادة يطغى على اى إحساس بشقاء . ولم يبد لى وداعك .. وداعا بقدر ما بدا إيذانا بلقاء جديد .

واكد لى إحساسى قولك وانت تشد على يدى :
— ساتى إلى دمشق فى الخميس القادم .
— فى اية ساعة ؟
— بعد الظهر .
— ستتحدث إلينا فى التليفون ساعة وصولك ؟
— إن شاء الله .
— وستتعشى معنا ؟ !
— فتة مجدوسه ؟
— وكبه وتبولة وكل الاطعمة السورية التى تحبها .
— يبدو لى انى لن افعل شيئا غير الطعام .
— سأسمعك تسجيلا جديدا لفيروز .
ولم تبد حماسة كبيرة ..
واردفت اقول :

— تسجيل لاغنية قديمة من اغانى عبد الوهاب تغنيها فيروز بتوزيع جديد لإخوان رحبانى .

وتساءلت فى اهتمام اكثر :

— ما هى ؟

— يا جارة الوادى .

وهتفت فى فرحة :

— حقيقة ؟

— اجل .. سأسمعها لك هى واغنية اخرى من تلحين عبد الوهاب اسمها « إسهار » .

وعدت اشد على يدك واتساءل :

— لعل كل هذا .. يكون مغريا لك بالمجىء .

ونظرت إلى عينى تلك النظرة المعجبة الحلوة التى ملأتنى نشوة ، وانت تقول لى : « جفنه علم الغزل » .

وقلت لى فى لهجة رقيقة حنون :

— لست فى حاجة إلى مغريات .. يكفى ان اراك .

وودعتنى باجمل ما يمكن ان تسمعه اذناى من قولك الجميل .. وتحركت بنا العربة وعيناك معلقة بعينى .. وابتسامة رقيقة تعلو شفتيك ويدك تلوح لى مودعة .

وخيم علينا الصمت طوال الطريق .

ولم اكن فى حال تساعدنى على الحديث او الاستماع .. كنت اتوق إلى التفكير .. فى كل ما مر بى .

كنت فى حاجة إلى ان اتمعن فى الاقوال الخاطفة التى دارت بيننا .. ولمعت كشعل البرق .. لتضىء الجوانب المعتمة من حياتى وتلقى شعاعا مضيئا على الطريق ذى البداية المشرقة .. لتزيل من نفسى الخشية من نهايته الغامضة .

كان بنفسى إحساس عام بسعادة غامرة .. ولكنى كنت فى حاجة إلى مراجعة اسباب تلك السعادة مع نفسى .

كنت اريد ان اتثبت من قيامها على اسس حقيقية .. ثابتة .

كنت اسائل نفسى « امنحتها اسبابا موهومة للسعادة ، وتركت الأوهام تعبث بها .. أم كان كل ما استمتعت به حقا .. صادقا » ؟

وهكذا شرد بى الذهن ، لأستعيد لنفسى كل ما قلت لى ، واستجلى معانيه .. ومقاصده .. وكأن هذه الاقوال البسيطة .. الغاز عويصة تحتاج إلى تفسير .

ذكرت اول ما ذكرت ردك على قولى : « احبك كما انت » بانك « تحبنى كما انا » .

وبرغم انها قيلت بنفس البساطة التى تقول بها .. إنك تحب التفاحة كما هى .. فقد احسست انها عنيت لى شيئا كبير .. إذ كنت قد قلتها ردا على قولى .. إنى احبك كما انت .. فبرغم انى قلتها ببساطة .. فلا اظن ذلك يمنع ابدا من إحساس فى اعماقى بأنى عنيت بها ما اقول .. وانى فعلا احبك دائما كما انت .. وكيفما كنت .

فإذا كنت قد عنيت بقولك ما عنيت بقولى .. فهو قول يستحق التمعن والتفكير ؟

ولا سيما لى انا !

فكونك تحبنى كما انا .. قول لا يسهل على إنسان عاقل ذكى مثلك ان يقوله لعرجاء مثلى :.:.

وعندما تعنى انت قولك هذا .. وانا احس لك بما احس ، وانا اقف من حياتى ومن امنياتى بمثل هذا الحذر والخوف .. فأنت تمنحنى قدرا من الشجاعة فى مشاعرى وتصرفاتى يملؤنى بالتفاؤل .. ويملأ حياتى بالإشراق والأمل .

وعدت اذكر نظرتك فى عينى . وكلمات الغزل التى سقتها إلىّ .

وانا اعرف الرجال المغازلين بطبعهم ، ومن بينهم ابى . ولكنى لم احس قط انك منهم .. فأنت خجول حيى . متحفظ فى قولك .. حذر فى حديثك .

فإذا نظرت فى عينى نظرة حلوة ، وإذا سقت لى كلاما جميلا .. فانك لا شك تعنى به شيئا .

وهكذا اخذت اردد لنفسى كل ما قلت .. وكل ما فعلت .. لأؤكد لنفسى انى قد اقمت سعادتى على اسباب حقيقية .. غير موهومة .

وإن ذلك الإحساس الجميل .. الغامض الذى احس لك به .. لا شك قد احسست لى بمثله .

ووصلت بنا العربة إلى دمشق .. وصوتك يهتف فى اذنى : « يكفى ان اراك » .

--- x ---

(تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى)



« الجـــزء الأول »